سُنَن التَّغيير



جودت سعيد

دارُ الفِكرِ المُعاصِر
بيروت - لبنان

الكتاب ٨٩٧
الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م
ط ١ = ١٩٨٨ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٢٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس: FIKR 44316 LE

الْحَمْدُ لله
وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ☆ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ☆ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ☆ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ☆ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾

[العلق ٩٦/١ـ٥]

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلِّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلالهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا ..

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الأحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابنٌ آدم الأول) ، وأن ننوِّه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عن أداء الأمانة ؛ في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ؛ ﴿ وَمَنْ أحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصّلت ٣٣/٤١] ، ﴿ وَمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة ١٤٠/٢] .

المحتوى

مقدّمة

بسم الله ، والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..

بدا موضوع هذا الكتاب في ذهني منذ وقت بعيد ، ولم أزل أقلبه ، وأعارضه ، وأعرض عليه خلال سنوات . وقد استقر في نفسي نتيجة الثقافة التي تشيع بيننا أن العلم ينبغي أن يكون موضوع بحث حتى تكون له معالم واضحة ، وقد لاحظت أن كثيراً من سلطان هذا العلم يرجع إلى الاعتقاد (الأيديولوجية) والتسليم والرهبة والهيبة أكثر مما يرجع إلى الفهم والتحليل الدقيق ، بحيث يمكن أن نزعم أن العلم يؤدي دوراً أسطورياً أكثر منه علمياً ، فرغم اسم العلم فإن الدور والوظيفة أسطورية[1] مختلطة تحمل الخرافات وكل التراث البشري المختلط .

لذلك رأيت أن من المفيد التوجه إلى دراسة العلم ـ مع اعترافي

---

(١) صار العلم شهادات وألقاباً ، كما أن الدين صار طقوساً وأسماء ، فكثير مما نسميه علماً ليس بعلم ، ويقوم بدور أسطوري ويحمل الخرافات ﴿ ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ .

بمحدودية ما أملك ـ وأنه لا بد من البدء بطرح الموضوع لنتوجه إلى العقول بتحديد معنى العلم وتمحيصه . ولقد كان هذا في ذهني حين بدأت الكتابة ، ولكن أثناء المضي في الموضوع تبين لي أن قانون سير العلم مرتبط بالقراءة ، فمن يتأمل كيف نشأ العلم وكيف بدأ ، يلاحظ أن العلم لم يأخذ دوره الواسع إلا مع اكتشاف الكتابة ، لأن التجارب كانت تضيع وتموت بموت أصحابها ، ولأن الذاكرة ليست مأمونة للحفظ ، ثم اكتسبت التجارب والمعارف الخلد مع ظهور الكتابة ، فكأن الإنسان ملك ذاكرة غير قابلة للموت ، وهذا شيء مهم في حياة العلم . كما أن ما يكشفه فرد من العلم صار يعمم بيسر إلى سائر الأفراد فلا يحتاجون إلى جهود وبحوث لإعادة الكشف ، فقد صار هذا الذي اكتُشِفَ ملكاً للإنسانية . وإن لتقييد الكشف وتعميمه الصدارة في نمو العلم ، وهما لا يتمان إلا بالكتابة ، وبعبارة أخرى لا يحفظ ما عرف واكتشف ولا ينتقل إلى الآخرين إلا بالكتابة . ولهذا يمكن أن نقول : إن الكشف والحفظ والتعميم متممات للعلم ومولدات له ، فإذا كان العلم يتم بالكشف فإنه ينمو بالحفظ والتعميم ويؤدي وظيفته ، وكما أن الكشف قد صار متوقفاً على الحفظ والتعميم فإن العلم ـ وإن بدأ قبل التسجيل والإشاعة ـ لم يرسخ بعده إلا بالتسجيل والإشاعة ، ولم يضرب أطنابه إلا بها ، وسوف يظل مرتبطاً بها . ومن هنا صار العلم بالقلم

والقراءة لا فكاك له ، ومن هنا وجدت أن يكون عنوان هذا الكتاب ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٣/٩٦] .

إن الهدف هو العلم ولكن العلم متوقف على القراءة ، فهي رحم العلم التي بها ينمو ويتطور ، وإن العلم المحفوظ المعمم هو الذي يولد العلوم الجديدة ، وإن العلم يزداد بمقدار ما يتسنمه من هرم واسع مرتفع من العلم المحفوظ المعمم . ولهذا كان أول ما نزل في آخر رسالة من السماء : كلمة ﴿ اِقْرَأْ ﴾ قبل أي كلمة أخرى في العقيدة أو الإيمان أو العبادة . ولهذا أيضاً حدد الله تحصيل العلم بالقلم ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ . وهذا التصور هو ما جعلني أعدل عن جعل عنوان الكتاب (العلم) إلى العنوان الجديد .

وإن من أجلّ الأعمال التي على أهل العلم أن يقوموا بها أن يسهّلوا ما يقرأ ويبسطوه ويوجزوه لتتحقق فائدة القراءة .

وعلى الرغم من أن الكتابة ظهرت منذ خمسة آلاف عام ، إلا أن فائدتها لم تعمّ إلا مع اختراع الورق منذ ألف وخمس مئة عام ، ثم مع الطباعة منذ أقل من خمس مئة عام حيث حدث انفجار بركاني اجتماعي لا يزال لهيبه يتصاعد حتى اتصل هذا اللهيب بالآلات الحاسبة منذ بضعة عقود ، ولا يزال العلم ينتظر التبسيط والتقليم ليأخذ مجده ،

وليؤدي الإنسان مهمته ويحقق إنسانيته بالقضاء على الفساد وتطهير الأرض من الدماء والدمار . وهذا من أقدس الأعمال التي يجب أن توجه إليها همة البشر .

إن الاستفادة من العلم الذي تحقق ، تجعل سير الحياة متوازناً وسوياً لا يعتريه ظلع ومن هذا المنطلق كان القول الموروث : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) . وإذا كانت الأمية المنتشرة في مجتمعاتنا وصمة عار علينا فإن عدم تكون القمة المفكرة المبدعة الطُّلَعَة التي تتحسس علم العالم أخطر من الأمية البسيطة ، لأن مشكلتنا مشكلة أمية مركبة ، ومن هنا كان اعتبار القرآن أن الأمية ليست فقط أمية القراءة والكتابة بل أمية الأفكار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة ٧٨/٢] ، أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة فقط على أحد وجوه التفسير « قال ابن تيمية عن ابن عباس وقتادة في قوله ومنهم أُمّيون أي غير عارفين بمعاني الكتاب يَعْلَمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه . وقوله ﴿ إلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ أي تلاوة ، فَهُمْ لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم »[1] .

---

(١) الجزء السابع عشر من الفتاوى ، ص ٤٣٤

إن مشكلة القراءة هي مشكلتنا الأساسية ، القراءة المطلقة والموجهة أو المجردة مما لا فائدة منه ، التي تراجع نفسها دائماً فتحذف ما فات أوانه ولا تحملها آصاراً وأغلالاً . إن إنتاج ما يقرأ هدف أساسي ، والقراءة تصنع نفسها وتجدد نفسها ، هي بذاتها تصحح أخطاءها وتتقدم بوسائلها ، وإن العالم الذي تعلَّم القراءة من خمسة آلاف عام ينتظر أن يقدم إليه ما يستهويه . إنه يستحث الكتاب ، فتحت سنّ القلم يبرز المستقبل الإنساني ، وكأننا بهذا نعيد - ولكن بأسلوب آخر - الأسطورة الشعبية التي تقول : إن العلم كله في النهاية ينحصر في النقطة التي تحت باء بسم الله الرحمن الرحيم .

وأنشد من هذا الكتاب مطمحين أساسيين أعدهما من أهم الأمور وأنبلها فيما أكتب .

أولهما : وضع الإنسان على طريق العلم ، وذلك بنقل ملكة العلم إلى الناس ونشرها بينهم . وهذا - كما أرى - من أقدس الواجبات التي ينبغي أن تُسَخَّر الطاقات لتيسيرها وتسهيلها حتى يتمكن الناس من أن يعيشوا في جو العلم ، وينعموا بما ينشره من طمأنينة ورزانة وصحة عقلية .

وثانيهما : السلام ، وهو وليد العلم ، فعن طريق العلم يدرك

الإنسان إمكانية إصلاح الإنسان دون إعطابه وتـدميره ، لأن قليل العلم الذي أعيته الحيل هو الذي يلجأ إلى الهدم والتدمير ، وأحياناً إلى فكرة (عليّ وعلى أعدائي) بدل أن يتجـه إلى العلم الـذي سيحول العـدو إلى ولي حميم[١] .

وما نراه من احترام سطحي للعلم عند من فقـدوا ملكتـه يتلاشى ويتبخر إذا جـد الجـد ، ونرى التكشير عن الأنيـاب لتمـزيـق العلم ، حيث يسود الانفعـال ويغطي العقل ويبطل مفعولـه ، فيعود السلوك للاستجابة إلى الدوافع الغريزية ، دوافع مـاقبل العقل والعلم ، يحـدث هذا ويتنكر الإنسان للعلم انسيـاقـاً وراء تعميم ذميم[٢] لا يميز الخطـأ من الصواب ، ولا العلم من الجهل ، وفي هـذا خطـأ جسيم وهـدم للطريـق المستقيم ، كما أن هـذا منـاف لمنهـج القرآن الـذي يـزكي العلم ولا يتنكر له ، ويصف من يتنكرون له وينبذونه وراءهم ظهرياً بـأنهم لا يفقهون ولا يعلمـون ولا يعقلـون . وإدانـة العلم أو سحب الثقـة منـه اتباعـاً للأوهام والظنون خطأ جسيم ، فحاشى للعلم أن يكون في موضع هجوم

---

(١) إن تهمـة الملائكـة لـلإنسـان حين أراد الله استخـلافـه في الأرض ، بـأنـه يفسـد فيهـا ويسفك الدماء هي مشكلة السلام التي ماتزال قائمة سواء على مستوى الأفراد أو العالم أجمع .

(٢) يقصد بالتعميم الذميم : توسيع دائرة العلم ليشمل الظن وما ليس بعلم .

وإنكار ، وإنما الذي يجب أن يكون في موضع الهجوم والإنكار هو الجهل والهوى والظن . وكان الأجدر أن نبين العلم ونقدسه ونعلي من شأنه وأن نبين أن ما نهاجمه ليس علماً ولا هو بسبيل العلم وإنما هو الخطأ والجهل .

إن التسرع في إدانة العلم يحمل إلى صاحبه خسارة كبرى لأنه لن ينقذه غير العلم ، ولأن ما يدينه إما أن يكون علماً فيُقبل أو جهلاً فيرفض ونعرض عنه ، وعلينا ألا نخلط بينهما فنظن الجهل علماً والخطأ صواباً فننكر العلم ونصوب الخطأ ، فنجني على العلم والصواب ، ونحن نتوهم أننا نخدم آراءنا ونحمي عقائدنا ونبني دعائم المستقبل لنا ولأجيالنا ولبني آدم عامة ، بينما نحن في الواقع نهدم أنفسنا ونبلبل أفهام الأجيال ونضع العقبات أمامهم .

وما يشيع في كتابات بعض المسلمين ، أو يقدَّم من ثقافة عامة للجيل توحي بأن العلم عاجز عن حلِّ مشكلاتنا ، وتسحب الثقة من العلم وتضعه في موضع الإدانة ، مناقض لمنهج القرآن الذي يقرر : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سبأ ٦/٣٤] ، ويقول : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء ٣٦/١٧] .

ولا أدعي أني سأقدم تعريفاً سهلاً للعلم يوصله إلى التمييز بينه وبين الظن وبين العقل والهوى . ولكن جُلّ مطمحي أن أتمكن من تسليط بعض الأضواء على العلم تجعل المتأمل يخرج بإدراك أوسع أو إدراك جديد .

وإني أرى أن مفهوم العلم سواء عند المسلمين أو عند من نقرأ لهم من غير المسلمين وخاصة في الغرب ، ليس هو الذي أطمئن إليه .

فتصور المسلمين للعلم وخاصة المعاصرين منهم ليس كالتصور الذي أفهمه من القرآن ، وهو أن العلم هو الذي يكشف الحق . فهؤلاء يرون أن هناك شيئاً آخر غير العلم نعرف به الحق ، وأحياناً يرون أن العلم لا يهدي إلى الحق ، ولا يخدعنك حديثهم الطلي في مدح العلم وسوق الآيات والأحاديث المأثورة من الحكم التي ترفع شأن العلم ، لأن هذا الموقف يتغير في أماكن أخرى من بحوثهم حيث ينظرون إلى العلم بريبة .

وأما في العالم الغربي فيقصرون العلم على ظواهر الطبيعة أو بعضها ، وحين يتصل العلم بالقيم والدين أو الإنسانيات يرون أن هذه المواضيع غير علمية ، فكأن العلم محصور في مواضع معينة ولا يشمل كل أمور الحياة . وهذه النظرات القاصرة تحط من قيمة العلم وتحد من

شمولـه وفـاعليتـه . وبحسب ثقـافتي القرآنيـة أرى أن كلتـا النظرتين قاصرة ، فـالمسلمون ينبغي أن يصلوا إلى درجـة الثقـة الكاملـة بـالعلم ، وبأنه في خدمة الحقيقة دائماً ، كما يجب على الغربيين أن يدركوا أن دور العلم في مجـال الـدين والقيم والإنسـانيـات والأخـلاق كـدوره في مجـال الطبيعة .

فحين كان العالم يجهل عوامل الأوبئة التي كانت تجتاح العـالم ، لم يكن من الحق أن يقال : إن الوبـاء لا يخضع للعلم ، بل كان على الـذي له صلة صحيحة بالعلم أن يقول أن الوباء وعوامله خاضعـة للعلم ، وإن لم نعلم ذلك ونسيطر عليه ، وعلينـا أن نجتهـد لتحقيق ذلـك وكـذلـك الشـأن مع الأخلاق والقيم والـدين ، فليس من الموقف العلمي أن نقول إنهـا لا تخضع للعلم ، بـل نقـول : إن العلم ـ وإن لم نتمكن من كشف قـوانينـه في الأخـلاق والـدين والقيم ـ هـو الـذي سيـوضـح الغمـوض ويزيله ، وسيمحص الحق في مجال الأخلاق والقيم والدين . وهذا الدور الذي نراه للعلم هو ما رآه المسلمون الأوائل في عصر ازدهـارهم حين آمنوا بـوحـدة العلم والـدين ، وذلـك مـا يظهر في قـول الجـاحـظ : (قـال الأوائل : حياة الحلم بالعلم ، وحياة العلم بالبيان) . وإن كلمة الجاحظ أثارت في نفسي ملاحظة لها أهمية (فحياة الحلم بالعلم) تعبير عن مفهوم

حضارة وذوق خاص لفهم العلم . إن كلمة (حياة الحلم بالعلم) يمكن أن نفهمها بأسلوب آخر أي أن حياة الأخلاق بالعلم ، وحياة القيم بالعلم ، وحياة الحكمة والدين بالعلم . فبالعلم تستقيم الأخلاق وتحيا القيم ويرسخ الدين الحق ... وعندما تصبح الأخلاق والدين والقيم علماً ترسخ في النفوس وتحيا في واقع الحياة .

وكلام الجاحظ هذا مناقض للحضارة الغربية ، وللفكر الإسلامي الذي ظهر بعد اتصال المسلمين بالغرب .

وللدلالة على فهم الغرب للعلم نذكر قول (راسل) في كتابه (النظرة العلمية) في نهاية مقدمته :

(فالقوة الجديدة للعلم تكون خيّرة بقدر الحكمة التي يتميز بها الإنسان ، فلا بد إذن من زيادة الحكمة التي هي الإدراك السليم لغاية الحياة ، وهذا لا يقدمه العلم ، فالزيادة منه لا تكفي) .

هذا كلام موجز ولكنه واضح وهو خطير ومشوش في آن واحد ، لأنه يقصر العلم على ما يتعلق بالطبيعة (آيات الآفاق) ولا يعتبر ما يتعلق بالأنفس والأخلاق علماً . وهذا موقف مبتور . بينما كلمة الجاحظ كانت دقيقة إذ ربطت القيم والحكمة وغايات الحياة

بالعلم . إن كلمة راسل واضحة في فصل العلم عن الحكمة ، بينما كلمة الجاحظ واضحة أيضاً في جعل حياة الحكمة بالعلم .

إن فكر المسلمين بعد اتصالهم بالغرب قد انحرف عن مفهوم القرآن الذي يعتبر العلم الحقيقي علم الأنفس ، ومعرفة العواقب والحكمة من التاريخ ، وعن مفهوم الجاحظ الذي ربط الحلم بالعلم ، والعلم بالبيان ، واتجه هذا الفكر وجهة راسل .

في كتاب العربي الرابع الذي تصدره مجلة العربي الكويتية وهو : (مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروبا) صفحة ١٥٤ ، يقول الدكتور محمود السمرة عن كتاب (تجديد الفكر العربي) للدكتور زكي نجيب محمود ما يلي : « عند قراءة الكتاب ينتابنا إحساس بأن المؤلف يؤمن بالعلم ولا شيء غيره ، ولكن سرعان ما يهدئ من خواطرنا حين يتحدث عن القيم التي تجعل من الإنسان إنساناً »[1] .

هذا الكلام نسخة مكررة من فكر راسل ، فكأن الإيمان بالعلم يهدد خواطرنا ، فلا تهدأ حتى يكون الحديث عن شيء غير العلم ليعطينا الطريق الصحيحة . والمتكلّم هنا ، والمتكلَّم عنه من المفكرين المصريين وليسا من المشايخ التقليديين ، وهذا النوع من الفكر هو

---

(١) أكتوبر ١٩٨٤

النوع الراقي الذي يقدم للثقافة العربية والإسلامية . وإن القارئ المرتبط بعالم الأشخاص يخرج من هذا الفكر ، وقد سحب ثقته من العلم ، ورسخ في ذهنه أن العلم ليس هو الذي يحل مشكلاتنا ومشكلات العالم جميعاً .

والحقيقة أن العلم إن ضاع مفهومه ، واحتيج إلى شيء آخر غيره ، يفقد مزيته الحقيقية .

إن الجراثيم التي كانت تندس في أغذية الناس ، كانت تفسد عليهم صحتهم الجسمية ، ولكن الجراثيم الفكرية أشد منها فتكاً فهي ما تزال تندس في الغذاء الفكري الذي يقدم للأمة مسببة الآلام في علاقات الناس ، فما نزال حتى اليوم ندفع ضرائب جهلنا بأنواع الجراثيم الفكرية التي تنقلها وسائل إعلامنا وكتب مفكرينا وصحافة وجهائنا ، وإن وسائل النظافة الفكرية مجهولة في البلدان المتخلفة كما كانت وسائل النظافة والتعقيم ضد الجراثيم مجهولة قبل معرفة الجراثيم .

إن أفكارنا عن العالم الإنساني وتاريخه وكيف بدأ العلم والفكر والإنسان والسلطان والتسخير وآيات الآفاق والأنفس ، ملوثة بالخرافات التي تحمل جواز المرور وحق الاحتفاظ بالصدارة والتي لا يهدأ لنا بال إلا إذا أعطيت لها المكانة المرموقة لتظل تفسد أجواءنا .

ولقد لاحظ جارودي انفصال الحكمة عن العلم حين نقل في كتابه (ما يعد به الإسلام) ص ١٤٤ ، عن حسين نصر محدداً العلاقة بين العلوم العصرية والعلوم الإسلامية وانقلاب العلاقات بين العلوم (الوسائل) والحكمة (الغايات) فقال :

« ... لو قدر لعلماء المسلمين في القرون الوسطى أن يبعثوا إلى الحياة ، فإن دهشتهم لن تكون من التقدم في الأفكار التي ولدت أصلاً في أحضانهم ، بل إن دهشتهم ستكون من أن نظام القيم قد قلب رأساً على عقب ، وسيرون أن مركز الرؤية التي انطلقوا منها صار هامشياً ، وإن المحيط قد صار هو المركز ، وإن العلوم التي كانت في الدرجة الثانية قد تصدرت الاهتمام في الغرب ، وأما علم الحكمة الخالد فسوف يرون أنه قد تضاءل حتى كاد ينعدم » .

والخلاصة أنني حين أعمم الإدانة السابقة على العالمين الإسلامي والغربي ، فلا يعني ذلك أنه لا توجد في كلا العالمين أصوات لا تصل إلى درجة الوضوح في شارع الثقافة العامة ، ولكن أعني أن السيطرة للاتجاهين اللذين ذكرتها ...

جودت سعيد

مَدخَل

اقرأ ورَبُّك الأكرَم

القارئون في العالم تاريخياً وجغرافياً هم الأكرمون :

إن أول كلمة في آخر رسالة هي كلمة (اقرأ) ، ولم تكن كلمة أخرى من الكلمات الأخلاقية أو العبادية التقليدية . والعبارة التي بدأ بها إنجيل يوحنا : (في البدء كان الكلمة) إشارة إلى أهمية نقل الخبرات بالكلام ، نقل العلم بالكلام ، نقل العلم بقراءة الخط .

إن النص ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٩٦/٣] ينال التقديس من المسلمين لأنه كلام الله تعالى ، ولكن هذه القداسة ستزداد وتتعزز وتتوظف عملياً عندما يرى المسلم هذا النص في آيات الله في الآفاق والأنفس .

إن النص يدل على الأمر بالقراءة ، ويعقب الأمر بأن الرّب أكرم ، فصار هنا اجتماع بين القراءة وكرم الرّب ، أي أن القراءة وكرم الرّب اقترنا في مكان واحد . وحين ننظر إلى العالم جغرافياً ـ أي مكانياً ـ سنرى هذا

الاقتران متلازماً ،أي أن الذين ينـالون كرم الرَّب وغنـاه هم القرَّاء أو أكثر الناس قراءة في العالم . و يمكن أن نسوق أمثلة لذلك :

المثل الأول : إن اليونـان كانـوا أكثر النـاس قراءة وكتـابـة أيـام حضارتهم ولا يزال نتـاج فلاسفتهم وشعرائهم وحكـائهم يشهـد على أنهم كانوا هم المنتجين أكثر والمتصلين بـالقراءة في عـالمهم اتصـالاً أوثـق ، وهم الذين نالوا كرم الرَّب وكرامته بين العالم ، فقد سيطروا على أكبر رقعة في العالم ، من الهند إلى مصر زمن الاسكندر الـذي كان تلميـذاً لأرسطو المسمى بالمعلم الأول .

المثل الثـاني : المسلمـون الـذين كلمـا كتب كاتب في الأرض عن تاريخهم لا يقضي عجباً من سرعة مـا ملكوا العـالم المعـاصر لهم ، انطلقوا من الكلمـة (اقرأ) إنهم في عصرهم كانـوا أقرأ النـاس وأشـدهم اتصـالاً بالقراءة والكتاب والعلم الذي يطلبونـه في كل مكان ومن كل مصـدر ، لقد نالوا كرم الرَّب وكرامته من سعة في الدنيا ومكانة في العالم . ولسنا في حاجة إلى أن نذكر المسلم بهذا فقد قيل له هـذا الكلام كثيراً ، ولكن ربما لم يشعر المسلم بارتباط هذا الحـديث بـالتوحيـد وارتبـاط التوحيـد بالعلم وارتباط العلم بالقراءة ؛ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٩٦/٣] ، وفي عصرهم لم يكن عنـد أحـد في العـالم مـا عنـدهم من العلم والاتصـال بوسائله قراءة وكتابة ومكاتب ...

المثل الثالث : إذا نظرنا حولنا في هذا العصر الذي نعيش فيه نجد أن الذين يتمتعون بخيرات العالم وينالون الكرم والكرامة هم قراء هذا العصر وأكثرهم صلة بالقراءة وما يتصل بها ، كما تبيّنه الإحصاءات التي تَعدُّ المؤلفين والكتب والجرائد والمجلات والمكتبات ونصيب كل فرد من الورق المطبوع ، حتى لقد اضطر توينبي أن يقرر : « إن ارتفاع نسبة قراء الكلمة المطبوعة هو الأساس الحضاري لتصنيف البلدان في العالم إلى دول متخلفة أو نامية أو متقدمة » .

المثل الرابع : إنه اليابان ـ هذا العملاق القزم ـ حيث مُحيت فيه الأمية منذ القرن التاسع عشر (وإن نسبة تعليم الفتيات ازدادت في اليابان ، فقد وصلت نسبة من ينهين الثانوية العامة (٩٥٪) .. ويلعب الكتاب دوراً بارزاً في حياة الفرد الياباني ، فمؤسسات النشر اليابانية تصدر (٣٥ ألف) عنوان جديد سنوياً تقريباً ، وهذا يمثل ضعفيْ ما ينشر في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أن اليابان هو ثاني أعظم قوة صناعية في العالم)[1] .

إن الإنسان ليتصاغر أمام من هو أقرأ منه ، سنة الله ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمر ٩/٣٩] ، حسبك

(١) انظر مجلة العربي ، حزيران ، ١٩٨٥ م ، كتاب الشهر .

من صدق هـذا مـا عنـد النـاس من نظر إلى العـالم أو من يحمل شهـادة أعلى ... إن هذا النظر التقديري يرتفع إلى درجة الخرافة أحياناً .

أجل إن من يقرأ أكثر ينـل أكثر .. إنـه قـانـون الله .. ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النّساء ٤/١٢٣] ، وإن الله لا ينظر إلى أقوال النـاس وصورهم وأسمائهم ، وإنما من يتبع سنـة الله ينل وعـد الله ، ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وَهٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء ١٧/٢٠] .

وقـد يميـل بعض النـاس إلى إعطـاء الـذكاء درجـة أسمى من القراءة ، بل إنـه لما بـدأ النـاس يلاحظـون إمكان التـدخـل في وراثـة الصفات الوراثية ، كان أول ما خطر لهم عمل نسخ مكررة من العبـاقرة الأذكيـاء أو نقل مورثـات ذكائهم إلى الآخرين . لقـد غفـل هـؤلاء أن الذي يجعل الإنسان إنسـاناً ليس فقط ما يضـاف إليـه قبل أن يخرج من بطن أمه وإنما ما يضـاف إليـه بعـد خروجـه من عـالم الأجنـة إلى عـالم الطفولة والتربية ، وليس الذكاء هو الـذي كان ينقص الأطفـال الـذين كانوا يولدون من عهد نوح ، فنسبة الذكاء في المواليد ثـابتـة على مـدى التـاريـخ ، ولكن غير الثـابت هـو تهيئـة الظروف والبيئـة التي تصنـع الإنسـان .

إن الفرق بين كافة علمائنا المعاصرين في جميع فروع العلم ، والعلماء الذين عاشوا من قبل ليس في مستوى الذكاء ، وإنما امتاز العلماء المعاصرون بأن أمامهم خبرات متراكمة أكثر من الأجيال الماضية حفظت بالكتابة ، واستفيد منها بالقراءة . إن ذكاء الإنسان ليس بذي قيمة بدون تمثل الخبرات البشرية المتراكمة المحفوظة بواسطة الكتابة المستغلة والمستفاد منها بالقراءة ، فأرقى الناس إنسانية أكثرهم إحصاء لما حدث في العالم بشكل مصفى ومركز .

هذا الموضوع هو الذي يجعل القراءة قبل الذكاء وقبل العبقرية ، وهو الذي جعل القول أو التمثيل يقرب الحقيقة القائلة بأن المتأخر (الخلف) مثل القزم الذي يجلس على رقبة العملاق (السلف) ، فيشاهد كل ما يشاهده العملاق ، كما يشاهد شيئاً لا يشاهده العملاق . إن القراءة هي التي تقعد الأقزام على رقاب العمالقة ، فترفع الأخلاف فوق أبراج الأسلاف فيأخذون كل ما عند الأسلاف بدون مؤونة إلا مؤونة القراءة ، ثم هم بعد ذلك تفتح لهم أيضاً على قدر قراءتهم رؤى جديدة .

وإن مجرد إلقاء نظرة على تاريخ العلماء في العالم يبين لك أن القراءة الدائمة والتهام الكتب والتحايل للحصول عليها وعلى الدخول إلى المكتبات ... دأب العلماء . انظر ـ مثلاً ـ كتاب كليلة ودمنة

وما وضع في مقدمته من الجهود التي بذلت في تحصيل هذا الكتاب . لقد كان الكتاب في أول الأمر كالسر من أسرار الدولة والمهنة . والآن أيضاً توجد معلومات عالمية محجوزة لا يفرج عنها إلا بعد سنوات تطول أو تقصر حسب رؤى أصحابها . إنها بقية موقف الأقدمين من الكتاب .

ولكن العلم بدأ ينتشر ويعم حين خرج من أن يكون سراً في أيدي الكهنة ، وحين كشفت صناعة الورق وبدأت الطباعة وبدأ التوجه إلى محو الأمية . ولكن بعض المجتمعات كما تعجز عن محو الأمية ، تعجز أيضاً عن تقديم العلم أو تقديم العملاق ليجلس الأقزام على رقبته .

وإذا كان لي من نصيحة أثيرة أقدمها للشباب الذين تعلق الأمة عليهم آمالها ، فهي أن يتطلعوا إلى مصادر للعلم غير المصادر التي كنا نستقي منها ، لأن المصادر التي أخذنا منها العلم لم تعطنا إلا ما يشاهدون من نتائجه المرئية الملموسة التي تمس جلودهم وضمائرهم ، وهذا ما عبر عنه محمد الطالبي بأسلوب آخر حين قال : « إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ، إنما هو إلى حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء »[1] ، وهو يعني بكلامه إخفاق مؤسسة تعليم القراءة ،

(١) مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ١٩٧٤

المؤسسة التي ينبغي أن تعلمنا كيف نجلس على رقبة العملاق ، المؤسسة التي تجعل صلتنا بالخبرات البشرية المتراكمة صلة صحيحة . إنه ليس شيء مثل القراءة يعلم التجاوز ، ويصحح الخطأ ويدل على المراحل القادمة . إن النهم في القراءة يبين لنا ماذا نقرأ وماذا نترك .. وإنه لما يخجلنا أشد الخجل أن نحاول الكتابة في موضوع ما ، ونحن لم نطّلع على ماقيل في هذا الموضوع ، ونحن هنا ربما نكون أمناء أمام أجيالنا القادمة ، حين لا نحملهم الآصار والأغلال التي نحملها ، ونكون صرحاء أمامهم وأمناء على عرض الحقيقة بألا نكتمهم الحق ليتدبروا أمرهم وليخرجوا من القمقم الذي نعيش فيه .

ودراسة سير العلماء ترشد إلى أنهم كانوا قرّاء نهمين ، واسم كتاب المسلمين القرآن من القراءة ، وقرّاؤه هم الذين زيّنوا القرآن بفعالهم ، والتفكير بجمع القرآن إنما ظهر حين استحرّ القتل بالقراء في حروب الردة .

والجاحظ له مقام في الحضارة الإسلامية يتألق نجمه على مرّ الزمن ، وقد كانت وفاته تحت ركام الكتب التي تهدمت عليه ، إنه شهيد الكتاب والقراءة . لقد كان قارئاً بمستوى حضاري إنساني

عـالمي ، ولكتبـه طعم خـاص وذوق معين وذلـك لعـالميتـه في القراءة ولإنسانيته في الثقافة .. إنـه يتنـاول الأمور برحـابـة صـدر بعيـداً عن الكزازة ، ويرجع ذلك إلى أن الجاحظ كان يتنوق مع آيـات الكتـاب آيات الآفـاق والأنفس . ومن هنـا قـال ابن العميـد عن كتبـه : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وهو وإن كان إمامـاً في الأدب إلا أنه أيضاً صاحب مذهب في العقيدة .

والإمام الغزالي هجر الأستاذية ورئـاسـة العلم إلى التفرغ للتفكير ودراسـة علـوم عصره ، حتى قـال عن نفسـه : إنـه تفهم الفلسفـة حتى صارت عليه أسهل من شرب الماء ، وكشف مقاصد الفلاسفـة وأظهرهـا ووضحها أكثر من أهلها .

والإمام البخاري كان يقوم في الليلة الواحدة أكثر من أربع عشرة مرة ليوقد السراج وليتأكد من حديث شريف .

وإلى يومنا هذا لن تجد إنساناً ذا وزن إلا ووجـدت وراءه نهماً في القراءة . والشيخ بـدر الـدين الـدمشقي حبس نفسـه تسـع سنـوات في المكتبـة ، وكثير من علمـاء المسلمين وغير المسلمين كانـوا شـديـدي النهم للقراءة .

إن النهم في القراءة والبروز في العلم مجـال دراسـة مهمـة لكشف

الأسباب والنتائج ومساعدة الناس على التوجه بوعي إلى الدراسة والقراءة ليتبين لهم أن الإنسان بالقراءة ينال كرم الله وكرامته .

القراءة والعلم :

منذ أن بدأ الإنسان يقرأ ويكتب بدأ العلم ينمو . فنماء العلم وسعته بالقراءة ، وسيظل الأمر كذلك .. وكون النّبي ﷺ أُميّاً معناه أن أحداً من البشر لن يأتي بشيء وهو أُمّي . وأمْرُ الله النّبي الأُمّي بالقراءة في أول كلمة إليه إلغاء للأُمّية وفتح لعهد جديد عهد ﴿ اِقْرَأْ ﴾ و ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق ٤/٩٦] ، و ﴿ ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم ١/٦٨-٢] ، وعهد ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ [الطُور ٣/٥٢] . هذه الكلمات هي التي ربطت العلم بالقراءة والكتابة ، والقلم وما يسطرون .

إن دليل العلم العاقبة ، والعلم والعاقبة إنما يحفظان وينميان من خلال القلم ، والدليل على أن العلم من القلم واضح في قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق ٤/٩٦] . إذن العلم بالقلم ، بالكتابة ، بالحفظ ، بتسجيل تجارب البشر والنظر فيها .. وبذلك يتمحص العلم . ولو فقد الناس كل شيء مع الكتب ، لاحتاجوا مرة أخرى إلى الزمن الذي احتاجه تقدم العلم .. وكون ﴿ اقْرَأْ ﴾ أول كلمة في آخر رسالة إشارة

إلى عهد جديد في النبوة وفي أسلوب جديد في التلقي عن الله . إنها آيات الله في الآفاق والأنفس التي ستُظهِر للناس الحق ، وهذه الآيات إنما تحفظ دلالاتها بالعلم والقراءة . فبالقراءة يحصل الإنسان علم الأولين جميعاً . وبالقراءة يرقى الإنسان الدرجات العلا ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « اقرأ وارقَ » ؛ أي على قدر القراءة تنال الدرجات العلا وتنال الرقي والعلو والارتفاع . والاستعمال التقليدي للحديث الشريف يقصره على القرآن الكريم ، وعلى الرقي في اليوم الآخر فقط . ولكن ـ كما يقال في علم الأصول ـ الأمر ليس بخصوص السبب بل بعموم الحال ، وبهذا الاعتبار يمكن أن يعمم الموضوع فيشمل قراءة القرآن الكريم وغيره ، لأن القرآن يأمرنا بالسير في الأرض ، والنظر كيف بدأ الخلق . ويمكن تحصيل نتائج السير والنظر بالقراءة ، فالقرآن يوسع لنا مجال القراءة ، وإن قراءة أي كتاب تفتح الباب لقراءة غيره . وليس الرقي للقارئ في الآخرة فقط ، بل إن آيات الآفاق والأنفس تدل على أن القارئ هو الذي يرقى ويرتفع في الدنيا أيضاً .

وكثيراً ما نعطل المضمون الاجتماعي لآيات القرآن بهذا النوع من الحصر والبتر والفصل عن واقع الحياة . وهذا ما جعل مالك بن نبي

يقول عن آية ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١٣/١١] : « ولقد أشادت أيضاً الحركات التغييرية التي سبقت العالم الإسلامي بهذه الآية كشعار ، ولكن يبدو أنها لم تضع في هذا الشعار سوى التبرك بكلام الله والتفاؤل به بحيث لم يكن بيدها في حقيقة الأمر وسيلة تغيير ، أو إذا شئنا قلنا : إنها وضعت في الآية الكريمة مجرد المحتوى الغيبي . حتى إنه يمكننا القول ، بأن المفعول الاجتماعي للآية قد عطل بهذه الطريقة »[١] .

وإن القراءة الواسعة العميقة الشاملة لتراث البشرية التي عناها قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف ٤٦/٤] ، هي التي تجعل الإنسان عالمياً يتجاوز الألوان واللغات والمعتقدات ، فالذين يضربون في عالم القراءة بسهام وافرة ، هم الذين يمكنهم أن يتسامحوا مع الباحثين والمخالفين ، وهم الذين يقدرون على رؤية الجوانب الإيجابية ويزكونها ، ويغضّون الطرف عن الجوانب السلبية . فالدراسة تجعل صدر صاحبها واسعاً وقلبه كبيراً ، وحلمه عاماً وأسلوبه قوياً في بيان الحق مع رحمة الخلق . إن التسامح غنى وكرم ، ولن يتمكن فقير وبخيل أن يكون جواداً كريماً مع الناس .

---

(١) انظر مقدمة كتابنا حتى يغيّروا ما بأنفسهم .

وبالقراءة الواسعة الشاملة لتراث البشرية يتحلى الإنسان بالوقار والرحمة والحلم والعفو . إن الصبر والغفران والرحمة والإحسان .. هي الثمرات اليانعة للقراءات الواسعة وللسير في الأرض والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل . وأنى يقدر على التسامح من لم يطلع على مواقف المتسامحين في العالم ! ولهذا يقول الله لنبيّه : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود ١١/١٢٠] .

القراءة والاجتهاد :

كثر في العصور الأخيرة الحثّ على الاجتهاد في العالم الإسلامي ، الاجتهاد بالمعنى الأصولي ، الاجتهاد لاستنباط أحكام جديدة تناسب الوقائع الجديدة في الإسلام ، كما كثر الذين تخوفوا من الاجتهاد ، والذين تأسفوا من إغلاق باب الاجتهاد ..

وبحسب ما أرى إن الاجتهاد لن يتحقق بالأسف على توقفه ، ولا بالحثّ على ممارسته ، وإنما يتحقق على وجهه الصحيح بكثرة القراءة والاطّلاع ، ورؤية موارد الأدلة ومصادرها . فالذي اطَّلع على كل ما قاله الناس في موضوع ما سواء من أهل الأديان ، أو أصحاب العقول على اختلاف العصور .. لا يمكن أن يُمنَع من الاجتهاد . كما أن من كانت قراءاته قليلة لا يمكنه أن يجتهد ولا يبصر مواطن الفهم

والرشاد ، أو مواطن الخطأ والفساد ، وإن الذين لا يدرسون علم المقارنة في الآداب والشرائع والتواريخ ، ولا يدرسون أحداث العالم ولا يقارنون فيما بينها ، لا يمكن أن يزكو العلم على أيديهم .

والإنسان لا يمكن أن يتجاوز قدره ، وقدره إنما هو بحسب علمه ومعارفه وشخصيته . وكل واحد منا إنما هو محصلة ماجمع من خبرات في هذا العالم الذي يعيش فيه . والخبرات إنما هي الخبرات البشرية المتراكمة التي حصلها بالقراءة .

وإن الذي تمكن من الإحاطة بعالم الأفكار ، يمكنه أن يحدد مستوى أي كاتب ، وبمجرد أن يطلع على عنوان أو فهرس أو فصل من كتاب ، فإنه يعلم مستوى ودرجة ومقدار ما حصل صاحبه من علم . مثال ذلك ماذكره ابن النديم في الفهرست عن العتابي أنه : « لوقيل لأشعاره ارجعي إلى أصحابك لما بقي له شيء » . وكل واحد منا لا يمكنه أن يعدو قدره ، ولا أن يعدو اطلاعاته وما هضم من أفكار ، فهو محدود بهذا الحد شاء أم أبى .. وكل واحد منا له مقام معلوم لا يمكن أن يتجاوزه ، فالمحصي للأفكار سيعلم من أي إناء ننضح ، وعند أي مفهوم زمني نقف ، بل ويمكن أن يحدد مصادر معلوماتنا زمانياً ومكانياً ، ويصنفنا بحسب مراجعنا التي لا تخفى على البصير المطلع .

إن الـذين يقـومـون بـدور الشهـادة ﴿ وَتَكُـونُـوا شُهَـدَاءَ عَلَى النَّـاسِ ﴾ [الحج ٢٢/٧٨] ، هم الـذين يمكنهم أن يقـومـوا بهـذا الـدرو في التصنيف والتحجيم . ونحن أمــة ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّــكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٩٦/٣] ، أهملنا هذا الواجب وتخلينـا عن هـذه الكرامـة ، فصرنـا موضوع دراسـة لغيرنـا ، وليس غيرنـا موضوعـاً لـدراستنـا ، وغيرنـا هم الـذين يقومون بشرف الشهـادة على العـالم . ﴿ وَتَكُـونُـوا شُهَـدَاءَ عَلَى النَّـاسِ ﴾ . إنهـا وظيفـة لا يمكن أن يـؤديهـا من لم يحمـل نفســه على اكتسابها ويَعُسّ العالم .

واكتساب مثل هذه الوظيفـة ، أو التطلع لاكتسـابهـا ، يتطلب من الإنسان منطلقات في تصور بدء التـاريخ (بـدء الخلق) والمصير ، وسلطان الإنسان ، والقدرة التسخيريـة ، ومعنى الحق وسنن الخلق ، كما يتطلب نوعاً جديداً من الوعي للمبـدأ والمصير وللوسـائل والغـايـات . ونحن لم نرتفع لهذا المستوى ، ومجتمعنا لا تفوح منه مثل هـذه الرائحـة ، لانشغالـه بأمور أخرى - هي في نظره - ملحـة أكثر وعـاجلـة ، كانت محطّ اهتمام الإنسان قبل أن يرتبط بالمجتمع ويتنازل عن حقوقـه القبليـة والعشائرية ليوسع من نطاق إنسـانيتـه . إن إدراك مثل هـذه النقلات النوعية يحتاج إلى لغة جديدة للخطاب نفتقد أبجدية سننها ، فثقافتنـا

المتداولة إنما هي في الإشادة بكرامات الأولياء ، ومقامات سادتنا ، والحكمة كل الحكمة أن نكون بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل ، إن كان مثل هذا الميت يحتاج إلى تطهير . ولا عبرة بتغير أسماء الأولياء والمشايخ بألقاب جديدة ، فعلاقة المريد بالشيخ لا تزال كما كانت مع كل شعاراتنا الفخمة ، و (من قال لشيخه : لِمَ ؟ لا يفلح أبداً) ، هي مضمون الحرية والديمقراطية عندنا ، ومن هنا ينبغي أن يعلم شبابنا أننا لم نبدأ بعد بالنهضة ولا بالفهم.

إن من ينظر إلى إنتاجنا الفكري ، وبضاعتنا المتداولة التي لها الصدارة ، يعرف أننا لم نخطُ خطوة واحدة منذ مئتي عام ، بل يمكن أن يرى تراجع الأهداف والغايات ، وتثبيت دعائم التخلف والتشتت . فالذين ليس لهم بصر بسنن التاريخ وكيف بدأ الخلق ، يصابون بالحيرة واليأس من العيش في التناقض ، واختلاط الدنس بالمقدس والعلم بالجهل ، والشرف بالوضاعة ، والأمانة بالخيانة والعمالة .

القراءة وعالم الأشخاص :

يتحدث الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية) عن موقف الإنسان العربي المعاصر إزاء

مشكلة النهضة أو التنمية أو تجاوز التخلف ، حيث عرض فيه بشكل مبسط واضح للمشكلة ووصل في نهاية البحث إلى خلاصة هامة يقول : « السلفي والليبرالي وجميع الأسماء الأيديولوجية العربية الأخرى لا نستطيع نحن العرب جميعاً ، أن نفهم ، ولا أن نعي ، ولا أن نمارس الأصالة والمعاصرة . لا نستطيع أن نجدد فكرنا ، ولا أن نشيد حلماً للنهضة مطابقاً مادمنا محكومين بسلطة النموذج ـ السلف ـ سواء كان التراث أو الفكر المعاصر أو شيئاً منهما .

نعم ؛ الإنسان بطبيعته يفكر من خلال نموذج ، ولكن فرق بين نموذج كرفيق للاستئناس به ، وبين نموذج يؤخذ كأصل يقاس عليه ، النموذج حينما يتخذ أصلاً سلفاً ، يصبح سلطة مرجعية ضاغطة قاهرة تحتوي الذات احتواء وتفقدها شخصيتها واستقلالها ... إذن مما يجب البدء به هو معرفة الذات أولاً ، هو فكّ إسارها من قبضة النموذج ـ السلف ـ حتى تستطيع التعامل مع كل النماذج تعاملاً نقدياً ، وذلك طريق الأصالة والمعاصرة معاً » (ص ٥٦ ـ ٥٧) .

ما يسميه الدكتور الجابري هنا النموذج والسلف ، هو ما نطلق عليه في هذه الدراسة عالم الأشخاص مقابل عالم الأفكار ، أو ما نعبر عنه أيضاً بالتعامل مع الوجود الخارجي بدل التعامل مع الصور الذهنية ،

أو ما يمكن أن يعبر عنه بالاجتهاد مقابل التقليد .. وكما يمكن أن نقول : إن ما يطلق عليه القرآن حين يُنطق الواقعين تحت إسار السلف . النموذج ـ بقولهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة ١٧٠/٢] ، ﴿ بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزُّخرف ٢٢/٤٣] . ونحن إن أرجعنا المعنى الحقيقي لنقد أو إدانة الذين يتبعون الآباء بغير علم ، نكون قد أحيينا منهج القرآن ومنهج العلم في كل عصر وأوان .

ولكن الذي أريد أن أقوله هنا ، وربما لم يقله الدكتور الجابري صراحة ، وإن كان يمكن أن يتضمنه كلامه ، ولم يقله أيضاً دعاة التجديد ، أو دعاة الاجتهاد والناهون عن التقليد هو : أن الخروج من النموذج ، ومن عالم الأشخاص ، إلى عالم الأفكار ، لا يتم إلا بالخروج من عالم الصور الذهنية إلى الحقائق الخارجية للتعامل معها بدل النماذج والصور والأشخاص . ولكن هذا القول أيضاً غير كاف ، ولا يزيد عن أن يكون أسلوباً للتعبير عن المشكلة بلفظ آخر .

إننا لا يمكن أن نصنع من إنسان مقلد مجتهداً بقولنا له : اجتهد ، أو أن نمدح له الاجتهاد ونذم له التقليد مهما أوتينا من بلاغة

في الترغيب والترهيب فقولنا : كن مجتهداً ، كن سلفياً ، كن تقدمياً ، كن علمياً .. ولا تكن مقلداً ولا وصولياً ولا ديماغوجياً ، هذه الأمور التي نحبها أو نكرهها لن تتحقق بهذه الأوامر أو الوصايا أو المواعظ ..

وهكذا أرى الدكتور الجابري مع ماله من قدرة على التحليل الذي يغبط عليه ، ومع تحديد المشكلة الجامعة بين السلفي والليبرالي والتقدمي : لم يقل لنا كيف نخرج من النموذج والسلف ، وإنما قال لنا بأسلوبه البليغ السابق الذي هو نموذج بليغ لإدانةٍ أكثرَ لأساليب معالجة اليمين واليسار والوسط ، في أنهم أجمعين مقلدون آبائيون نموذجيون ، وإن كان لكل منهم سلفه الخاص ، وآباؤه الخاصون ، ونماذجه المفضلة .. وفي الواقع إن الجابري قدم لنا شيئاً مهماً ، في أنه جمع كثيراً من الأمراض التي كنا نظنها أمراضاً متعددة ومشكلات متباينة ، تحت مرض واحد ومشكلة واحدة ، وهي : عبادة الأشخاص ، والنماذج ، والسلف والآباء .. وهذا تقدم في طريق الحل وتضييق من ساحة المشكلة ، وتحديد لموضع الداء .. ولهذا قيمة كبرى في بحث وحلّ المشكلات . ولكن ما الطريق للخروج من هذا المرض الواحد ؟ إنه لم يحدثنا مباشرة . ويمكنني أن أقول هنا : إن السبيل إلى الخلاص من الآبائية والتقليد والنموذج والسلف والأشخاص ، هي القراءة الواسعة

العميقـة .. هي : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْرَمُ . الَّـذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . إن القراءة المحـدودة ، الضحلـة المرغوبـة ، لاتخلص من التقليد والآبائيـة . إن من لم ير إلا نموذجـاً واحـداً وربما مشوهاً أيضاً .. كيف يمكن له أن يبدع ويضيف جديداً لم يسبق لـه مثيل . فالاجتهاد في حقيقته زيادة على نهايـة بنـاء سـابق . إن الـذي يرى نماذج كثيرة ، وبتـأمل عميق ، هو الـذي يستطيع أن يستخلص النموذج أو المثال الذي يجمع الحسنات ، أو المثال الـذي لم يظهر بعـد . إنه هو الذي يستطيع أن يجني الورد من جوف الشجر كما قال إقبال .

ومع أني أقـول إن القراءة الـواسعـة العميقـة الملحـة ، في التتبـع والاستقصاء ، هي التي تخلص من النموذج والتقليد وعـالم الأشخـاص .. لاأظن أنني أضفت شيئاً كبيراً .. فالقراءة الواسعة العميقـة ، ينبغي أن توضع تحت أضواء ساطعة ومجاهر موغلة في البيان والتوضيح لأنه ليس من السهل حمل الإنسان الكسيح ، ووضعه على مثل هـذه الطريق التي تتشعب منها السبل ، والبحر الذي تعوزه المراكب التي لها مناعـة ضـد الغرق في الأمواج أو المتاهات . والآن إذا مـا قلت للـدكتور الجـابري : كيف الخروج من النموذج والسلف ؟ فيحق للقارئ أيضاً أن يقول لي : ولكن كيف السبيل إلى القراءة الواسعـة العميقـة التي تنصح بهـا ؟ أين

الخريطة والبوصلة ، وأين المركب للدخول إلى هذا العالم الكبير الفسيح الذي تشتبه فيه المعالم ؟

أقول للمتسائل : إني لا أزعم أني أقدم لك خريطة واضحة المعالم ، ولا بوصلة دقيقة حساسة .. وإنما كل عملي أن أتقدم خطوة في تحديد المشكلة . فإذا اتفقنا على أن النموذج لا يحل مشكلتنا ، فإني أقول هنا : إن الحل في القراءة الواسعة الماسحة المحصية لتجارب البشر ، ومعاناتهم بالسير في الأرض والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل ، لنخرج بالعبرة ولنمنع تكرار الخطأ ، ونبصر ما يزيد الله في خلقه ، وما يبدع في سماواته وأرضه ونتبع القول الكريم : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف ١٢/١٠٨] . والبصيرة هي رؤية كل ما يتصل بالمشكلة ، وتجميع الآراء ، ثم اختزال الصواب واقتناص دلائل المستقبل وإشاراتها ، فهذه هي البصيرة ، وهذا هو الاهتداء للحق فيما اختلفوا فيه حتى لا نلدغ من جحر مرتين وقول الرسول ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » حين نأخذه على مختلف مستوياته ، نرى في مستوى منها أن المجتمع المؤمن والبشرية الواعية التي تتعلم من عبر التاريخ ، لا ينبغي لها أن تكرر الخطأ الذي حدث مرة مع البشرية في تاريخها ، فإن فعلت

وكررت الخطأ ولدغت من الجحر الواحد مرتين ودفعت ضريبة الخطأ مرتين ، تكون بذلك قد نفت عن نفسها صفة الإيمان الذي يعطي نتائجه الاجتماعية ، لأنها لم تعتبر بالماضي الذي يلح القرآن على التحديق فيه لأخذ العبرة .

أيها الفتى الناشئ ، انتبه إلى هذا وتأمله .. إنه من المفيد جداً أن تفهم هذا ، وأن نسعى جميعاً لنهيئ أنفسنا للقيام بمثل هذه الوظيفة التي تتطلب منا أن نقوم بدور العسس ـ حراس الليل ـ الذين يسهرون بيقظة حتى يحفظوا المجتمع من أن يلدغ من جحر واحد مرتين ، وحتى لا ندفع ضريبة غفلتنا عن لدغة حدثت في التاريخ .

وإن المجتمع الذي ليس له رواده الكبار الذين يقدمون له أحداث العالم بوقار وجدية وصدق ، والذي يعيش عالم الثقافة بلا بوصلة .. إنه يضطر أن يقرأ غثّاً كثيراً ، حتى يعثر على شيء نافع ، أو بضع صفحات أو أسطر من كتاب في ألف صفحة .

الفصل الأول

مَرَاتبُ الوُجُود

مَرَاتبُ الوُجُود

يذكر ابن تيميـة ومن قبلـه الإمـام الغزالي .. وسواهمـا أن مراتب الوجود أربع :

١ ـ الوجود العيني أو الوجود الخارجي .

٢ ـ ثم الوجود الذهني أو الصورة الذهنية للوجود الخارجي .

٣ ـ ثم الوجود اللفظي .

٤ ـ ثم الوجود الرسمي (الكتابي) .

فـالوجود العيني الخـارجي هو وجود الشيء في الـواقـع كـوجـود الرعد والبرق والبحار والنجوم وسائر الموجودات من الذرة إلى المجرة .

وأما الوجود الذهني فهو الصورة الذهنية التي تحدث للإنسان عن هذه الموجودات الخارجية .

وأمـا الوجود اللفظي ، فهـو اللفـظ الـذي يطلقـه الإنسـان على الصورة التي حصلت عنـده عن الـواقـع الخـارجي ، وهـو وضـع الأسماء والرمـوز على الصـورة الـذهنيـة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَـاءَ كُلَّهَـا .. ﴾ [البقرة ٢/٣٠] .

وأمـا الوجود الرابع فهو الـوجـود الرسمي الكتـابي ، ويقصـد بـه وضع رمز مرسوم ليدل على اللفظ الذي ينطق به الإنسان ، فاللفظ آني لحظي يتكلم به الإنسان فينتشر في الهواء موجات صوتية تتلاشى ، وأما الرسم الكتـابي الـذي يـدل على اللفـظ ، فيبقى مرسـومـاً على الـورق أو الحجر أو أي شيء آخر ، ومعرفـــة هـــذا الرسم نـــوع من القراءة ، أو هي القراءة ذاتها .

وقد ذكر الغزالي هذا الموضوع في مقدمة كتـابـه (المستصفى من علم الأصول) واعتبر هذه المقدمة مقـدمـة العلوم كلهـا ، لا مقـدمـة علم الأصول وحـده ، واعتبر أن الـذي لا يحيـط بهـا لا ثقـة بعلومـه أصـلاً : فقال :

« اعلم أن كل من طلب المعاني من الألفاظ ضـاع وهلـك ، وكان كمن استـدبر الغرب وهـو يطلبـه ، ومن قرر المعـاني أولاً في عقلـه ، ثم أتبع المعاني الألفاظ فقد اهتـدى . فلنقرر المعـاني أولاً فنقول : الشيء في الوجود له أربع مراتب :

١ ـ حقيقته في نفسـه .

٢ ـ ثبوت مثال حقيقته في الذهن ، وهو الذي يعبر عنه بالعلم .

٣ ـ تأليف صوت بحروف تدل عليه ، وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس .

٤ ـ تأليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ وهو الكتابة .

فالكتابة تبع للفظ إذ تدل عليه ، واللفظ تبع للعلم إذ يدل عليه ، والعلوم تبع للمعلوم إذ يطابقه ويوافقه . وهذه الأربعة متطابقة متوازية ، إلا أن الأوَّلَيْن وجودان حقيقيان لا يختلفان في الأعصار والأمم ، والآخران اللفظ والكتابة يختلفان لأنهما موضوعان بالاختيار .. » .

كما ذكر الغزالي تعريف المعتزلة للعلم بأنه : « اعتقاد الشيء على ما هو به » فناقش كلمة اعتقاد فقال : « العلم يستحيل بقاؤه مع تغير المعلوم ، لأن العلم كشف وانشراح ، والاعتقاد عقدة على القلب ، والعلم عبارة عن انحلال العقد ، فهما مختلفان ، ولذلك لو أصغى المعتقد إلى المشكك لوجد لنقيض معتقده مجالاً في نفسه ، والعالِم لا يجد ذلك أصلاً وإن أصغى إلى الشبه المشكّكة ، ولكن إذا سمع شبهة لا يحصل له شك في بطلان الشبهة بخلاف المقلد . وبعد هذا التقسيم يكاد يكون العلم مرتسماً في النفس بمعناه وحقيقته من غير تكلف تحديد .. » .

وفي الكلام الـذي يـذكره الغـزالي معنى أرى أن نحرص عليـه في مجـال تعريف العلم وهو قولـه : « لوأصغى المعتقـد إلى المشكـك لوجـد نقيض معتقده مجالاً في نفسه ، والعالم لا يجد ذلك أصلاً » . وهـذا معنى شريف يمكن أن نحس به في أعماقنا ، فالمعتقـدات أو المسلمـات بغير علم قـابلـة للزعـزعـة في أعمـاق نفس المعتقـد وإن كابر وتمادى في المماراة ، ولكن العـالم لا يتزعـزع مـا في نفسـه مهما عرض عليـه من شبهـات وشكوك ، فهو راسخ ثابت كالطود ، ولكن قد يهتـدي لنقل مـاعنـده من علم للآخرين وقد لا يهتدي .

فجـاليلـو مثـلاً ، بعـد أن أقسم ويـده على الكتـاب المقـدس أنـه يشجب ، ويلعن ، ويحتقر ماقيل ، أو كُتب من خطـأ وبـدعـة حول حركة الأرض ، كان مثلـه كمن أُكره وقلبـه مطمئن بـالإيمـان ، وذلـك لأنـه أدرك بـالـدليل العلمي صحـة مـا وصل إليـه ، وإن كان مع ثقتـه سيشعر بـالمرارة لعجـزه عن نقـل علمـه إلى الآخرين ، وربمـا يشعر بضرورة التفكير في تـوفير الشروط التي تجعـل أفكاره الصحيحـة تنـال قبـول المنكرين ، وهـذا مـوضـوع آخر يـدور حـول أسلـوب التعليم ومشكلاتـه وتـذليل العوائق التي تحول بين النـاس وقبول الحقـائـق التي اهتدى العلم إليها ، وفي هذا ورد في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود قال :

« ماأنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

فإن الإنكار الشديد الذي يُجَابه به أصحاب الحق والعلم كثيراً ما يرجع إلى أن المهتدي إلى الحق تدفعه حماسته فيعلن الحقائق التي وصل إليها على قوم بينهم وبين هذه الحقائق درجات منقطعة ، ومراحل مفقودة ، وبين علمهم القديم والعلم الجديد فجوات واسعة ، عجز هذا العالم المتحمس عن سدها ، فيكذبون هذه الحقائق وينكرونها ، ولا تقبلها أفهامهم . والتاريخ مليء بمثل هذه المواقف المؤلمة . وإنَّ تطوُّر المعرفة مع الزمن سيحل المشكلة حين ترتقي مفاهيم الناس حول الموضوع ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص ٣٨/٨٨] .

ولكن مع ذلك تبقى مأساة المقابلة ماثلة في ضحايا من العلماء وأصحاب الأفكار ، الذين استبد بهم حماسهم للجديد الذي وصلوا إليه ، مع سوء تقديرهم للظروف وموانع فهم العلم الجديد . أو في ضحايا من الناس الذين جابهوا العلم ، وأعرضوا عن الحق ، لقلة علمهم في موضوع معين ، أو لإخلاصهم لبعض القيم ، وسيطرة الهوى على نفوسهم فكانوا جدار ظلام في وجه النور ، وأداة إساءة إلى العلماء .

وهذه الموضوعات تظهر أنها واضحة كنظريات حين نفرضها ،

ولكن الممارسة العملية لها تُظهر أن المشكلة ما تزال قائمة ، وأن كثيراً من العلماء الحاذقين الذين يشعرون بالفهم الدقيق ، يقعون في سوء التقدير ، وتأتي النتائج لتؤكد أن المشكلة ليست بهذه السهولة ، وأن كشف العلم ليس كافياً لقبول الناس له واستفادتهم منه . لأن إيصال العلم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، لا تزال في مركز الصدارة في مشكلات البشرية .

والقرآن يضيف إلى البلاغ كلمة المبين ، ليحدد الشروط التي ينبغي أن يتصف بها الموضوع الذي يراد نقله إلى الآخرين ، إذ لا بد أن يتصف هذا المنقول أو هذا المبلغ بالمبين والبينات ، فتوفير هذه الشروط للبلاغ هو واجب العلماء والآمرين بالقسط من الناس . وقد يحذف وصف المبين أحياناً من كلمة البلاغ ، إلا أن هذا الحذف لا يعني الاستغناء عنه ، لأن البلاغ لا يكون مُلزِماً إلا إذا كان مبيناً إلى درجة أن يصل المخاطَب إلى أن ينكر الشيء وقد علمه وفهمه ، أي أن يصل إلى درجة ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النّحل ١٦/١٤] . وفي الواقع إن المبلِّغ إن لم يصل إلى هذه الدرجة ، لا يشعر أنه يخون ضميره ويكابر في قبول الحق ، فإن المُعارِض مادام يشعر أنه على حق فلا يزال معذوراً في معارضته ، وربما جاء النقص

من أن صاحب الحق لم يستطع أن يوضحه ، وهذه مشكلة لا بد من العودة إليها ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء ٢٤/٢١] .

وكلمة الجاحظ التي سبق ذكرها تشير إلى أن حياة العلم البيان ، وربما أهم ميزة للإنسان قدرته على البيان ، والمتكنون في البيان هم الذين سيختصرون العلم والزمان بالبيان ﴿ خَلَقَ الإنْسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [الرّحمن ٥٥/٣-٤] .

المرتبتان الأولى والثانية

من مراتب الوجود

حول قول الإمام الغزالي : « من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه » .

هذا معنى شريف يحسن أن نبحثه مرة أخرى بأسلوبنا ـ حسب طاقتنا ـ وذلك بأن نشرح المرتبة الأولى من مراتب الوجود الذي سماه الغزالي : (حقيقته في نفسه) ، أو الوجود الخارجي أو العيني حسب تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية .

فالرعد ـ مثلاً ـ له وجود خارجي يظهر في الجلجلة التي نسمعها بعد وميض البرق في السحاب . فهذا الوجود الخارجي هو حقيقة

الرعـد . ومثلــه الشمس والقمر والنجـوم والمــاء والنبــات والحيـوان ، وعادات المجتمعات .. فهـذه كلهـا لهـا حقـائق خـارجيـة موجودة بشكل مستقل عن الصورة الذهنية التي تحصل للإنسان عند أول اتصاله بها .

فالإنسان الأول سمع الرعـد ، ورأى البرق كما نسمع ونرى ، ولكن الصورة الذهنية التي تحصل للإنسان من هذا الاتصال لا يمكن أن تكون واحــدة عنــد الجميـع ، إلا إذا جردنــا الإنســان من تفسير الأحــداث واعتبرناه آلة تصوير ، أو آلة تسجيل فقط .

لو سألنا التاريخ : كيف فسّر الإنسان وفهم حقيقة الرعـد والبرق وأسباب حدوثهما ؟ فإننا نجد التفسيرات مختلفة جداً ، ولا يزال النـاس يسعـون للــوصــول إلى إدراك أقرب لحقيقــة كل من الرعــد والبرق ، وما ينتج عنهما ، وما يؤديان من وظيفة .

إذن قول الغزالي : « إن الوجودين الأولين ـ الـوجـود الخـارجي والوجود الـذهني ـ لا يختلفـان في الأعصـار والأمم » ، قول صحيـح إذا كان الإنسان مجرد آلة تسجيل أو تصوير ، والإنسان ليس كذلك .

إن كل النـاس شـاهــدوا الشمس تشرق كل صبــاح ، ولكن فهم حقيقة وكيفية شروقهـا كان من الاختلاف والتبـاين إلى درجـة تبـاين النقيض للنقيض . وهـذا مثل مهم عن إمكان حـدوث الخطـأ في تفسير

الصور الذهنية التي تحصل للإنسان من الحقائق الخارجية . وإن تقدم البشرية في إدراك حقائق الأشياء ، وكيفية حدوثها وبدء خلقها ، لا يزال بطيئاً برغم ما يبذله الإنسان من جهد لإدراك ذلك .

إن ما يحصل عند الناس من صور ذهنية عن البرق والرعد ، والشمس ، والنبات والحيوان ، متفاوت تفاوتاً كبيراً عريضاً وطويلاً وعميقاً ، فلهذا نختار أن نقول : إن الوجود الخارجي لكل من الفيزياء والمجتمع له حقيقة واقعة ، أما تصور الناس لها فهو الذي يتفاوت الناس فيه ، فكل يرى حسب خلفيته الفكرية . وهذا ما يميز الناس عن آلة التصوير والتسجيل ، ويجعلهم يختلفون في فهم الأمور على مرّ العصور . هذه هي العلاقة بين الوجود الخارجي والصور الذهنية ، فالوجود الخارجي هو الثابت الذي كلما اختلفنا في تفسيره رجعنا إليه ، ودققنا النظر والبحث والتعامل معه ، لنصحح الصور الذهنية . وهذا ماأردنا إثباته هنا في حديثنا عن كلام الغزالي في هذا الموضوع .

فالوجود الخارجي : هو الحقيقة الثابتة التي نرجع إليها عند الاختلاف ، والصور الذهنية قابلة للزيادة والنقصان .

فعلم الفلك ، والطب ، والكيمياء وسواها ، حقائق خارجية ثابتة للسنن ، ولكن الصور الذهنية عنها تتفاوت تفاوتاً كبيراً على مرّ

الـزمن . وكم يكـون مفيـداً إدراك هـذا جيـداً ليمكن الانتقـال إلى موضوعـات أخرى وعلوم أُخر ، كي لا تتكرر النزاعـات المريرة ، حيث كان النـاس يفقـدون أسلوب البحث والتحقيق ، ولا نزال نقع في مثـل هذا إلى الآن في مجالات أخرى من العلوم لأننا نفقد الاعتبـار ولا نعقل الأمثال . ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَـا إلاَّ العَـالِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٣/٢٩] ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر ٢/٥٩] . إذن هناك فرق بين الصور الذهنية والحقائق الخارجية ، والمرجع عند النزاع هو الحقائق الخارجية وليس الصور الذهنية .

المرتبة الثالثة

(الوجود اللفظي)

والمرتبة الثالثة هي التي شرحهـا الغزالي بقولـه : « تـأليف صوت بحروف تدل عليه ، وهو العبارة الدالة على المثـال الـذي في الـذهن » . هـذه المرتبـة هي مرتبـة إطلاق الأسماء على المـوجـودات الفيزيـائيـة ، كالأرض ، والسماء ، والـذرة ، والمجرة ، والمـوجـودات الاجتماعيـة ، كالحب ، والبغض ، والصداقة ، والعداوة ، والبر ، والعقوق ، والحياء ، والوقاحة ، والصدق ، والكذب ، والأمانة ، والخيانة .

فالمرتبة الثالثة من مراتب الوجود هي الوجود الاسمي اللغوي ، مرتبة ﴿ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة ٢/٣٠] ، وهي إطلاق أصوات معينة على موجودات فيزيائية ـ آفاقية ـ وموجودات اجتماعية ـ أنفسية[1] ـ وهذه هي الوسيلة الفذة التي يمتاز بها الإنسان وامتاز بها آدم عن الملائكة حين أعلنوا أنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله وذلك في قصة استخلاف آدم في الأرض . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠-٣٣] .

في هذا الحوار ـ الدائر بين الله عزّ وجلّ وملائكته ـ إشارة إلى

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

أهمية ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، إذن بـ (علَّم الأسماء) سيحقق آدم وذريتـه مـا علم الله فيهم وغـاب عن الملائكـة ، وبـ (علَّم آدم الأسماء) سيتمكن آدم وذريته من نفي تهمـة الملائكـة لـه ولـذريتـه بـالفسـاد في الأرض ، وسفك الدماء ، وهي تهمة كبيرة لا تزال ملتصقة بالإنسـان ، ولكن هذا الإنسـان يملك وسيلة الخلاص منها وهي العلم .

إن وضع الاسم يـأتي بعـد إدراك موضـوعـه . فـالبشر في الأصـل لا يضعون اسماً لما لا يعلمون أو لما لم يصل إلى إدراكهم ، فكل مـا لم يصل إلى إدراكهم لـه اسم واحـد وهـو المجهـول ، وأمـا إذا وصـل الإنسـان إلى إدراك الـوجـود الفيزيـائي ـ المـادي الأفقي ـ أو الـوجـود الاجتماعي الإنسـاني ـ الأنفسي ـ فإنه يضع الاسم له بعـد التصور الأول ، ولا يزال الإنسـان يتعـامل مع هـذا الوجـود وذاك حتى يصحـح نظره ويحـذف الخطأ من إدراكه ويثبت الصواب . ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَـا يَنْفَعُ النَّـاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرَّعـد ١٣/١٧] ، ﴿ يَـزِيـدُ فِي الْخَلْـقِ مَـا يَشَـاءُ ﴾ [فـاطر ٣٥/١] . ﴿ وَقُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه ٢٠/١١٤] ، فبعد الفهم والتصور يضع الإنسان الاسم ، أي أنـه بعـد دخول الشيء إلى عـالم الوعي يثبتـه الإنسـان بـوضـع اسم لـه ، عنـوان ولادته ووجوده في ذهن الإنسـان . فـالشيء كان موجوداً ولكن لم يكن له اسم ، لأنه لم يكن دخل بعد في وعي الإنسان وإدراكـه ، فلمـا دخل

وعي الإنسان وإدراكه وضع له الاسم ، فعلّم الإنسان هذا الشيء الذي أدركه بأن وضع له علامة تميزه . إذ وَضْعُ الأسماء ، أو قدرة الإنسان على التعامل بالرمز اللفظي (الاسم) : هي القدرة الجديدة المهمة التي تؤهل الإنسان لأن يكون مستخلفاً في الأرض . والواقع ، إن القدرة اللفظية أو قدرة وضع الأسماء أو تعليم آدم عليه السلام ـ الأسماء ـ هي القدرة الأولى في هذا الخلق الآخر ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٤/٢٣] ، إن قدرة تعلم الأسماء وأهميتها هي التي جعلت الأقدمين يعرّفون الإنسان بأنه حيوان ناطق ، وإن كان المناطقة فسروا النطق بالتفكير إلا أن التفكير لا ينتقل من صاحبه إلى الآخرين إلا بالنطق والكلام ، أو الكتابة التي هي ترميز للنطق والكلام ، فلا حرج أن نقول : إن النطق والبيان أهم صفات الإنسان ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن ٥٥/١ـ٤] .

إن قدرة الكلام جعلت في الإمكان إدخال عامل تربوي فائق زيادة على الوراثة العضوية ، إذ صارت الخبرات البشرية ممكنة الانتقال مشافهة . وإن ما يعرفه العلم عن بداية ظهور اللغة ، والنطق والكلام عند الإنسان ضحل محدود ، مع أن إنسانية الإنسان قد بدأت

مع الكلمة واللغة : فبالكلمة ارتفع الإنسان إلى مرتبة الإنسـان ، كما بـدأ تـاريخ الإنسـان يُسَجَّل ويُعرَف ، وتنتقل خبرات السـابق إلى اللاحق مع اختراع الكتابة والقراءة التي أضاءت مسيرة الإنسان . وبقـدرة تعلُّم الأسماء صار آدم وذريتـه خلقـاً آخر ، وهـذه القـدرة الجـديـدة جعلت خطـاب الله تعـالى لآدم ـ عليـه السـلام ـ من نـوع آخر ، فـإن وحيـه ـ جلَّ جلاله ـ إلى البشر ، لم يكن كوحيه إلى النَّحل . وبـذلـك أيضـاً صـار آدم مستـأهلاً الخلافـة في الأرض ، لأن تعلم الأسماء فتـح مـواهبـه وقـدراتـه الكامنـة . فقـد تعلم الأسماء ، وسيتعلم بعـد ذلـك أن يقرأ ، وسيقرأ باسم ربّه الأكرم ، الـذي علَّم بـالقلم ، علَّم الإنسـان مـالم يعلم . وسيصل هذا الإنسان إلى مـا علِم الله فيـه وجهلتـه الملائكـة من التغلب على الفساد وسفك الدماء ، وبهذا العلم أقرت الملائكـة بقصور علمهم عن الإنسان حين حكموا عليه بما حكموا . إن اللغة والبيان وظـائف لكيـان الإنســان : فهي آيــات على الفكر والسلطــان وقــدرة الإنســان على التسخير . وإن اللغــة والبيــان لأجـل الحقيقــة والصــدق ، لا للـوهم والكذب ، فالاسم الـذي ليس علامـة على واقع اعتبره الله تعـالى زيفـاً وبهتاناً . فينبغي أن يُصان الاسم واللغة والبيان عن الكذب والزيف ، لهذا قال عن الأصنـام ، اللات والعزّى ومنـاة الثـالثـة الأخرىٰ : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَـا أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَـا أَنْزَلَ اللهُ بِهَـا مِنْ سُلْطَـانٍ ﴾

[النَّجم ٢٣/٥٣] ، فالكلام ليس لمجرد الكلام ولا للخداع والدجل ، وإنما لنقل الحق والواقع ؛ لتثبيت الصدق والعدل ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد ٢٥/٥٧] ، فالكلام الذي لا يعبر عن واقع وصدق عملة مزورة ، وصك لا رصيد له « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت » (البخاري كتاب الأدب) . وفي تراث الصالحين حديث طويل عن قدسية الكلام وصونه عن أن يخرج عما خلق له من بيان الحق ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٧١/٣٣] ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصَّف ٦١/٢-٣] . فمن هنا تأتي قدسية الكلمة التي ترفع صاحبها إلى مراتب الصديقين ، أو تهوي به في نار الجحيم ، ومن هنا كان قول أصدق الناطقين محمد ﷺ وهو يجيب من قال : (وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟) ، فقال ﷺ : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم » (مسند الإمام أحمد ، جـ٥ ، ص٢٣١) فهذا من يستخدم آلة الصدق للغش .

يبدأ عمل اللغة بعد تشكل الصور الذهنية عن الوجود

الخارجي ، فالبيان واللغة يفيدان على قدر وضوح الأفكار والصور الذهنية عن مخلوقات الله .

فكلما وضحت الأفكار ، تشققت فنون البيان ، واتسعت اللغة ، وتمكنت من الأداء ، وجعلت للكلمات رشاقة ورصانة كأنها البنيان يشد بعضه بعضاً ، وهذا ماعناه الناقد الكلاسيكي بوالو : (إن ما نجيد فهمه ، نجيد التعبير عنه) . . .

بينما الأفكارُ التي تفتقد الوضوح ، تفتقد الألفاظَ التي تعبر عنها ؛ فضحالة الأفكار تجعل الإنسان عيياً لا يقدر أن يجد جواباً . وضحل الأفكار وإن تشدَّق وأطلق العنان لصف من الألفاظ ، فكلامه مثل كلام النائم ، أو كلام ذي غيبوبة لا صلة بين أجزائه . وهذا ما يحدث للغة في عصور التخلف حيث تصبح الأفكار ضحلة فتفقد اللغة دورها الإيجابي ، وتصبح قوالب بلاغية محنطة فارغة . فهذا معنى قول الإمام الغزالي : (من طلب المعاني من الألفاظ ، ضاع وهلك ، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه) .

ويبين توينبي أيضاً ، أن هناك بعض الثقافات تجعل الكلمة مصدر المعاني بدل أن تكون الكلمات أمارات على المعاني .

فالثقافة التي تجعل الكلمات أمارات على المعاني ، لا تعطي

القدسية للكلمات إلا بمقدار دلالتها الواضحة على المحتوى الخارجي ، بينما الثقافة التي تجعل القدسية للكلمات تحاول أن تفسر الحقائق الخارجية العصية لتوافق الكلمات ، وهذا عكس القضية وانتكاس للوظائف .

وهذا الانتكاس يحدث حينما يحل التخلف بالحضارة ، وذلك بأن يقل العلم ، ويذهب حملته ، فيخلف من بعدهم خلف يضيعون الوظائف والحقائق ، ويتبعون الأوهام ، وهذا ما كان يحدث للتاريخ والدول سابقاً ، وعلى هذا بنى ابن خلدون نظريته في تحديد أعمار الدول بأربعة أجيال : الجيل الخشن المتحمل ، ثم الجيل الذي يتمتع بالثار ، وإن لم تعد له قدرة التحمل ، ثم الجيل المخضرم الذي فقد الأسباب ، وبقوة الدفع السابق يبقى مستمراً على سمعة الأجيال ؛ ثم الجيل الرابع الذي تأكل دابة الأرض منسأته ، فيخرُّ صريعاً لليدين وللجنب ؛ وهو الذي ضيَّع الوظائف والحقائق ، واتَّبع الأوهام .

وبهذا القلب المعكوس ، كانت ولا تزال تحتفظ البيوتات بالشرف الذي كان موجوداً يوماً ما للآباء ، وإن لم يعد هناك وجود حقيقي للشرف والأعمال التي أكسبتهم الشرف . ولهذا جاء الشرع بأن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

[الحجرات ١٣/٤٩] ، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠١/٢٣] .

ومثل هذا الانعكاس يحدث أيضاً في الشرع والقوانين . ففي الإنجيل يرى عيسى ـ عليه السلام ـ غلو اليهود في تعظيم السبت ، فيقول لهم القاعدة التي تعيد الأمور إلى نصابها : (الإنسان هو ربّ السبت أيضاً) (متى ، إصحاح ١٢ ، لوقا ٦) ، أي أن الإنسان ليس من أجل السبت ، وإنما السبت من أجل الإنسان . ويحدث مثل هذا الانتكاس أيضاً للقانون الذي يوضع في الأصل من أجل البشر ، ولكن البعض الذي تغيب عنه هذه الحقيقة ، يجعل البشر من أجل القانون ، فيعقد الأمور ويضيع مصالح البشر التي وضع القانون من أجل توفيرها وتسهيلها ، وهكذا .. وهكذا .

والذين عارضوا كوبر نيكوس في نظريته الفلكية كانوا يستشهدون على خطأ كشفه بالوقوف عند حرفية ما ورد في التوراة من أمر يوشع للشمس أن تقف عن المغيب ، ولو كانت الأرض هي التي تتحرك لكان قال للأرض : قفي ، ولم يقل للشمس : قفي . وهكذا دواليك ..

لهذا كان الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ، ولكن كانوا يكذبون

شكل التـديـن الزائف الـذي حرّفـه الأتبـاع ، فتحولت الـدعـوات التي كرمت الإنسـان وأخرجتـه من عبوديـة الإنسـان للإنسـان إلى أغلال ، وتحوّل الأنبيـاء والمصلحـون إلى أوثـان ، على أن النّبي كان يـأتي ليضـع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وكان محمد ﷺ يحذر أمتـه من أن تحذو حـذو الأمم السـابقـة : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بـذراع » (البخـاري كتـاب الاعتصـام) . هـذا التحـذير ليس إثبـاتـاً للجبر ، وليس نفيـاً لجهـد البشر في القـدرة على التغيير ، وإنمـا لإرشـاد النـاس إلى أنهم حين يفقـدون الإمسـاك بـزمـام الأمـور وتسخيرهـا ، فـإن لـلأمـور سننـاً طبيعيـة تـأخـذ مجراهـا على أسـاس المسخَّرات وليس على أسـاس المسخِّرين ، وأن الإنسـان إن لم يقم بـدور التسخير كإنسـان فسيـدخـل إلى عـالم المسخرات كسـائر الكائنـات التي رفضت حمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنـه كان ظلومـاً إن تخلى عن حمـل الأمـانـة ، وجهـولاً إن لم يجتهـد في تـزكيـة نفسـه ، ولم يتعلم علم التسخير وتقرير المصير .

فهكذا نقع في الخطأ ، حين نطلب المعاني من الألفاظ ، ونهتـدي حين نقرر المعاني ونتبع المعاني الألفاظ ، كما قرر الإمام الغزالي .

المرتبة الرابعة

(مرتبة التعليم بالقلم)

ـ معنى التعليم بالقلم :

مرتبة التعليم بالقلم ، وهي تأليف رقوم تدرك بحاسة البصر ، وتدل على اللفظ ، وهي الكتابة ، فالكتابة تبع للفظ ، واللفظ تبع للعلم ـ الصورة الذهنية ـ والعلم تبع للمعلوم ؟ أي أن الصورة الذهنية تبع للحقيقة الخارجية .

اعتبرنا اللغة أو القدرة على وضع الأسماء ، المقامَ الذي رفع الله آدم ـ عليه السلام ـ إليه حين علّمه الأسماء كلها : وهذا ما جعل الملائكة يعترفون بنقصان علمهم عنه ، ومن هنا تطرق الخلل إلى حكمهم على آدم بأنه لا يستأهل خلافة الأرض ، فهو يفسد فيها ويسفك الدماء . والقدرة التي نتحدث عنها هي اللغة : أي نقل الأفكار والتجارب بالألفاظ والحديث . فحين وضع آدم الرموز اللفظية ـ الأسماء ـ للأشياء والأحداث ، اعترفت الملائكة بنقصان علمهم . فاللغة موغلة في القدم مئات الآلاف من السنين ، وربما الملايين ، بينما

قدرة وضع الرموز الدالة على الألفاظ ـ الكتابة ـ متأخرة وحديثة في حياة البشر ، لا تتعدى بضعة آلاف من السنين ، واعتبر المؤرخون ظهور هذه القدرة عند الإنسان بدءاً للتاريخ . ومهما حاولنا أن نظهر أهمية هذه القدرة ، فإننا لن نوفيها حقها .. إنها قدرة القراءة ، قدرة القدرات وآية التكريم ، ومظهر كرم الله ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٣/٩٦] ، إنها التعليم بالقلم .. إنها ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ .. ﴾ [القلم ١/٦٨] .. إنها الرمز ، الأداة .. الرمز الخالد الباقي .. الرمز الذي يقي الإنسان من أن يلدغ من جحر مرتين حين يحسن استخدامه ، فالإنسان يحمي نفسه من الشر بالاعتبار ولا يتم الاعتبار إلا بالرمز الذي يحفظ المثلات . وأكاد أن أقول : إن الكتابة تمنح الإنسان القدرة على اجتناب الخطأ الذي وقع فيه السابقون حين تقلت الكتابة خبراتهم ، وسجلت أخطاءهم .

اقرأ ياإنسان باسم ربِّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، فصار قابلاً أن يتعلم بالقلم . اِقرأ وربُّك الأكرم .

إن القراءة ينبوع العطاء .. ينبوع كل المكاسب .. ينبوع التسخير إلى الأفضل دائماً .. بـ (نون والقلم وما يسطرون) : دخل الإنسان عهداً جديداً ، وبهذا أضيفت إلى الإنسان خزائن معلومات ... أضيفت ذاكرة جديدة غير قابلة للعطب والنفاد ، واكتسب كرم الله

الخلود والاستمرار .. اِقرأ وربُّك الأكرم .. اِقرأ .. فإن من أعطاك القراءة قد أعطاك سلطاناً واستخداماً وتسخيراً ، فياله من عطاء ، لمن تأمل ، وتفكر ، وتدبر .

تأمل الإنسان ، والقدرة على القراءة والكتابة كامنة فيه[1] ، وقد عاش آلاف السنين محروماً من أن تبرز هذه القدرة الكامنة فيه إلى الواقع .. فسترى بذلك تأخر ظهور سلطان الإنسان ، وظهور مقام : ﴿ سَخَّرَ لَكُم ﴾ [إبراهيم ٣٢/١٤] .

وحين كان بعض المسلمين يقولون - وهم يستمطرون رحمة الله - بسرّ ﴿ كاف ها يا عين صاد ﴾ لم يكونوا يدركون إلى أي درجة أنَّ رمز الرمز هذا كامنة فيه رحمة الله وكرمه ، وعطاؤه الذي لا ينقطع . إن الحروف المقطعة في فواتح سور القرآن الكريم ، تناولها المفسرون بما تيسر لهم ، ولا يزالون يتناولونها .. وكل واحد من هؤلاء المفسرين قد رأى في هذه الفواتح السرَّ الذي يناسبه وينسجم مع فكره وفهمه ، وإني أرى أن سرَّ القدرة على استخدام الرمز على مخلوقات الله كلها ،

---

(١) في علم المنطق يضربون المثل بالقدرة على الكتابة وذلك للتمييز بين القدرة الكامنة والقدرة التي ظهرت إلى الوجود . فيقولون : الإنسان كاتب بالقوة وإن لم يكن كاتباً بالفعل ، أي أن فيه قوة تمكنه من أن يتعلم الكتابة وإن لم يكن كاتباً الآن ، وبعد أن يتعلم الكتابة نقول : إنه كاتب بالفعل .

مرتبط بالقراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق ١/٩٦] ، فالقراءة رمز على المخلوقات المادية والمعنوية . وإن إمكان وضع الرمز على المخلوق ، جعل الإنسان سيد المخلوقات ومسخّرها . بالرمز أمسك الإنسان زمام الخلق ـ المخلوقات ـ وبالرمز قنص الإنسان المادة والمعنى ، وجعلها طوع أمره ﴿ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [الجاثية ١٢/٤٥] . ثم انتقل الإنسان من وضع الرمز اللفظي ، إلى وضع الرمز على الرمز ، أي وضع الحرف الذي يدل على الأصوات المختلفة .

إن وضع رمز على مخرج حرف معين ، وجعل القراءة على هذا الأساس ، نهاية لعصر الرموز بالصور على المعاني . وكأن اللغة الصينية واليابانية لا تزالان في مرحلة متخلفة عن جعل الكتابة بالرموز على المقاطع الصوتية ، وكأن اللغة الهيروغلوفية كان بدؤها كذلك .

إن علمنا ببداية تعلم الإنسان إطلاق الألفاظ والأصوات على المخلوقات المادية أو المعنوية ـ أي نشوء اللغة ـ علم قليل قابل للزيادة ، ولكن علمنا بوضع الصور الكتابية على الصور الذهنية ـ أي الكتابة ـ أكثر ، سواء كان الرمز صوراً للألفاظ أو صوراً للمخلوقات ـ الحقائق الخارجية ـ ويستخدم هذا النوع من الرمز الآن في إشارات المرور وإشارات الفنادق والمطاعم لتأخذ معنى العالمية .

إنني أطيل البحث في شيء لا يبدو متصلاً بتعريف العلم ، أو بمعنى العلم كما يظهر لأول وهلة ، ولكن إدراكي لمعنى العلم ، يجعلني مضطراً لبحث هذا الرمز ؛ لأن الرمز ، وقدرة الإنسان على حبس المعنى في الرمز ، وإبراز هذه القدرة إلى الواقع ، أعطى الخلود للعلم . لقد كانت التجارب تضيع ويعاني الإنسان دفع الأثمان الغالية ، بإعادة التجارب التي كانت تموت مع من قام بها ، إذ لم يكن في الإمكان توريثها للخلف بشكل دقيق . وإن تغلب الوثنيات على الأديان السابقة للإسلام وانحراف هذه الأديان عن مبدأ الوحدانية ، راجع في الدرجة الأولى إلى أن تعاليم تلك الأديان لم تسجل في حينها ، وإن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر ١٥/٩] ، والتنفيذ العملي من الرسول الأمي ﷺ في الأمر بتسجيل الآيات فور نزولها ، وما يعرف في السيرة النبوية وتاريخ القرآن بكتّاب الوحي ، دليل على تسجيل الأحداث بالرموز ، التي تعطي معنى الخلود : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ؛ موضوع التوثيق والوثائقية . فمن هنا كانت ميزة ومكانة القرآن في تاريخ الأديان .

إن الرمز بالقلم ، جعل العلم خالداً ، وحصّنه من التحريف ، والضياع والنسيان ، لهذا وصف القرآن السابقين بأنهم : ﴿ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة ٥/١٤] ، حيث لم يكن التسجيل فور نزول

الأحداث ، وكان هذا سبباً لإغراء العداوات والبغضاء بينهم ، بسبب قلة البيان . إن البيان يحدث برد اليقين الذي يزيل الأحقاد ، فبالعلم تزال الأحقاد وأسباب النزاع في العالم .

إن آثار الإنسان قبل الكتابة موغلة في القدم آلافَ آلافٍ من السنين ، ولكن عهد الكتابة قصير في تاريخ الإنسان يرجع إلى بضعة آلاف فقط ، وإن هذا العهد القصير حافل بتقدم الإنسان ، بتقدم العلم ، بتقدم التسخير ، بتراكم المعلومات ، بتراكم الرموز على الخلق . ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

إن التاريخ من آدم إلى النبوات الكتابية تاريخ غامض ، لأنه تاريخ قبل عهد الكتابة ، ولكن النوع المسلط على نبوات عهد الكتابة أكبر مع قصر المدة ، إن صحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ لا ترجع إلى أكثر من خمسة آلاف عام وإن المدة من آدم إلى إبراهيم ـ عليهما السلام ـ آلاف آلاف من السنين ، بينما الفترة الزمنية من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الآن وجيزة بالنسبة للتاريخ وبالنسبة لأيام الله . وإن إقبالاً حين قال : « الزمن حال الإنسان ، وليس دورة الفلك » ربما كان يقصد أن حال الإنسان من السلطان والتسخير خلال هذه الفترة القصيرة جعل لها القيمة الكبيرة ، بينما دورات للفلك

بالملايين غابت في الظلمات[1] . وإذا كان عمر السكين ستة آلاف سنة فقط ـ حسب الآثار المتوفرة ـ فإن العهد من السكين إلى القمر الصناعي عهد ضئيل بالنسبة لدورات الفلك والأرقام الفلكية .

إنني حين أذكر هذه الأشياء ، كأنني أبحث أساس العلم ، وتاريخه ومعايشته ، ومعاصرته ، وكيف كسب العلم الخلود . إن الله حين يقول لنا : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] ، يضعنا على طريق العلم الحقيقي . إن معرفة جزء ضئيل من تاريخ العلم كمعرفة جزء ضئيل من تاريخ إنسان معين ، لا تعطي معلومات كافية عنه . إن العلم الذي يَغْفُل عن التطلع إلى كيف بدأ خلق المخلوقات المادية والمعنوية ، لا يخلو من الأوهام والأهواء ، فيكون مشتبهاً بالخرافات . وكم أشكو في العالم الإسلامي والعالم المعاصر عامة من اختلاط العلم بالأوهام والأهواء ، أي الظنون والرغبات . إن العلم لا يتحرر من الأوهام والأهواء ، إلا إذا حُصِّن بإدراك كيف بدأ الخلق : مادة ومعنى ، طبيعةً واجتماعاً ، آفاقاً وأنفساً . وبدخول قدرة القراءة إلى عالم الإنسان ، اكتسب الإنسان سلطاناً جديداً ، واستأهل الخلافة ، وملك قدرة وأداة للقضاء على

(١) وكأنّ قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [الإنسان ١/٧٦] ، تلميح لهذا العهد .

الفساد والسفك . إن تذوق وإدراك أهمية القراءة في حياة البشر ، وإدراك ما أعطي الإنسان من خير وبركة وسلطان ينفذ به من آفاقه المحدودة ، إن هذا التذوق والإدراك التاريخي ـ أي كيف دخلت هذه القوة إلى حياة الإنسان الذي كان خالياً منها ـ يحمل على التأمل ويفتح آفاقاً جديدة أمام الإنسان وقدراته على حلّ المشكلات ، وإمساك زمام سلطان التسخير لما خلق له .

إن أهمية القراءة تبدو في معجزة النَّبي الأُمِّي ، فكون خاتم النَّبيين أُمِّيّاً إشارة إلى أن أحداً من الناس بعد خاتم النَّبيين لن يكون مصلحاً وهادياً في الناس بدون قراءة ، وبخاتم النَّبيين النَّبي الأُمِّي محمد ﷺ ، خُتِم عهد الأُمية ، وفُتِح عهد القراءة في الحياة البشرية .

بالقراءة يمكن اختزال التاريخ ، بالقراءة يمكن أن يختزل الإنسان عصور المعرفة والتجارب . إن الفرق بين الإنسان الذي يولد في مجتمع القراءة والكتابة ، وبين من ولد قبل ذلك العهد ، أن إنسان عهد القراءة قادر على حيازة تجارب آلاف السنين لآلاف البشر . فبالقراءة يمتلك الإنسان طاقة مختزلة مركزة مليئة بالعلم ، مختزلة في حجم إنسان اختزل حجم آلاف السنين في عمر إنسان واحد .

إن الإنسان يحترم ويقدس الكتابة ، وما زلنا نشاهد بقايا نوع

من الناس يرفعون القصاصات عن قارعة الطريق ، ولا يعون جيداً القدسية المعنية الموجودة في الكتابة ، والحرف ، والخط والقلم ، والرقّ المنشور . إن هذا الجلال وهذه القدسية ، وهذه الكرامة ، وهذا العطاء غير الممنون للإنسان ، يمكن أن يفهمه بشكل واضح جداً كل من أدرك وظيفة القراءة ، وما يمكن أن نعطيه للإنسان لبلوغ منزلة أحسن تقويم .

لقد اختُزل العلم باستخدام الرمز ـ الخط بالقلم ـ ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم ٦٨/٢] . وإن وضع المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف .. قد رفع من معنى قدرة الرمز وأعطاه فاعلية وكفاءة وسرعة ، وبذلك تمكن الإنسان من مراجعة ما يريده بسهولة ويسر ، سواء في معرفة الأسماء ، أو التاريخ ، أو شتى الحقائق .. ومثل ذلك الآلات الحاسبة وبنوك المعلومات ، فهي في حقيقتها استمرار لاختزال المعلومات وتقديمها بسرعة ، وهذه إحدى نعم الله الكبرى التي ارتبطت بالقلم والكتابة ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم ٦٨/١-٢] ، وإن الذين يتعاملون مع آيات الآفاق والأنفس ، ويستغلون الرموز التي تتحول بسرعة إلى حقائق ومعطيات علمية .. هم الذين يتسخر لهم ما في السماوات والأرض .

إن مشكلة الأُمِّية ، وما يخسره الإنسان بفقدانه القراءة

والكتابة ، شيء لا يعوض ، وإن البلدان التي تعاني من الأُمية تعاني من نقص في فاعلية الإنسان . إن الإنسان الأُمي منزوع منه الشريان الذي يمده بالسلطان ، لأنه مفصول عن تجارب البشر ، بل يمكن القول : إنه غير قابل أن يبلغ الرشد .

إن الصلة بالكتاب تغير من سحنة الإنسان ، ومن توتر عضلاته ، وسمات وجهه ، والذين يفقدون الصلة بالكتاب يفقدون السلطان ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون ٤/٦٣] ، ذلك أن بلوغ مرحلة التقويم الحسن للإنسان التي تفضَّل الله بها ، لا يتم إلا عن طريق الصلة بالكتاب . فيا أيها الإنسان إن ربَّك الأكرم ، الذي خلقك فسوَّاك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركَّبك .. إن ربَّك الكريم رفع من قدرك ، ومن خلقك ، ومن تسويتك ، وتعديلك ، غيَّر من شأنك بالقلم والكتاب ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُمر ٩/٣٩] .

إنَّ حل مشكلات الإنسانيّة ، ونفي تهمة الملائكة لبني آدم ، وإخراج الإنسان من الفساد والسفك ... لا يتم إلا بالتسخير الحق لقدرة القراءة .

إن التسخير الحق لقدرة القراءة ، يجعل الإنسان يطير بجناح

القراءة ، و يتغلب على المشكلات . لا يغرنّك شيوع الفساد والسفك في العالم . إن إنساناً أدرك كيف بدأ خلقه وكيف وصل إلى ما وصل إليه ، وتجاوز ما تجاوز ، سيعلم كيف سيصل إلى مالم يصل إليه بعد ، وكيف يتجاوز العقبات التي أمامه ، كما تجاوز العقبات التي خلفها .

إن الكاتب ، والقارئ ، والطابع والكتاب .. إن كم وكيف كلٌ من هذه الأمور هي التي تعطي للمجتمع صورته التاريخية ومركزه بين معاصريه .. إن هذا الكم والكيف مؤشر صادق لعدالة الصورة والخلق المسواة ، والرصيد من الحق .

إن الاستخلاف في الأرض هو لمن يقوم بهذا النسك أفضل قيام ، إن من يقوم بهذا النسك على أحسن وجه يكون حظه أوفر من موجبات استخلاف آدم في الأرض .

كيف تتحول النعمة إلى نقمة ؟

إن من يراقب الطفل كيف ينمو ليتمكن من القعود ، ثم الوقوف ثم المشي ، يجد سنّة الله في التدرج ، و يجد أن الطفل الذي يمشي ، يتعثر أول الأمر ويسقط .. حتى تقوى عضلاته . إن وقوعه أمر متوقع ، ولكن غير المتوقع أن يظل يسقط دون أن يتحسن في نموه .

إن عثرة الطفل السليم غير عثرة المشلول . وإذا كان هذا الأمر

واضحاً في مستوى الطفل ونموه . فإن الأمور تشتبه كثيراً في نمو المجتمعات وتطورها .. وخاصة حين لا يبحث الإنسان في الأسباب التي تؤدي إلى تكرار تعثره وسقوطه وعدم سيره سوياً على صراط مستقيم ، وهذه أمور يدركها من يعلم مسارات التاريخ ، ويبصر بعمق وإدراك عثرات المسافرين .

إن نعمة القراءة من أجلّ النعم ، ولكن يمكن أن تتحول عند قوم معينين أو في عصر معين ، إلى ما يشبه النقمة ، فإن كان من شأن القراءة أن تسارع في النمو ، فقد تكون عند قوم وفي عصر مُعين ، إبطاء للنمو لسوء التعامل معها ، كما يمكن أن يكون الربيع سبباً للهلاك بالتخمة عند مخلوق معين ، كما ورد في حديث عن رسول الله ﷺ لَّما حذَّر المسلمين من أن تفتح عليهم الدنيا فيتنافسوها كما تنافسها من قبلهم ، فتهلكهم كما أهلكتِ من قبلهم . سأله سائل يارسول الله : وهل يأتي الخير بالشر ؟ قال رسول الله ﷺ : « أما إنه لا يأتي الخير بالشر ، ولكن إنّ مما يُنبتُ الربيعُ ما يقتلُ حَبَطاً أو يُلم » (البخاري كتاب الجهاد) . إن الربيع خير ، ولكن يكون شرّاً لبعض الحيوانات ، وهكذا كل نعمة يمكن في ظروف معينة ، أن تؤدي إلى نقمة أو عثرة .

إن القراءة والكتابة ، نعمة مستمرة دائمة متواصلة ، بها لا بغيرها تزكو الحياة ، وتنمو الكفاءات ، والقدرات ، ولكن قد تستخدم هذه

النعمة أحياناً ، استخداماً سيئاً يؤدي للعطالة وخمود الحياة ، مثل استخدام المسلمين سرّ (كاف ، ها ، يا ، عين ، صاد) . فبدل أن يستخدم ليكون وسيلة لمعرفة التجارب البشرية ، وكيف بدأ الله الخلق ، صار سرّ (كهيعص) تميمة لدعوة ملوك الجان الأحمر والأزرق ، لفك السحر ، أو تركيبه . كما أن تقديسهم لِـ (ن والقلم) تحوَّل إلى جمع قصاصات الأوراق من الطرقات ، بدل الاطلاع بسرّ (نون والقلم) على تجارب المجتمعات والحضارات ، ومعرفة كيف بدأ الخلق لرؤية سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدل ، ولرؤية قدرة الإنسان على تقرير مصيره ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١٣/١١] . والإمام الغزالي حين قال : « من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه » ، كان يستشعر بوضوح وظيفة اللفظ ومكانة الرمز ، ولم يكن من قصده أن القراءة والألفاظ الدالة على المعاني لا تؤدي وظيفة ولكن كان يقصد أن من فقد الصلة بالوجود الخارجي ـ بالآفاق والأنفس ، أي بالموضوع الذي وُضع عليه الرمز ـ فإن الرمز لا يفيده شيئاً ، ويكون جديراً بأن يوصف بأنه ضاع وهلك ، وكان كمن استدبر المغرب وهو يطلبه .

وأذكر بعض التجارب التي عايشتها حين كنت طالباً ثم مجنداً ، تتصل بهذا الموضوع . لقد كانت صلة بعض أساتذتي المخلصين الطيبين

بعبارات كتب الفقه وشروح الحديث ، صلة الوقوف عند الألفاظ ، والتهيب الشديد لرؤية القداسة في كلام الشراح ، ثم رأيت وأنا مجند الموقف نفسه حين يختلف المدربون في شرح وظيفة سلاح ما ، فقد كانوا ينظرون إلى الكراس المترجم بنفس القداسة . إن هذين الموقفين متشابهان إذ لم يكن التعامل الواقعي هو الذي يحدد ما ينبغي أن يقال في الموضوع ، وإنما كان تقديس الأشخاص ، وآرائهم المكتوبة هي التي تحدد الموقف .

إن تقديس الأشخاص وآرائهم المكتوبة ، كان يحول لا شعورياً ، دون التعامل مع الوقائع الخارجية ، للتحقق من صحة هذه الآراء . فالذين يقدسون أرسطو ـ مثلاً ـ تجمدوا على رأيه في سقوط الأجسام ، ولم يخطر لهم أن يتثبتوا من صحة أقواله ، بينما كان جاليلو يميل إلى إمتاع نفسه ، بتدبير مواقف تُبدي زملاءه في مظهر الحمقى ، إذ كان الأساتذة يقررون أن الذي زنته عشرة أرطال ، أسرع في السقوط من الذي زنته رطل واحد بعشر مرات ، فأخذ جرمين مختلفي الوزن وقعد على برج بيزا على طريق الأساتذة وعند مرورهم أسقطهما فوصلا معاً تقريباً .

لقد ظل رأي أرسطو سائداً في سقوط الأجسام مدة ألفي سنة

دون أن يتحمل أحد مشقة التثبت من صحته . فكان التفكير في التثبت أمراً جديداً أو تطاولاً وتكذيباً للثقات وعملاً مرذولاً ، فحين كان جاليلو يمتحن قول أرسطو في سقوط الأجسام الأثقل وزناً من نوع واحد بسرعة أكثر وحين قال جاليلو : يسقط مسمار كبير وآخر صغير فيصلان معاً بسرعة واحدة ، كان الأساتذة يسخرون منه لأنه يحاول إظهار خطأ أرسطو (ياللوقاحة والكبرياء)[١] .

ومن هذا القبيل ما يذكره يورانت في قصة الحضارة[٢] : (في سنة ١٥٤١ م ، اشترك فيساليوس مع آخرين في نشر طبعة جديدة من النص اليوناني لجالينوس ، وقد أدهشته أخطاء ندّت عن جالينوس وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان ؛ كقوله مثلاً : « إن الفك السفلي قسمان .. » وهذا يدل على أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات ، وشعر أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح الآدميين .

وقال دوبوا : « إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغيير من عهد جالينوس .. » ثم قال ول ديورانت بعد ذلك : « لم

---

(١) انظر كتاب النظرة العلمية ، راسل ، ص ١٣

(٢) انظر كتاب قصة الحضارة ، الجزء السادس من المجلد السادس أو الجزء ٢٧ ، ص ١٥٤ ، ١٥٧

يكن لشهادة الحواس كبير وزن أمام كلمة جالينوس وابن سينا ، لا بل إن فيساليوس نفسه قال عندما ناقض تشريحه رأي جالينوس : « لم أكد أصدق عيني » ، وكانت طبعات وترمات جالينوس تثبط القيام بالتجارب العديدة » .

والخلاصة ، أن القراءة والكتابة نعمة ، وهي الطريق الأساسية للنمو والتقدم للأنسانية ، ولكنها تؤدي إلى الجمود والركود ، وتقف عائقاً في سبيل التقدم ، حين تستخدم استخداماً سيئاً .

الكتاب صورة ذهنية :

إن جميع المؤلفات ما هي إلا صور ذهنية لمؤلفيها ، لأن الكتاب إنما يدور حول موضوع معين له وجود خارجي سواء كان عن الطبيعة أو الإنسان . ولذلك فإن المتعامل مع الحقائق الخارجية يصحح ويزيد من إدراكه لها . وعلى هذا الأساس يجب أن يتم النظر إلى الكتاب والتعامل معه ليزول ما يمكن أن يؤدي إليه من دعم الخطأ والاستمرار عليه . ومن أدرك هذا جيداً فإنه لا يتعامل مع الكتب على أساس القدسية لها ، بل تصير الكتب إشارات وعلامات تدل على مقدار ما توصل إليه تصور إنسان يوماً ، وبذلك تحمل الكتب المعنى الإيجابي ولا تقوم بدور التعطيل للبحث في الوجود الخارجي .

والإنسـان بتـوسعـه في القراءة يكتسب مـوقفـاً إيجـابيــاً فيضـع الكتاب في مكانه المناسب ويعترف بالجانب المقـدس منـه لأن الكتـاب جعل الإنسانية كائناً واحـداً خـالـداً ، واختزل التـاريخ ، وقـدم للبشر التجارب التي عـانى منهـا الإنسـان آلاف السنين في لحظـات موجزة .. فكأن الخلف ـ بهذا ـ يعيش مع السلف . فالذي يـدرس جيـداً تـاريخ الفراعنة ـ مثلاً ـ ويتخصص فيه ، ربما يـدرك من أمر هـذه الحضـارة مالم يدركه من عاصرها وعاش فيها . كما أن عمر الفرد صـار بـالكتـاب طويلاً لا ينتهي بوفـاتـه ، بل ويمتـد في المـاضي إلى العمـق السحيـق ، وصارت كل التجارب الماضية ملك يديه .

وحين ينظر إلى الكتاب على هذا الأسـاس ، يخرج الإنسـان من عالم الأشخـاص إلى عـالم الأفكار ، أي من الصور الـذهنيـة إلى الحقـائق الخارجية :

إن ما يسمى مرحلـة توقف الاجتهـاد أو عصور التقليـد في العـالم الإسلامي هو الانتقال من عـالم الأفكار إلى عـالم الأشخـاص ، من عـالم الحقائق الخارجية إلى الصور الذهنيـة ، هو الانتقـال من المعنى الإيجـابي للكتاب إلى المعنى السلبي له .

إجراء التصحيح :

وليؤدي الكتاب دوره ، لا بد أن تزول عنه الصور الذهنية الخاطئة ، فالكلام الطويل الذي لا يمكن تحقيقه في الوقائع الخارجية تضييع للأوقات وإبعاد للأهداف ، فلا بد من القيام بعمليات اختزال واختصار وتبسيط .. وهي مهمة كبيرة على العالم جميعاً التنافس فيها لحماية الأجيال .. فمعرفة تاريخ علوم الكيمياء والفلك والطب وسواها .. يُكتفى فيها بالإشارة إلى نماذج فقط ، لنعرف كيف بدأ خلقها ونموها لنصل بها إلى درجة التسخير .. بحيث يكون فهم الماضي سبباً لفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل .

إن الجراثيم ـ مثلاً ـ كانت تفتك بأجسام البشر وهي في حصن مظلم لا تطاله أعين البشر ولا أيديهم لتؤثر عليها ، ولكن بعد أن كشفت أسباب العدوى والتعقيم والتطعيم .. توقفت الأوبئة عند حدّها .

كذلك اليوم نرى الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالبشر فيسفك بعضهم دماء بعض .. فحين نكشف أسباب هذا الدمار الذي يقوم به الناس ضد بعضهم ، ونكشف هذه الجراثيم أو المفاهيم التي تحمل الناس على أن يذيق بعضهم بأس بعض كما كانت الجراثيم تفتك بهم ، فإننا نقي

المجتمع من الدمار والهلاك . فعلم الثقافة وعلم السلوك البشري شبيه بعلم الجراثيم قبل كشف الوسائل التي أظهرت للعيان الجراثيم وأثرها .

فكما تمكن الإنسان من معرفة تاريخ الأوبئة والجراثيم ، وكيف كانت تفتك في صحة البشر .. فيمكننا اليوم نقل هذه المعرفة التاريخية إلى معرفة أسباب سلوك البشر التي تفتك بالناس وتُغري بينهم العداوة والبغضاء . إن كشف أسباب أحقادنا وعداوتنا وجهلنا بوسائل التغيير ، وجهلنا بالماضي وعدم استفادتنا وقدرتنا على القياس والاعتبار ، إن كشف كل ذلك ، يشير إلى بداية تذوقنا كنه العلم وشم نكهة الفهم والإحساس ببرد اليقين .. وهذا ما أشار إليه الإمام الغزالي بقوله : « لوأصغى المعتقد إلى المشكك لوجد لنقيض معتقده مجالاً في نفسه ، والعالم لا يجد ذلك أصلاً وإن أصغى إلى الشبه المشككة .. وبعد هذا التقسيم يكاد يكون العلم مرتسماً في النفس بمعناه وحقيقته من غير تكلف تحديد » .

وهذه الحصانة التي عند العالم نتيجة لإجرائه التصحيح بتعامله مع الحقائق الخارجية ، لا بمجرد وقوفه عند حرفية النص .

وهذا التذوق والإحساس لِكُنْهِ العلم هو الذي جعل جورج .أ. لندبرغ يقول عن العلم : « إن مجرد توفر المعرفة العلمية

وعـادات التفكير العلمي .. يبعث في نفـوسنـا الراحـة في عـالم مليء بالمخاوف والانفعالات وغير ذلك من المشـاعر التي تبـدد الطـاقـة وتهـدر الجهد ، فالمعرفة العلمية تشكل ضرباً من الصحة العقلية »[1] . فما يقول عنه الغزالي : (الشبه المشككة) هو ما يقول عنه لنـدبرغ : (المخـاوف والانفعالات) .

وما يقول عنه الغزالي : (والعالِم لا يجد ذلك أصلاً) هو ما يقول عنه لندبرغ : (التفكير العلمي يبعث في نفوسنا الراحـة وهو ضرب من الصحة العقلية) .

إن عـدم القـدرة على الانتقـال من معرفـة مـا حـدث في تـاريخ الصحة الجسدية من كشوف وحماية أرواح ، إلى مـا يمكن أن يحـدث في تاريخ الصحة النفسية والعقلية والمعرفية من كشوف وحمايـة أرواح من النزاعات البشرية الجاهلية . إن عدم القـدرة هـذا هو العقبـة التي تحول دون تعميم معنى العلم في العالم شماله وجنوبه غربـه وشرقـه ، فهم يرون أن هنـاك أموراً لا تخضع للعلم بل ولا يمكن أن تـدخل في مجال العلم . وفرق كبير بين من يفهم أمراً ـ مثـل الروح ـ أنـه ليس مجـال العلم ، وبين من يفهم أنـه مجـال للعلم ، ولكن مـا يزال العلم فيـه قليلاً ، والعلم

(١) انظر كتاب هل ينقذنا العلم ، ص ١٠

قابل للزيادة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ٨٥/١٧] .

وقد عقد لندبرغ في كتابه (هل ينقذنا العلم) فصلاً مهماً في هذا الموضوع وقال : « إن النهج العلمي في التفكير لم يحرز بعد تقدماً يذكر ، إذ لا نكاد نجد أحداً يواجه المشكلات الاجتماعية اليوم بروح علمية مجردة ، أما القول بأن هذه المشكلات قد تُحل إذا كان لها أن تحل بواسطة أجهزة دقيقة لا ينتابها الخوف أو الغضب أو حتى الحب ، فهو أمر يبدو أنه لم يخطر ببال أحد حتى الكثيرين من الذين يعتبرون علماء في العلوم الاجتماعية »[1] .

ومن أسباب جعل السلوك البشري خارج العلم وخارج السيطرة عليه وخارج التسخير وخارج السنن أمران :

أولاً : فهم العقيدة الدينية فهماً خاطئاً ، وهو أن الله يفعل ما يشاء ﴿ وَمَا تَشَاؤونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الإنسان ٧٦ / ٣٠] . إن تاريخ النزاع طويل بين الذين يرون الجبرية في سلوك البشر وبين من يرون الإنسان مخيراً في سلوكه ، بين من يرى الإنسان مجبراً رغم أنفه على ما قضاه الله وقدره ولا قدرة له على الخروج منه ، وبين من يرى

(١) انظر كتاب هل ينقذنا العلم ، ص ٣٦

أن الله يغير مـا بـه إن هو غيَّر مـا بنفسـه . بل إن البعض يقـول : إننـا لا نعرف قضاء الله وقدره ، إذن لا دخل لنا في مصـائر النـاس وسلوكهم الذي يرجع إلى الإرادة الطليقـة لله ربّ العـالمين ، إلى مـا هنـالـك من أقـوال تـدل على الغمـوض والاشتبـاه وظـلام الرؤيـة . إن مشيئـة الله لا تسلب البشر قـدرتهم على التغيير وصنع مصـائرهم ، بل مشيئـة الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِـأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١١/١٣] ، وإن مصائرهم بيـدهم[١] .. وليس هنـا مكان تفصيل ذلـك ولكن أردنـا التنبيـه إلى أن هـذا الاعتقـاد والنظر الـذي يسلب الإنسـان الاختيـار والقـدرة على تقرير المصير ، يجعـل الإنسـان ومصيره غير خـاضـع للعلم والتسخير والتنبؤ .

ثانياً : والسبب الثاني الذي جعل السلوك البشري خارج نطـاق العلم والتنبـؤ والتسخير ، يرجـع إلى التـاريـخ المظلم والإلف الطـويـل الذي عـاشـه النـاس ، وهم لا يرون بصيصـاً من الأمل في السيطرة على سلوك الإنسان وإدراك السنن فيه . وهنا ـ مرة أخرى ـ يفيدنا تاريخ العلوم الطبيعيـة في توضيـح كيف عـاش النـاس طـويـلاً في الظلمـات وألفـوهـا ، وهم لا علم عنـدهم ولا سيطرة ولا تنبـؤ .. فهـذا التـاريـخ الطـويل في الظـلام جعل الناس أيضاً ينكرون يومـاً مـا ولا يصـدقون

(١) تفصيل هذا في كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

دخول العلم مجال الفلك والكيمياء والطب ، ولكن تعلم الإنسان شيئاً فشيئاً حتى أصبح يرى هذه الأمور حقائق لا يناقش بصحتها . وهذا الشيء نفسه ينطبق على علم السلوك البشري .. وسيأتي وقت يصبح فيه علم الاجتماع والعمران ـ أو السلوك البشري ـ علماً خاضعاً للسنن وقابلاً للتسخير ، ومجالاً مهماً في تخفيف الآصار والأغلال التي حملها الإنسان لأنه كان ظلوماً جهولاً . وهنا لا بد من إعادة التنبيه إلى أن الجهل البسيط غير الجهل المركب ، فقديماً كانوا يقولون : الجاهل الذي يعلم أنه جاهل هو جاهل بسيط ، ولكن الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل فهو جاهل مركب .

وكذلك يمكن القول : إن جهل الموقف العلمي ، وجهل المعرفة بتاريخ بدء الخلق ، يجعل الإنسان في موقف الجاهل المركب ، حيث يزعم أن العلم لن يزداد ، وأن الإنسان لن يقدر أن يبسط سلطانه وتسخيره إلا على ما وصل إليه ، وهذا الموقف يدل على عدم تذوق العلم أو إدراك تاريخه الطويل الذي قطع الإنسان فيه مراحل ومراحل حين خرج من حياة الصيد إلى الرعي ثم الزراعة . إن تقسيم تاريخ البشر إلى عصور حجرية قديمة وحديثة وعصر البرونز والحديد .. كل ذلك يدل على ، كيف بدأ خلق العلم ، وخلق السيطرة والتسخير . ففي القرآن الكريم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾

[الجاثية ٤٥/١٣] ، وفي التوراة : (أخضعوها وتسلطوا) [سفر التكوين إصحاح أول فقرة ٢٨] .

إن معرفة تاريخ العلم ضرورية ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠] ، ليقف الإنسان الموقف العلمي حتى من الذي يجهله . ليس المشكل أن نجهل شيئاً ما ، وإنما المشكل أن لا نقف من الجهل موقفاً علمياً بل موقف الجاهل جهلاً مركباً .

وقد تآزر الفهم الخاطئ للعقيدة الدينية والفهم الخاطئ للموقف العلمي ؛ في اعتبار علم الاجتماع والعمران خارجاً عن العلم وأنه غير قابل للدخول إلى مجال العلم .

إن الاهتمام الخاص الذي يوليه القرآن لعلم السلوك البشري يجعله في مركز الصدارة للعلم ، فكما يلح القرآن على النظر إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والأنهار والنبات والدواب ، يلح أكثر على النظر إلى سلوك الأمم وسنن الذين خلوا من قبل والاعتبار والاستفادة من كشف الأسباب والنتائج في التاريخ لتجنب الخطأ والإمساك بالصواب .

مرتبة خامسة للوجود

(الوجود السنني)

ذكرت أن الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية قسما مراتب الوجود إلى أربع ، وذكرت تفصيل كل مرتبة ، إلا أنه يبدو لي أن هناك مرتبة خامسة للوجود هي الوجود السنني .

يقال ـ أحياناً ـ إن هذا الذي نسميه جمال الطبيعة ، من ضياء الشمس وزرقة السماء وحمرة الشفق وخضرة النبات ، لا وجود له في الخارج ، وإنما الموجود في الخارج موجات ضوئية فقط ، والإنسان هو الذي يفسرها . فدماغ الإنسان لا يفسر مظاهر الطبيعة كأرقام فقط ـ كأن يقول : إن طول موجة الضوء الأحمر كذا والأصفر كذا ـ وإنما يفسرها بشكل آخر بأن يضفي عليها جمالاً ، فيفهم الرقم كصورة ، وهو نوع من التحويل والترميز . لهذا يقولون في المنطق : إن اللون عَرَض وليس جوهراً ، ولكن يمكن أن يقال عن الجوهر أيضاً ؛ طول الموجة في مثالنا السابق ـ مثلاً ـ إنه عَرَضٌ للسنة ؛ أي للقانون الذي يخضع له الموجود .

فالقضاء والقدر في مفهوم الإيمان هو أن الله تعالى قدر الأشياء قبل أن يخلقها ، فعلم الله وقدره سابق على الخلق ، وهذا العلم والقدر هو القانونَ الذي قام الوجود على أساسه . وإن الوجود الخارجي الذي اعتبرناه أساس مراتب الوجود راجع إلى هذا الوجود السنني ـ القانون ـ ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [يس ٣٨/٣٦] .

ويمكن القول عن الوجود السنني إنه : (كلمة الله) فهو سابق للوجود الخارجي حسب عقل الإنسان ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس ٨٢/٣٦] .

فرمز الماء الكيمياوي يمكن أن يقال : إنه رمز السنة ـ رمز قانون الماء ـ فهو ليس له وجود خارجي إلا في مظهر الماء ، ولكن له وجود سنني ونضع له رمزاً . فمظاهر الكون كلها تابعة للسنن ، ولكن هناك سنناً لم تنتقل بعد إلى الوجود الخارجي ، وأكثر ما يمكن أن يكون هذا واضحاً في عالم الكيمياء .. فعناصر الوجود المادي الأولي تتألف أصلاً من زوجين اثنين ـ بروتون والكترون ـ المتمثل في ذرة الهيدروجين ، وإلى اختلاف عدد هذه البروتونات والالكترونات وترتيبها يرجع تنوع العناصر المكونة للوجود . واتحاد عنصرين مع بعضها أو أكثر يؤدي إلى تشكل مركب جديد له مواصفات جديدة أيضاً لم يكن موجوداً ..

وقد رتب مندلييف جدوله بحسب تزايد الكتلة الذرية ، فكشف التسلسل الرقمي السنني للعناصر قبل التعرُّف على الوجود الخارجي لبعضها .. كما تنبأ بوجود عناصر أولية غير معروفة ، وترك مكانها شاغراً في جدوله ، وقدَّر لها مواصفاتها ، ثم جاء اكتشاف هذه العناصر بعد ذلك مؤكداً صحة ما قدره . وهذا يقرب لنا معنى الوجود السنني للشيء قبل اكتشاف وجوده .

وأكثر ما يتضح هذا الأمر اليوم في عالم الكيمياء ، حيث تظهر مركبات جديدة ذات صفات لم تكن قد تحققت فيما مضى من الزمان كوجود خارجي ـ مثل الأدوية ـ ولكنها كانت موجودة وجوداً سننياً لأن جميع عناصرها متوفرة .

هذا الوجود السنني هو نوع آخر من مراتب الوجود ، وربما يكون مدخلاً لتصور وجود الروح ، والله تعالى له الخلق والأمر . والروح من أمر الله ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء ٨٥/١٧] . وأمر الله ، وكلمة الله ، وسنّة الله ، ألفاظ قد تكون متقاربة في مدلولها ، ولكن سنة الله توصف بأنها لا تتبدل ولا تتحول .

١ ـ ثبات السنن :

وفي موضوع السنن أمران مهمان . الأول : أن السنن ثابتة

لا تتبدل . والثاني : أن السنن التي يعينها القرآن الكريم هي سنن المجتمع والأنفس ، وليست سنن الآفاق ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب ٦٢/٣٣] . وهذان الأمران يلتبس فهمهما على المسلم ، فلا بد من تصحيح هذا الفهم . فالمسلم أولاً : لا يرى للعلم ثباتاً ، وإنما يرى تغييراً مستمراً (فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً) . والذي يوقع المسلم في هذا أن هناك فرضيات شاعت بين الناس على أنها حقائق ثم اكتشف خطؤها ، فيظن أن ذلك نفي للعلم أو تغيير للسنة وهو ليس كذلك . كما أن هناك حقائق اكتشف جزء منها ، ثم اكتُشف ـ بعد حين ـ ما يتمم هذه الحقيقة .. فالعلم هنا لم ينتف ، ولكنه تكامل ، وهذا ليس تبديلاً للسنة وإنما انتقال من سنة إلى سنة ومن قدر إلى قدر .. والمسلم ثانياً لا يرى ـ أيضاً ـ أن العلم يدخل في الأمور الاجتماعية مثلما يدخل في الأمور الطبيعية . وهاتان العقبتان الكبيرتان تقفان أمام تذوق المسلم لمعنى العلم .

إن معنى العلم بإيجاز شديد : أن تدخُلَ السنة في العقل ، وبما أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فكذلك العلم لا يتبدل ولا يتحول . فسنة تكوُّن الماء لها ثبات وعدم تبدل وتحول ، وكذلك حين تصير سُنة

تكوُّن الماء علماً بدخولها في الأذهان ، يبقى هذا العلم حاملاً صفة الثبات وعدم التحول والتبدل .

وهكذا في الأمور الاجتماعية ، فالمجتمع الذي يفقد العدل يفقد الاستقرار« إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف ، والذي نفسي بيده لوأن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها » (البخاري ، كتاب الحدود) .

والله تعالى حين يذكر السنة في القرآن الكريم ، يذكرها متصلبة بالمجتمع وبالأنفس ، لا بالطبيعة والآفاق . والناس لا يعرفون السنة إلا في الطبيعة ، ولا يعترفون بها في الأنفس ، ويعتبرون عالم الأنفس خارج الثبات أو خارج السنة ، وهذا مناقض لمنهج القرآن ، بل ولمناهج المسلمين السابقين ، ولقد جاء ـ إلى العالم الإسلامي ـ قصر معنى العلم على الآفاق من المفهوم الغربي للعلم .

إن مثل هذه التصحيحات ضرورية ، ولا بد من التنبيه إليها لأن أمراً بمثل هذا الوضوح في القرآن لا ينبغي أن يكون غامضاً في الأذهان إلى هذا الحد ، فلا بد من التغلب على هذه العقبات وإزالتها .

وإني حين تخطر في بالي هذه الأفكار عن العلم وثباته وعمومه ،

أجد في هذه الآيات دعماً كبيراً وضوءاً هادياً وجرأة على تبني الفكرة وإبرازها وتوضيحها ومحاولة تعميمها .

إن السنة ثابتة . هذه حقيقة أولية ، بل ويمكن أن نقول : إنها فطرية . إذ لا معنى للعلم إن لم يكن مستمراً وثابتاً ودائماً ، والإنسان لا يتحرك ولا يقضي من أمره شيئاً ، ولا يخطو خطوة واحدة إلا على أساس ثبات السنن . فمثلاً لو أن إنساناً وضع على عينيه منظاراً مقرباً أو مبعداً ثم أراد أن يمشي في الأرض أو يصعد جبلاً لتعثر في مشيه ولما أمكنه أن يتحرك . فلولا ثقة الإنسان بثبات سنة الرؤية لما خطا خطوة واحدة . فالإنسان مصطحب لمعنى ثبات السنة والنظام والقانون في الحياة ، وعلى أساسه يتحرك ، ولكنه ينبغي أن يوضح للإنسان هذا الثبات حتى يكون تعامله مع الأشياء على بيِّنة . ولهذا عرَّف شيخ الإسلام ابن تيمية السنة تعريفاً حسناً حين قال : « السُّنة : أن يُفْعل في الثاني ما فُعِلَ في الأول » . أي إذا تكررت الشروط نفسها أعطت النتائج نفسها في الآفاق والأنفس ، في الطبيعة والمجتمع . فيكون الأمر علماً إذا أمكن إعادته عند توفر شروطه ، فما حدث مرة قابل أن يحدث مراراً إذا توفرت الشروط ؛ إذ تحتفظ السنة بمكانتها وشروطها .

ويعيد برتراند راسل كلمات ابن تيمية بأسلوب عصري فيقول :

« الطريقة العلمية في جوهرها في غاية البساطة وهي : ملاحظة وكشف قانون يسري على حقائق من النوع نفسه . والملاحظة واستخلاص القانون قابلان للتهذيب إلى غير حد . وأول من قال : النار تحرق ، استخدمها ، ومع ذلك ليس لديه المنهج العلمي .. والطريقة العلمية لم تكتسب إلا بمشقة وقليل من استخدمها ، وفي قليل من المسائل »[1] .

٢ ـ السنة والمعجزة :

إن الإسلام ـ كما يقول إقبال ـ وإن كان نبت في بيئة غير علمية ، إلا أنه انتقل إلى الحياة العلمية . هذا النظر نظر فاحص للتاريخ ، ورؤية جيدة للأحداث . فالقرآن وصف معجزات السابقين من عصا موسى ، وخلق عيسى للطير من الطين ، وناقة صالح إلى سواها .. وبيَّن أن هذه المعجزات كانت تؤدي دورها في عصر معين تسيطر فيه عقلية معينة كانت تطالب برؤية معجزات خارقة للسنن . ولكن القرآن وإن قصَّ مثل هذه القصص إلا أنه لم يعد يتعامل مع الناس على هذا الأساس . وهذا فيه ارتقاء في نوع الدليل ، وفي هذا قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات

(١) انظر كتاب النظرة العلمية ، راسل ، ص ٦

مـا مثلـه آمن عليـه البشر ، وإنما كان الـذي أوتيتـه وحياً أوحـاه الله عزّ وجلّ إليّ ، وأرجو أن أكـون أكثرهم تبعـاً يـوم القيـامـة » (مسنـد الإمام أحمد ، جـ٢ ، ص ٣٤١ ، رواه مسلم) .

في هذا الحديث تحديـد لبرهـان الرسول ﷺ على نبوتـه واتبـاع الناس له . إنه القرآن الذي يمكن أن يشاهـده كل أحـد ، والقرآن ليس مثل عصا موسى التي كانت برهاناً لمشاهديها فقـط . ومـا ورد في هـذا الحـديث من قصر برهـان الرسـول ﷺ على القرآن ، ورد أيضـاً في القرآن ما يؤكد ذلـك بـأسلوب آخر ، حينمـا طلب أهل مكـة من محمـد رسول الله براهين مثل براهين الأنبياء ﴿ وَقَـالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْـهِ آيَـاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّـا أَنْـزَلْنَـا عَلَيْـكَ الكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيهِم ﴾ [العنكبـوت ٢٩/٥٠ـ٥١] . فهــذا ما أشار إليـه إقبـال من أن الإسلام نبت في عصر مـا قبل العلم ، ولكنـه انتقل بـالإنسـان إلى عصر العلم وإلى آيـة العلم . وهـذا الموضـوع مهم في ترقي الآيات والبراهين . والإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) حين بحث علم اليقين الثابت الـذي لا يتغير قـال : « لو قـال لي أحـد : إن دليلي على صدق أن الواحد أكثر من الثلاثة أني سأقلب هـذه العصـا حيـة . ولو قلب العصـا حيـة لما تغير يقيني من أن الـواحـد أقـل من الثلاثة ، ولكني سأتعجب كيف قلب العصا حية » .

لـو حللنـا قـول الإمـام الغـزالي ، لأدى بنـا إلى أن مثـل عقليـة الغزالي لم تعد ترى الآية على صدق النبوة قلب العصا حية ، لأن دعوة النبوة إذا نظر إليهـا بـالأسلوب العلمي فينبغي أن يكـون برهـانها في الموضوع نفسـه الـذي جاء بـه النبي . فما جاء بـه النبي نـوع من العلم والعمل يسعد الناس في الدنيا والآخرة إذا سلكوا طريقـه . فـالبرهـان على صدق ما جاء به تُشاهد نتائجـه عنـد التطبيق في واقع المجتمع وليس في أن يقلب العصا حية .

والمهندس دليل علمه أن يخطط وينفذ عملاً هندسيـاً كبنـاء جسر أو نفق أو سـد أو صـاروخ ... وليس أن يفعـل شيئـاً خـارقـاً يصـدق دعـواه .. فمثـل هـذا التحـول في تحـديـد نـوع الآيـة انتقـال إلى النظر العلمي .

كان المعاصرون للنَّبي محمد ﷺ يطالبونـه بـآيـات مثل مـا أرسل الأولون ، والرسول والتوجيه القرآني يردهم بأساليب متعـددة إلى النظر العلمي : فعن ابن عباس قـال : أتت قريش اليهود فقـالوا : بِمَ جـاءكم موسى من الآيـات ؟ قـالوا : عصـاه ويـده بيضـاء للنـاظرين ، وأتـوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى . فأتوا النَّبي ﷺ فقالوا : ادع لنا ربـك يجعل لنـا الصفـا

ذهباً فدعا ربه فنزلت الآية : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً .. ﴾ [آل عمران ١٩٠/٣-١٩١] ، فليتفكروا فيها .

ويقول ﷺ أيضاً : « ما بهذا بعثت ، وإنما بهذا الدين . فإن أخذتم به فهذا حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن أبيتم أصبر » . (انظر تفسير ابن كثير للآيات) : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبوعاً ﴾ [الإسراء ٩٠/١٧] . إنه موقف علمي صارم بعيد النظر ثابت ثبات السنة ، لحمل الناس على النظر التاريخي في سلوك المجتمعات . وإن كان هذا الأسلوب ليس سريع النتائج في حمل الناس على الإيمان ، إلا أنه على المدى البعيد هو الذي سيجعل الرسول ﷺ أكثر الأنبياء تبعاً .

والمسلمون ـ إلى الآن ـ إلا من رحم ربك يعيشون عصر ما قبل العلم وما قبل الإسلام ، فهم وإن لم يطالبوا بمعجزات كمعجزات الأنبياء السابقين إلا أنهم في احتفالاتهم بمناسبات تتعلق بحياة الرسول ﷺ يلحون في الحديث عن معجزات مماثلة ، ويرددونها كإكثار الطعام

والماء ونطق الحجر .. ويغفلون عن العصر العلمي الآفاقي النفسي الذي أطلعه القرآن على العالم .

« يروي مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة عن أنس قال : قال أبو بكر - رضي الله عنه - بعد وفاة رسول الله ﷺ - لعمر بن الخطاب : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها فلما انتهينا إليها بكت ، فقالا لها ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ، فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها » .

إن هذا الحديث كبير ، وفيه توجيه وجيه لمعنى عميق ، ومع ذلك يمكن أن يرى الناظر : وإن كان باب السماء أُغلق من جانب ، إلا أن باباً آخر قد فتحه القرآن ليكون الرسول ﷺ أكثر تابعاً ، وهذا الباب هو باب الآفاق والأنفس ، إنه باب سنعرف منه صدق القرآن على مرّ الزمن ، وبه نصحح أفهامنا للقرآن ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصّلت ٤١/٥٣] .

إننا معشر المسلمين لم ندخل بعد هذا العصر الذي أشار إليه

إقبال ، ولم نقم بالنقلة العلمية بعد ، ولم نرتفع إلى مستوى القرآن وآياته ليكون الرسول ﷺ أكثر تابعاً . ولقد كان ابن تيمية ـ كما نقلت عنه في كتابي العمل ـ يبين أن لله آيات أفقية وآيات نفسية . وهذا ما عبر عنه إقبال بأسلوب آخر في كتابه (تجديد التفكير الديني) حين ذكر معنى ختم النبوة ، وبيّن أن القرآن الكريم الخاتم للكتب السماوية له خاصية التجدد ؛ فكل عصر يرى فيه آيته المناسبة . ونحن على مشارف عصر آيات الآفاق والأنفس ، علمه من عَلِمَهُ وجهله من جهله ، استقبله بتلهف وشوق من استقبله ، وأعرض عنه بحذر وخوف من أعرض عنه . ودخول عصر آيات الآفاق والأنفس لستم ببالغيه إلا بشق الأنفس . إن من لا يعيش أحداث العالم وعلمه ولا يحدق في ملكوت الله في الآفاق والأنفس ، لا يمكن أن يشرق له مثل صبح هذا العالم الجديد الذي أطلعه القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ [النساء ١٧٥/٤] .

وطوبى لممسك عنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها ، وطوبى لمن كرّس نفسه ليجعل تذوق آيات الآفاق والأنفس مساغاً ورحمة . فهل لك أن تضع لنفسك أيها الناشئ مثل هذا الهدف ، وتظل مستنفراً

ممسكاً بعنان فرسك كلما سمعت هيعة طرت إليها وجئت بالخبر اليقين لتنشر الأمن والطمأنينة . هذا أملي في الجيل المسلم الذي أرى نفسي في مرآته وأشعر بالغنى من حصاده :

زان بستانيَ عشب ما ظهر   وجنيت الورد في جوف الشجر

من أمثلة الأسلوب العلمي المتطور الأسلوبُ الذي يعرض به القرآن آيةَ البعث : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس ٣٦/٧٨] ، قوله : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ إنها الآية الأفقية ، إنها الكلمة الصارمة ، الكلمة القاطعة ، الكلمة التي تحتوي المعادلة الدقيقة الموجزة في حرفين : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ، وأحياناً يوجزها في كلمات أكثر ، ومع الاحتفاظ بالإيجاز : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق ٥٠/١٥] ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة ٥٦/٦٢] .

من شأن الناس قديماً وحديثاً أن يتساءلوا عن البعث ﴿ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا . قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ! فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة ٢/٢٥٩] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ

إِلَيْـكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُـزْءاً ﴾ [البقرة ٢/٢٦٠] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَـهُ ، قَـالَ : مَنْ يُحْيِي العِظَـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُـلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ [يس ٣٦/٧٧-٧٩] .

ففي قصة الذي مرَّ على قرية أراه الآية من نفسه بإجراء التجربة عليه ، وفي قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراه الآية في مثل خارج عن نفسه وفي قصة أبي بن خلف ، ردَّ الناس إلى تذكر العلم والسنة وعدم نسيانها . والسنة كما قال ابن تيمية : أن يفعل في الثاني ما فُعل في الأول . والقرآن يرد إلى الأول ليستنبط الإنسان أن ما فُعِلَ في الأول يُفعل في الثاني ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ... أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم ١٩/٦٦-٦٧] .

الفصل الثاني

العِلم

العلم

ليس للعلم تعريف دقيق في مجتمعاتنا ، لهذا لا بد من إعادة القول وتفصيل جوانبه ليتحدد لنا معنى العلم فيزول الالتباس الذي يؤدي إلى فقدان ثمرات العلم . وإذا كان التوحيد علماً فإن العلم توحيد أيضاً لا يقبل الشرك ، بمعنى أنه لا يقبل أن يشتبه بالباطل ، لهذا لا بد من تحرير العلم وتصفيته من الأباطيل والخرافات ، حتى ينعم الإنسان بثمرات العلم الصافي الخالص . وكما أن الدين الخالص لله لا بد أن يتحصن من البدع ، كذلك العلم لا بد أن يتحصن من المغالطات في نسبة النتائج إلى غير أسبابها . يقول ويلز في مقدمة كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) :

« والمؤرخون في عصرنا هذا أناس ذوو علم واسع يخشون الهفوات الصغيرة أكثر مما يخشون عدم التماسك بين المقدمات والنتائج ، وهم دائماً في فَرَق - خوف ورعب - مما يصيبهم من سخرية مؤكدة إن أخطؤوا في أحد التواريخ ، أكثر مما يخافون إسناد قيمة خاطئة لعمل لا يستحقها .. ولذا .. يجب في هذا العصر الذي يمتاز بالسرعة والإقدام أن تقوم بالعلم طبقة كاملة من العلماء المتفانين في العلم يكون واجبها الاحتفاظ بمعيار محتم من المعايير المحكمة الضبط »[1] .

(١) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٤ ، ٥

ماهذا الذي نسميه علماً ؟

لا بد قبل الخوض في هذا الموضوع من تسليط بعض الأضواء على أسس معينة :

الأساس الأول ـ لا علاقة بين السبب والنتيجة عقلاً :

وللتسليم بمحتوى هذه الجملة ، لا بد من معرفة كلٍّ من السبب والنتيجة والعقل ، وسوف نجعل لكل منها طرفاً من الحديث في هذا الكتاب . والذي نقصده هنا من القول (لا علاقة بين السبب والنتيجة عقلاً) : هو أن العقل لا قدرة له على ربط الأسباب.بالنتائج أو العكس قبل أن يشاهد هذا الارتباط في الواقع الخارجي . فمثلاً لا ارتباط بين أي دواء وأثره أو نتيجته عقلاً ، وإلا كان العقل يمكن أن يفهم هذا السبب قبل أن يشاهد النتيجة ولكن هذا لا يحدث وإنما فقط يدرك الإنسان العلاقة بين السبب والنتيجة برؤية الارتباط بينهما سلباً وإيجاباً . توجد النتيجة إذا وجد السبب وتفقد إذا فقد . كذلك لا علاقة بين صفة الماء وصفتي الهيدروجين والأوكسجين اللذين ينتج عنهما الماء بنسب وشروط معينة ، وكذلك لا علاقة بين صفة الملح

وصفة كل من الكلور والصوديوم اللذين ينتج عنهما . فالعلاقة لا تظهر لنا إلا بالمشاهدة الدائمة المتكررة . وقولنا : إن الملح نتيجة لتركيب عنصرين معينين بشكل معين يعني أنه قانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، فهذا نقول عنه إنه علم ؟ فكلما وجد السبب وجدت النتيجة . وهذا المثال يعطي صورة للعلم إلى حدٍّ ما . فالأسباب المعينة تؤدي إلى نتائج معينة ، وإذا تحققنا عن طريق الملاحظة والتجربة من ارتباط الأسباب بالنتائج بدقة ، حصل العلم وارتبط في العقل السبب بالنتيجة ، إذ قبل رؤية السبب والنتيجة لا قدرة للعقل على تحديد ارتباط الأسباب بالنتائج . وقد يشاهد الإنسان النتائج ولا يرى أسبابها مثل الأوبئة التي كان الإنسان يشاهد نتائجها المروعة ، ولم تعرف الأسباب إلا بعد أن يأتي من يقول هنا هو السبب ويبين بالمشاهدة والتجربة ، ارتباط هذه النتيجة بسبب معين ، فيرتبط هذا السبب بالنتيجة فيكون علماً .

ولو كان العقل يمكن أن يربط الأسباب بالنتائج لفهم الناس أسباب الوباء قبل أن يشاهدوها في الواقع ، ولكن العقل الذي يؤمن أن للأحداث أسباباً يبدأ في البحث عن الأسباب حسب خبرته في قضايا أخرى شاهد أسبابها من قبل ، ويظل يبحث حتى إذا اهتدى إلى السبب الجامع المانع يقول : الآن عقلت ، أي ربطت النتيجة

بالسبب فصار بينهما ارتباط بالمشاهدة المحددة . وإن كان العقل ـ حسب تعوده ـ في مظاهر الكون يفرض أسباباً للأحداث ، إلا أن تحديد الأسباب وربطها بنتائجها لا يأتي إلا بالمشاهدة والتجربة ، سواء في ذلك الأمور المادية ـ مثل المركبات الكيماوية والمواد العضوية ـ أو الأمور الاجتماعية ـ كظهور المشكلات في المجتمع الذي يفقد العدل مثلاً ـ فيمكن تحديد الأسباب لمشكلات المجتمع ، مثل تحديد الأسباب لمشكلات العضو الحي . وفي الجانبين لا يحدد الأسباب إلا من ينظر ويرى .

إن رؤية الأسباب في مظاهر الكون الطبيعية أسهل من رؤيتها في مظاهر المجتمع حسب الترتيب الذي ورد في القرآن الكريم ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فُصّلت ٤١/٥٣] .. فرؤية الأسباب في الآفاق أيسر من رؤيتها في الأنفس ، فإذا كان هناك علم فلك وكيمياء ، فهناك علم مجتمع ونفس وأخلاق ، وكون علم ما قليلاً في جانب ما ليس معناه أن نتائج هذا الموضوع ليست مرتبطة بأسبابه ، ولكن نحن لم ندقق في رؤية ربط الأسباب بالنتائج ، والذي يربط هنا هو الذي يبحث دائماً في الأحداث الكونية والاجتماعية ويراقبها ، فتظهر له أسباب النتائج فيربط بعضها ببعض فيصير الارتباط عقلياً ويصير الموضوع علماً .

هذه الأفكار ليست صعبة ، بل تنسجم مع الفطرة ، ولكن الذي يحدث أن سادتنا وكبراءنا إذا قالوا : إن الفلك والكيمياء علم بينما المجتمع والأخلاق ليسا بعلم ، نقلد ونقبل ولا نتشكك ، لأننا لا نتعامل مع الحقائق الخارجية وإنما نتعامل مع الكتب والأشخاص ، وهنا ما قال عنه الغزالي : « المعتقد يتشكك عند الشبهات ، أما الموقن صاحب العلم فلا يجد ذلك » . ولا بد أن يصير البحث مع الحقائق الخارجية فوق الكتب والأشخاص ، وأن تكون الكتب والأشخاص عوناً على التعامل مع الحقائق الخارجية لا عقبة دونها .

ومما يتصل بالأساس الأول : تذوق كنه العلم . وأنا أقصد من هذا الكتاب إلقاء أضواء أوضح على معنى العلم وتحديد كنهه ، فإذا عرفنا ذلك فلن يختلط علينا ما هو علم بما هو ظن أو وهم أو هوى ، وأعتبر هذا أمراً جوهرياً ، فإذا فهمنا قضية واحدة ـ مما يقال عنه إنه علم ـ فهماً صحيحاً وبدقة تامة ، فيمكننا أن نبحث في أية قضية أخرى على أساس الشروط نفسها التي جعلت هذه القضية علماً[1] . وبمجرد أن

(١) يعرض القرآن الكريم أمثلة محددة بدهية لتكون بمثابة مواطن انطلاق إلى أمور أخرى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر ١٩/٣٥] ، فكما أن الكائن الحي ـ في مثال الظل والحرور ـ يحتاج لاستمرار حياته إلى درجة معينة من

نفقد العلم ندخل إلى ميدان الظن والهوى ، والحب والهوى يُبطل السمع والبصر« حبُّك الشيء يعمي و يصم » (رواه أحمد وأبو داود) .

وإذا فهمنا العلم بالأسلوب الذي شرحناه سابقاً ، من ارتباط الأسباب بالنتائج وأنها ليست عقلاً بل مشاهدة ورؤية الواقع ، فيمكن القول : إن الإيمان بالله واليوم الآخر علم ، أي أن إيماننا بالله واليوم الآخر يقوم على أساس أسباب لها نتائج معينة ، وهذه الأسباب والنتائج المترتبة عليها لا ارتباط بينهما عقلاً كأي موضوع علمي آخر ، وإنما بالمشاهدة ؛ أي إنا شاهدت الإيمان بالله واليوم الآخر في واقع الأرض ـ في عالم الشهادة ـ يعطي نتائج إيجابية كان ذلك دليل صحة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتضطر أن تسلم بالارتباط بينهما ، فهذا الارتباط علم كعملية أي دواء بحسب نتائجه .

ولو قلت للإنسان ـ مثلاً ـ ما مقدار التفسير العلمي لإيمانك

= الحرارة ، وأنه لا يمكن أن يقول الإنسان : إن الظل والحرور سواء ، فكذلك يمكن وبالقناعة نفسها أن يصل المرء إلى أن سعادة الإنسانية لا تتم إلا بتحقق العدل وأن الظلم والعدل لا يستويان .. فهذا المثل القرآني ينفي منطلق السفسطائية وأن كل أمور الحياة مثل قبض الريح وأنه ليس هناك حق ، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا مثل هذا فجعل حكمها واحداً .. » (الفتاوى ، المجلد التاسع ، ص ٢٣٩) .

بالشخص الذي يتكلم ، لارتبك أول الأمر لشعوره بالبداهة في هذا الموضوع ، ولكن إعادة ذهنه إلى شروط علمية هذه الظاهرة في وقوع أمواج الضوء المنبعثة عن الشخص الذي أمامك على حاسة البصر وتفسير الدماغ لأمواج الضوء ، ووقوع أمواج صوت المتكلم على سمعه وتفسير الدماغ لأمواج الصوت .. هو ما يزيل ارتباكه . وكذلك لما نذوق الملح ونجد طعمه فإن الدماغ يفسر أثر الملح على حاسة الذوق ، كما يفسر الدماغ أثر الضوء .. وكذلك سائر ما نحس به ونشعر .

إن الذي نقول عنه إنه علم : هو ارتباط الحقيقة الخارجية ـ المتمثلة بأمواج صوتية وضوئية وإحساسات ذوقية ـ بتفسير الدماغ لها . ومن التسليم بهذا يمكن أن نقول : إن الكون ظلام وسكون مطبق فيزيائياً ، وليس هناك إلا الأمواج ، والدماغ هو الذي يعطي لهذه الأمواج معنى الضوء ـ اللون ـ والصوت ـ النغم ـ فالجمال الذي في الكون إنما هو من تفسير الدماغ ، والجمال الأخلاقي يمكن أن نرى نتائجه كاللون والصوت في واقع الحياة .

وليست مشاهدتنا نتائج الإيمان بالله واليوم الآخر في واقع الأرض بأقل وضوحاً من حقيقة الصوت واللون . وهذا الأسلوب يعرضه القرآن في تعميم العلم ، فيضرب مثل الإيمان بالله واليوم الآخر بالإيمان بالشخص ينطق أمامك ؛ فحقيقة هذا مثل حقيقة ذاك .

يقول الله تعالى في سورة الذاريات بعد عرض مشاهد الآفاق من الرياح والسحب والفلك واختلاف الآراء في الدين : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَاأَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٥١/٢٠-٢٣] ، فبعد الحديث عن مظاهر الطبيعة الآفاقية من الرياح والسحاب والفلك ، ومظاهر الطبيعة النفسية من الاختلاف في الآراء والإيمان والكفر والصدق والكذب ويوم الدين .. بعد كل هذا يبين تعالى أن الحق الموجود في رؤية الأشخاص وسماع الأصوات .. موجود في الأفكار النفسية ، من الإيمان والكفر ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَاأَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وإذا كان تركيب معين للعناصر يؤدي إلى الحياة كالماء والأغذية ، وتركيب آخر يؤدي إلى الوفاة كأكسيد النحاس وبقية السموم .. فإن الإيمان بقيم معينة يؤدي إلى الحياة الكريمة وتزكية النفس والحياة الاجتماعية ، والإيمان بقيم أخرى يؤدي إلى الخراب وتدسية النفس وفساد المجتمع . وهكذا يصبح الإيمان علماً عندما تكون طريقة إيماننا بالقيم السماوية كإيماننا بأي شيء محسوس ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَاأَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٥١/٢٣] . والقرآن الكريم يلح دائماً على التأمل في الكون لتكون أدلة الإيمان بالله من عالم الشهادة .

وإن العالم يؤكد نظام القانون وثباته - أي عدم تغييره مع الزمان والمكان - نتيجة مشاهدة استمرار السنن وثباتها . والمؤمن حين يؤمن بالله يضفي على النظام والسنن معنى أعمق وأقدس لأنه ينفي عن ربّه أي تحديد أو تصور معين ، فهو ملك قدوس سلام مهيمن .. والإيمان بأن الله ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد - كما يأمر به الإسلام - يضع الإيمان في مكانة ترتفع إلى الكمال في التنزيه حين ينفي عنه التصور . وهذا يجعل الإيمان بالله تعالى بعيداً عن المحاكمة والمماحكة كما حدث في علم الكلام لأن ما هو فوق التصور لا يكون فيه جدال ، وإنما الجدال في السلوك الإنساني الموافق للمثل الأعلى أو البعد عنه ، فمن هنا لا تؤدي الشبهات العارضة إلى الكفر وإنما هو « محض إيمان » كما جاء في صحيح مسلم جواباً لمن تساءل عن خلق الله ؟ ولكن السلوك هو الكافر « من ترك الصلاة فقد كفر » . والمسلمون عكسوا القضية ، فعظموا التشكك في الاعتقاد ، وتهاونوا في التقصير بالأعمال ، وقال إقبال : « التوحيد ليس ضد الكثرة فقط ، وإنما هو ضد الشرك » . لهذا فالإيمان ليس مجرد إيمان بالله ، وإنما توحيد الله في العبادة والعمل وفق سننه ، وفي عيش الإنسان مع الناس في الحياة بالإيثار حيث تجد الله عند المريض الذي تعوده والجائع الذي تطعمه كما ورد في الحديث القدسي (رواه مسلم في كتاب البرّ) .

والإيمان ليس مجرد إيمان وإنما هو توحيد ، أي جعل الإنسان مرتبطاً بالحقائق الخارجية وتحريره من عالم الأشخاص والصور الذهنية .

إن العلماء يشكون من أن العلم كملكة في البشر وكمعرفة لكنهه وتعميه محدود الانتشار بين الناس ، كما أن ظهوره بين البشر تاريخياً محدود أيضاً وحديث النشأة . إن التوحيد في مبدئه ومنتهاه إنما هو إيقاظ ملكة العلم ، والخروج من الوقوف عند الأصنام والأوثان وعبادة التقليد ، وتوحيد الله يأمر بالنظر إلى الوقائع الخارجية للاتصال بالحقائق الخارجية وإعطاء معنى أقدس لظاهرة الكون كعملية إبداع .

وعندما يتذوق الإنسان كنه الأمور يصبح العلم في نهاية الأمر هو الإيمان والإيمان هو العلم ، والشرك هو الجهل والجهل هو الشرك ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ ٦/٣٤] ، وكما أن العلم والإيمان فريضتان ، فإن الجهل والشرك ذنبان لا يغفران ، عقابهما حتمي .

وإن المؤمن والعالم ليتقززان من مشاهد التزلف إلى الأشخاص

وعبادتهم ، سواء في مظاهرها الدينية أو السياسية ، وإن كان في هؤلاء المتزلفين من يعتبر من العلماء والمؤمنين عند من لم يتذوق حلاوة العلم والتوحيد . وقد يقع البشر في الرجس الوثني الذي أمر الدين باجتنابه ، ويتنزه العلم ومتذوقو العلم من اقترافه . وإذا كان المتزلفون يظنون أنهم معذورون لحماية القربى ولطلب الرزق ، فإن الله نهى عن الوقوع في مثل هذا الشرك الإيماني والجهل العلمي ، يقول الله تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت ١٧/٢٩] ، والعلم يرى رزقاً حسناً من سعي حسن ، يمكن أن يحصله الإنسان في مجتمع يبنيه على أساس العلم والتوحيد ، وليس رزقاً مغتصباً من دماء المضطهَدين الجاهلين . والذين أوتوا العلم والإيمان يرون العفة ويربؤون بأنفسهم عن الشرك ، فيخرجون عن عبادة العباد ، ويبقون مع الناس ولكن لا يشاركون الناس في وثنيتهم . وهنا تلتقي صفات العلم مع صفات التوحيد ـ كما وردت في القرآن الكريم ـ حيث يؤديان إلى موقف واحد تجاه الأحداث الاجتماعية ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [سبأ ٦/٣٤] .

إذا أدركنا معنى ربط الأسباب بالنتائج وأنها ليست عقلية وإنما مشاهدية ، نستطيع أن نربط الإيمان بالنتائج فإذا شاهدنا الإيمان ونتائجه نكون حصلنا شروط العلم بكل محتوياته في موضوع الإيمان

أيضاً ، وهذا الأسلوب هو الأسلوب الذي يعرض به القرآن الإيمان على أنه علم ، وإن العلماء يدركون هذا حيث يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٣/٢٩] .

إن وظيفة العقل ، هي ملاحظة ارتباط الأسباب بالنتائج ، وأنها ليست عقلية إنما مشاهدية وتسليمية اضطرارية ، لا دخل للعقل فيها إلا التسليم والإقرار ، وإن عدم التسليم بها بعد المشاهدة نفي للعقل . ولقد فكرت في هذا الموضوع مدة طويلة ، وبما أني لم أجد فيما قرأته هذا الأسلوب في التحليل ، عرضت هذه الفكرة على الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - لما زار دمشق في المرة الأخيرة ١٩٧٢ م - فقال : « إن هذا ثورة في التفكير » . وقد يكون كذلك إذا أدى هذا الفكر إلى مثل قوله تعالى[١] : ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران ١٩٠/٣-١٩١] .

---

(١) انظر السيوطي في أسباب نزول هذه الآية في كتاب أسباب النزول .

العلم هو المعجزة :

وحين يصبح الدين علماً مثلما صارت الكيمياء علماً ، فإن الناس سوف يكفون عن التنازع ، لأن العلم يقطع الجدل ، وسيكون الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٧/١٣] .

وكما بسط العلم سلطانه على الفلك ، والكيمياء ، والطب ، فسيبسط سلطانه أيضاً على الدين ، ويكون ذلك في صالح الدين الحق ، وستنتهي نظريات الناس الفاسدة عن الدين ، كما انتهت نظريات البشر قديماً عن الفلك والكيمياء ، وستبقى حقائق الدين كما بقيت حقائق الفلك والكيمياء وسننها الثابتة ، وصدق الله : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ ٦/٣٤] .

والعلم لا جنسية له ، فكل شيء إذا صار علماً فقد أخذ طريقه إلى العالمية . إن الإنسان لا يرفض استعمال الدواء الذي كشفه عدو ، ولا يحمل الحقد والكراهية للدواء الذي صار علماً ، وكذلك ستصير القيم التي تدخل بوتقة العلم قيماً عالمية ، وإن أصحاب القيم الذين يخافون من أن يثبت العلم فساد قيمهم هم (معتمدون حسب تعبير

الغزالي) ، ويمكن أن نقول عنهم : (أيـديولوجيـون حسب المصطلـح العصري) .

إن الآبـائيـة تبرز أسماء جـديـدة تشـوش على النـاس المفـاهيم ، فالصراع الأيديولوجي والاعتقادي ، والمنازعـات الـدينيـة المبنيـة على الآبائية وعلى عالم الأشخاص ، كلهـا تقع خـارج العلم ، مهما كانت أسماء الآبـاء والأشخـاص الـذين حلّوا محل العلم . وإن كثيراً من المؤسسـات الاجتماعيـة على مرّ التـاريخ ، تتحـول إلى عقـائـديـة وأيـديـولـوجيـة (آبـائيـة) ؛ أي عـالم أشخـاص يحـل محـل عـالم الأفكار والقـوانين . فالديمقراطية ومؤسساتها في الغرب ، كالبرلمانات ، فقدت روحها ، فهي كما يقول ويلز : « تأتي الديمقراطيـة إلى السلطـة برجـال لا يتميزون عن أي غاز يتسلط على البلاد أو وريث للحكم » ، ومع ذلك فلها قـدسيـة الايديولوجية .

إن العلم طريق التوحيد للعالم ، كما هو طريق توحيد الله ، بينما طريـق عـالم الأشخـاص ، طريـق للشرك ولتمـزيـق العـالم وتفتيت المجتمعات أيضاً ؛ فـالنزاعـات والعصبيـات التي تمزق المجتمعـات دليل على بعد الحقيقـة العلميـة عن تلك المجتمعـات ، وحلول الأوهـام والخرافـات والآباء والأشخاص والسلف والأحزاب والبرلمانات وسواها محل الحقيقـة

العلمية . ومن هنا أخذ العلم وظيفة الإعجاز ، وظيفة توحيد الناس وتوحيد الله ومحو الأوهام .

الأساس الثاني ـ العقل ليس آلة وإنما وظيفة :

يروى أن أحد أباطرة الصين لما ولي الحكم استشار فيلسوف زمانه فيما يجب أن يعمل فقال له الفيلسوف : « أول عمل ينبغي أن تقوم به هو تصحيح الأسماء » . أي تحديد محتوى الأسماء حتى لا تخلو من معانيها ولا تفقد الكلمات سلطانها ـ أي مضامينها السننية ـ ولا تتحول الحياة إلى وثنية ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَاأَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم ٥٣/٢٣] .

وكلمة العقل من هذه الكلمات أو الأسماء التي تحتاج إلى تصحيح وتحديد لأنها تستخدم كثيراً في بحوث الفكر والعلم ، ولأن للاتجاه العقلاني مكانة في العالم المعاصر .

إن العقل وظيفة وليس آلة أو أداة ، إذ لم ترد اللفظة في القرآن الكريم إلا للدلالة على عمل وفعل ، فلم ينعت الكافرين بأنهم لا عقل لهم ، بل قال : ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أوْ نَعْقِلُ ﴾ [الملك ٦٧/١٠] .

إن العقل كالكتابة والقراءة أو كأية وظيفة أخرى يكتسبها الإنسان بالمهارة والتعلم . وحين نقول : (الكتابة) ، لا يخطر في بالنا أنها آلة في الإنسان ، بل ينصرف الفكر تماماً إلى أنها وظيفة قد يحصلها الإنسان أو لا يحصلها ، فلا نقول عن زيد من الناس : ليست عنده كتابة . بل نقول : إنه لا يكتب ، وكذلك العقل لم يرد في القرآن الكريم إلا على أنه وظيفة وفعل ، وإنما يطلق القرآن لفظ القلب ، أو الفؤاد ، أو اللب ، أو النُّهى على الأداة أو الآلة ، التي تقوم بوظيفة العقل أو الربط ، وإيجاد العلاقة بين الأسباب والنتائج . وإذا فقد الإنسان وظيفة ربط الأسباب بالنتائج فقَدَ الوظيفة الأساسية للإنسان .

يقول ابن تيمية : « فإن العقل في لغة المسلمين عرض من الأعراض قائم بغيره وهو غريزة أو علم أو عمل بالعلم . ليس العقل في لغتهم جوهراً قائماً بنفسه .. أما المتفلسفة ففي اصطلاحهم أنه جوهر قائم بنفسه وليس هذا المعنى هو معنى العقل في لغة المسلمين .. » (الجزء الثامن عشر من الفتاوى ، ص ٣٣٨) .

وفهم العقل على أنه وظيفة مثل الكتابة والسباحة وسائر المهارات الأخرى ، يؤدي بنا إلى أن نرتب نظاماً لاكتساب هذه الوظيفة بأقل الجهود والأزمنة وعلى أحسن الدرجات .

فكما أننا في تطويرنا لأساليب تعليم اللغات ـ وهي لون من اكتساب المهارة ـ ننظر إلى ما تقدمه من جهد ومال ووقت ، ومدى تناسبها مع ما تحصل عليه من نتائج ، كذلك يجب أن نفعل في أسلوب تطويرنا لاكتساب العقل والعلم . وإن مما يؤسف له أن مناهجنا اليوم تقدم نتفاً من مسائل العلم لا يكتسب المتعلم بها روح العلم .. ومن خلال هذه المناهج يقدم الدين على أنه معارض للعلم .

وقد تذوق بعض علماء المسلمين كنه العلم وأدرك أن حقيقته ليست مجرد مسائل كثيرة تُحفظ ، فالإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ في قوله : « ليس العلم كثرة حفظ المسائل ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلب المرء » . يستشرف آفاق العلم وإن لم يكن يفصل في منهج دقيق طُرُقَ تحصيل هذا النور الذي ظهر له . والذين يدرسون الإبداع وعوامله ، يسعون إلى جعله علماً مسخراً لصالح المجتمع ، ومن هنا نستشرف كيف يمكن أن نعطي الإنسان هذا النور الذي يصير به الإنسان عالماً مبدعاً ، وهكذا يكون تحصيل وظيفة (التعقل) .

الأساس الثالث ـ عدم وضع عالم الأشخاص محل السنن :

يذكر مالك بن نبي في كتابه (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) أن الطفل يمر بثلاث مراحل ، مرحلة الأشياء حين يكون

الطفل في حالة لا يميز فيها زجاجة الرضاعة من ثدي أمه فهو عالم الأشياء والحاجات العضوية ، ثم يدخل الطفل عالم الأشخاص حين يبدأ يميز وجه أمه عن سائر الوجوه .. كما ذكر الأستاذ مالك كيف أن الطفل يشعر بالغربة أمام باب داره ، والمعاناة التي يلاقيها الطفل في الأيام الأولى من دخوله المدرسة .

وإذا كانت الخلية تحمل في جيناتها كل قدرات وميزات الأجيال الماضية في النواحي الوراثية العضوية ، والاستعدادات في النواحي الثقافية بشكل مختزل .. فإن الطفل كذلك يختزل تاريخ البشرية في المراحل التي مرَّ بها الإنسان من العوالم الثلاثة ، عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأفكار ، كما يمرُّ الطفل في مراحله الجنينية بمراحل الخلق العضوي مختزلاً تاريخ الوجود وكيف بدأ الخلق للمدخول إلى فهم هذه العوالم ..

إن الطفل يشعر بنفسه أمام فيض من المحيط المعقد أمامه ، فهو يستعين بمحيطه وأسئلته الكثيرة التي لا تنقطع ليأخذ صورة ومفهوماً عن هذا العالم وليزيد من إدراكه لمحيطه ، وهذا يدل على أن عالم الطفل عالم حافل فياض بالتكيف والتلقي والتعلم ، وكل طفل يجدد هذه الظاهرة الفذة . إن عالم الطفل عالم معروض للدراسة والتعرف على الإنسان وكيف يصير إنساناً ؟ وكيف يأخذ و ينطبع الطفل

وليكون مصنوع المجتمع وصنع أبو يه ، فأبواه يصنعانـه ، ثم هو يشـارك في صنع المجتمع بدوره قلّت أو كثرت هذه المشاركة .

هذه الدراسة هي العلم المتعلق بالإنسان ومعرفة السنن التي تصنع الإنسان ، وشعور الطفل الملح لأخذ صورة ومفهوم عن العالم المحيط بـه يجعلـه يستعين بـالأشخـاص الـذين سبقوه وعـايشـوا هـذه الحيـاة التي يستقبلها هو فيكوّن الأسلاف والآباء عالَم الأشخاص الذين يستعين بهم في أخـذ العلم ، فيحل عـالم الأشخـاص مكان السنن ، ويحـلُّ تصـورات الآباء الذهنية محل سنن الحقائق الخـارجيـة ، وبهـذا يُحل الرجـال محل السنن سنة الله ، وهذا نوع من الوثنية الدينية ، فلا بد من تـأمل هـذا الموضوع . لهذا يكرر القرآن حجة المعارضين للأنبياء بأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، فالآباء صاروا حجة وبرهاناً ... وبهذا انتقل البرهـان من البحث في الحقائق الخارجية إلى التصورات الذهنيـة للأشخـاص .. فالشخص الذي لم يتعلم التعامل مع الحقائق الخـارجيـة يتحول بسهولـة إلى جعل الأشخاص مصدر الإلهـام للتعرف على الحقـائق الخـارجيـة .. وبما أن الإنسان بحاجة إلى العلم ، والعلم غير معروف أو غير متوفر لديه فإنه يضع الأشخاص مكان العلم ، والكتب مكان السنن ، فيضع المحراث أمام الثور كما في الأمثال .

والقرآن الكريم يعتبر هذا شركاً في العقيـدة ، ويعتبر الأشخـاص

في هـذه العمليـة أنـداداً لله حيث يصيرون مصـدر الأحكام الشرعيـة ، وهذه الأحكام خاصة بالله لا يجوز للأشخاص أن يتدخلوا فيها بأهوائهم ، لأن أحكام الله وسننه هي الحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبـدل ، ووضع الأشخاص مكان سنة الله وشرعه شرك في التوحيد .

إن هذا الفهم مهم وضروري لاستقامة الحياة واستقـامـة الـدين ، فالانحراف عن العلم يقود إلى الوقوع في الشرك ، بينما توحيد الله يؤدي إلى توحيد السنة في كل ما يجري في الكون . إن وضع الأشخـاص مكان الله ومكان السنـة إفسـاد للعلم وإفسـاد للتوحيـد ولهـذا فـإن النـاس في المجتمعـات المتخلفـة والبعيـدة عن الـذوق العلمي يقعـون في عبـادة الأشخـاص في مظـاهرهـا السيـاسيـة ومظـاهرهـا الـدينيـة . فعبـادة الأشخاص وثنية علمية ووثنية دينية . وكل الإنكار الذي يصبـه القرآن على المشركين الدينيين موجه إلى عبادة الأشخاص حتى لا يتخذ بعضنـا بعضاً أرباباً . إن التزلف والخضوع والاستعباد الذي يمارسه المجتمع الفاقد للمعرفة ، يدعو إلى القرف والتقزز عنـد أهل العلم وأهل التوحيـد . إن عالم الأوثان الذي نعيش فيه لا نجد فيه الكرامـة التي تزين أهل العلم ، ولا التوحيـد الـذي ينزه الـدين عن الأوثـان ﴿ فَـاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَـانِ وَاجْتَنِبُـوا قَـوْلَ الـزُّورِ . حُنَفَـاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِـهِ .. ﴾ [الحج ٢٢/٣٠-٣١] .

إن العلم والعلماء حين يكون لهم مكان في مجتمعنا وتمتد لهم جذور وقدم راسخة في تذوق العلم ، فستبرز نماذج من العلم والحلم والعزة والتواضع ، نماذج من الغنى والزهد تنعش الأرواح وتشفي الجروح والقروح ، وتنقذنا من الأوحال والأقذار ، أوحال الجاهلية وأقذار الوثنية ، ليتألق نجم العلم وتسطع شمس التوحيد ، فنخرج من المسخ وتعود المعاني للكلمات ، فتتحصن من التدليس والتمويه ، وبذلك نكون قد أنقذنا أنفسنا ، وزكيناها ، واكتسبنا صحة نفسية وفكرية واستقامة لغوية ، فيدب الانتعاش في سائر نواحي حياتنا ، وتكون نظراتنا معبرة وكلماتنا موحية ، فحيثما يحل العلم يحل التوحيد وتزول الثنائية والازدواجية ، فيكون لنا وجه واحد لا وجهان ، ورب واحد يكرم بني آدم ويستقيمون إليه لا أرباب وشركاء متشاكسون يزيدوننا طغياناً ورهقاً .

هذه بعض المشكلات التي تنجم من جعل عالم الأشخاص مكان سنن العلم . فيا حبذا لو كشف لي الحجاب وتيسرت لي قراءة ما سيكتب في هذا الموضوع حين يتعافى مجتمعنا من الجهل ومعابدنا من الأوثان . إن نفوسنا القاحلة من نور العلم تعجز عن إضاءة أسباب مشكلاتنا التي أزمنت وتعفنت ، وإن كلماتنا تشكو قلة رصيدها من العلم ، فتأبى أن تحمل معنى شريفاً .

إن لغة العلم شفاء للنفوس المحطمة ، للنفوس الظمأى إلى العافية .. فشهادة العالِم مقرونة بشهادة الله وملائكته ، لأن شهادة العالِم شهادة لسنة الله ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ .. ﴾ [آل عمران ١٨/٣] .

ويقول الله للذين يسهرون في جوف الليل دارسين مفكرين في ملكوت السموات والأرض وما بثَّ فيهما .. يقول لهؤلاء المتتبعين لمسيرة كيف الخلق ، للذين يقلبون أبصارهم في آياته في الآفاق والأنفس - يقول لهم كما ورد في الحديث القدسي - « من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » (متفق عليه) .

أيها الإنسان ، هناك أهداف كريمة .. هناك أشواق وأذواق .. هناك عدل وإحسان .. هناك علم وتوحيد .. ولدى ربنا مزيد .

جانبا عالم الأشخاص :

إن الأشخاص هم الذين يقدمون العلم فكيف نعتبر عالم الأشخاص عقبة أمام العلم ؟ إن الأمر يكاد يكون متناقضاً فلا بد من رؤية الجانبين بدقة لنعطي كل جانب حقه .

إن إعطاء عالم الأشخاص حقه أمر جوهري جداً ، ولكن الخطر أن نعطيهم أكثر من حقهم . إن العالم جدير بالاحترام والتقدير ،

ولكن لا بد أن يقف هذا الاحترام والتقدير عند حدٍّ ولا يتجاوزه . فالذين يقلدون عالم الأشخاص وينزهونهم ربما لا يدركون الجانب الإيجابي الذي على أساسه ينالون التقديس .

إني أعتبر الإنسان صفراً بدون الخبرات البشرية السابقة ، وربما هذا غلو في التعبير ولكنها الحقيقة إلا مع قليل جداً من الملاحظة .. ولأقرب هذا الأمر أنقل هذه الكلمات التالية من كتاب (الإنسان والحضارة والمجتمع) :

« إن مجموعة من بيوض النمل تحضن بشكل صحيح مع غياب نمل يافع عنها ، ستنتج حشداً من النمل الذي بعدما يكبر سيمثل من جديد ، وبكل التفاصيل ، كل سلوك الأجيال التي لا تحصى من النوع الذي سبقه .. فهل سيحدث الشيء نفسه إذا انفصلت مجموعة من الأطفال عن رقابة اليافعين وعنايتهم وتدريبهم ؟ إذا افترضنا أنهم سوف يستطيعون البقاء ـ ولن يستطيعوه ـ فلا يجب أن نتوقع منهم أن يظهروا أياً من ميزات السلوك الخاصة التي كانت تميز آباءهم من قبلهم ، إنهم سيكونون بلا لغة ، وبلا أدوات ، وبلا نار وبلا فنون ، وبلا دين .. » .

إن الوراثة الاجتماعية التربوية التي تتمثل في نقل الخبرات المتراكمة

عند الإنسان هي غير الوراثة الغريزية عند الحيوان ، وهذا الاختلاف هو الذي يجعل الإنسان إنساناً .

إن أي متخصص في علم ما ، يحصل في سنوات معدودة خبرات تعبت فيها الأجيال آلاف السنين ، وقد يضيف بعض المتخصصين أشياء جديدة إلى هذا الجهد المتراكم ، ومهما كانت الإضافة ضئيلة بالنسبة إلى ذلك الهيكل الضخم ، فإن نمو الخبرات يتم بهذه الطريقة . وهذا ما يميز المجتمع البشري عن مجتمعات النمل والنحل .. وإننا لو لم نعتمد على خبرات الأجيال السابقة وأردنا أن نكشف بأنفسنا كل تلك الخبرات لاحتجنا إلى عمر البشرية بل أكثر لأن هذه الخبرات خبرات عقول كثيرة . إذ لا بد من قبول هذه الخبرات ؛ ولكن قبولها ليس على أساس عالم الأشخاص وإنما على أساس عالم السنن ..

والخلاصة أن عالم الأشخاص له دور إيجابي وآخر سلبي ؛ وهو إيجابي حين ينظر إلى الأشخاص على أنهم درجة في سلم المعرفة الطويل ، وسلبي حين ينظر إليهم على أنهم نهاية السلم ، وأنه قد توقف عندهم عطاء الله لخلقه ..

وفي أيامنا هذه يدور حديث طويل حول التراث والتجديد والأصالة والمعاصرة من قبل مفكرين يشعرون بضرورة الاهتداء إلى

الموقف السليم ، ولعل ما قلناه يلقي على الموضوع شيئاً من النور وإن كان خافتاً .

دليل العلم

ما البرهان على أن فكرة ما ، علم ؟

البرهان على ذلك أمران : التنبؤ والتسخير .

أ ـ أما التنبؤ فهو : أن يُفعل في الثاني ما فُعل في الأول ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية . فإذا علمنا ماسيُفعل في الثاني على أساس معرفة الفعل الأول ، كنا على علم .. فإذا عرفت الشروط الماضية وبدأت هذه الشروط تتحقق مرة ثانية فنحن نتنبأ بأن ما سبق أن حدث سيحدث مرة ثانية . وإذا صح التنبؤ فوقع الثاني كما توقعناه على أساس ملاحظاتنا السابقة ، فذلك دليل على أن الأمر علم .

ففي عالم الفيزياء ـ مثلاً ـ نحكم على الحديد بأنه يتمدد بارتفاع درجة الحرارة وذلك بناء على رؤية سابقة للموضوع . وفي عالم المجتمع ـ وهو ما يهتم به القرآن ويكرر الحديث عنه ـ نحكم على المجتمع بأنه سيفقد الاستقرار والنمو ، وستحل به النكبات والمصائب حين ينحرف عن الصراط السوي ، وتفتقد فيه العدالة ويقتصر تطبيق القانون على

بعض النـاس فقـط ، وهـذا الحكم إنما كان بنـاء على معرفـة للتـاريـخ وأحوال المجتمعات والأمم ، وذلك ما يلح عليه القرآن الكريم حين يقص أخبار الأمم السابقة ، وأحوال الكفار ، وأحداث المجتمعات التي يذكرها أحياناً موجزة أو مفصلة . وغايـة القرآن من ذلـك أن تترسخ السنـة في نفوس المؤمنين ، وأن يفهم الناس أن الآخر سيُفعل فيه ما فُعل في الأول حين يسير في طريقه . وكل تلـك القصص والأخبـار تتلوهـا تعقيبـات تؤكـد هـذه السنـة والقـاعـدة التي صـارت علمـاً : ﴿ وَهَلْ نُجَـازِي إلاَّ الكَفُـورَ ﴾ [سبـأ ١٧/٣٤] ، ﴿ هَـلْ جَـزَاءُ الإحْسَـانِ إلاَّ الإحْسَـانُ ﴾ [الرّحمن ٦٠/٥٥] ، ﴿ أكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر ٤٣/٥٤] ، ﴿ ألَمْ نُهْلِكِ الأوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . كَـذَلِـكَ نَفْعَـلُ بِـالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسـلات ١٦/٧٧-١٨] ، ﴿ وَكَـذَلِـكَ نُنْجِي الْمُؤمِنِينَ ﴾ [الأنبيـاء ٨٨/٢١] ، ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّـةَ الأوَّلِينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر ٤٣/٣٥] .

وهذه الآيات التي تؤكد حتمية قانون الله وسنتـه ، يجب ألا يفهم منها أنها تنفي سلطـان البشر على التحكم بسير المجتمعـات . فسنّـة الله في المجتمعـات قـائمـة على مبـدأ أسـاسي في قولـه تعـالى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِـأنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١١/١٣] . وهـذا المبـدأ يجعل مصير البشر بـأيـديهم وثمرة لأعمـالهم ﴿ وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَـةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ

أيْـدِيهِمْ إذَا هُمْ يَقْنَطُـونَ ﴾ [الرُّوم ٣٠/٣٦] ، ﴿ كُـلُّ امْرِئٍ بِمَـا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطُّور ٥٢/٢١] ، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَـا مَـا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة ٢/١٣٤] .

ب ـ وأما التسخير : فيتم حين يعلم الإنسـان السنـة وأنها تتكرر ولا تتبدل فيستطيع أن يتدخل فيها ويوجهها إلى حيث تفيده . وكلما كان التسخير عاماً وتاماً كان العلم في هـذا الموضوع عـامـاً وتـامـاً .. إن برهان العلم التنبؤ والتسخير ..

ولا نقصد بالتنبؤ النظرية المجردة ؛ فالنظرية أو الفرضيـة : هي وضع احتمال يتبادر إلى الذهن أنه سبب الظـاهرة التي نـدرسهـا ، فـإذا تحقق ذلك الاحتمال في الواقع صـارت الفرضيـة علمـاً ، وهـذا هو التنبؤ الذي هو دليل العلم . والموضوع درجات :

فرضيـة ثم ثبوت الفرضيـة في الواقـع وتحـولهـا إلى علم ، ثم بسـط السيطرة على العلم لجعله في خدمة الإنسان وصالحه .

إن التنبؤ قبل التسخير ؛ فـالمتنبئ الجـوي يتنبـأ بقرب المتغيرات الجوية من رياح وأمطار وما ينتج عنهما . إن هـذا التنبؤ الـذي تثبت الأحداث صدقـه ، يسـاعـد الإنسـان على أن يتهيـأ لاستغلال منـافعـه وتجنب مضـاره . وآبـاؤنـا كانت لهم وسـائل للتنبؤ عن الجو من سلـوك

الحيوانات وشكل الغيوم إلى آخره ، وإن لم يكن في تنبؤاتهم دقة إلا أنهم كانوا يتلمسون السنة . فمثلاً كانوا يقولون : إذا جاء الشتاء قارساً يكون الصيف حاراً ، إلا أن عدم التلازم في كل السنوات كان يفقد التنبؤات دقتها . واليوم حين يتنبؤون عن الجو قبل يوم أو يومين بالنظر إلى صور الأقمار واتجاه المنخفضات الجوية ومرتفعاتها وسرعاتها ، يجد الإنسان القرب إلى الدقة ، ويطمع أن يتنبأ بأحداث الجو مدة أسبوع أو أسبوعين ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٨/١٦] . فنحن لا قدرة لنا على صنع التقلبات الجوية ولكننا نحاول الاستفادة منها وتوقي مضارها ، ولكن قد يتحول هذا التنبؤ إلى تسخير كتسخير الأرض في الزراعة والصناعة وكذلك النبات والحيوان والمعادن .

جـ ـ العاقبة كبرهان للعلم المتعلق بسلوك الإنسان :

كما أن التنبؤ الذي يصدقه الواقع الآتي يكون دليلاً للعلم ، وكما أن التسخير دليل للعلم ، فإن العاقبة دليل للعلم .

التنبؤ والتسخير دليلان على العلم في عالم الطبيعة ، في الفلك والفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان ، وليس معنى هذا أن التنبؤ والتسخير لا يدخلان في الحكم على المجتمع وقيمه وأخلاقه ، فالتنبؤ والتسخير يدخلان كبرهانين أيضاً في الحكم على المجتمع وقيمه وأخلاقه ،

ولكن العاقبة كبرهان للعلم خاصة بالمجتمع والقيم والأخلاق . فالتنبؤ والتسخير وردا في القرآن الكريم عن الآفاق . فمثلاً يقول الله تعالى عن الشمس والقمر والليل والنهار : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء ١٢/١٧] . فإن معرفة عدد السنين والحساب يدخل في علم الفلك ، فمقادير سيرهما الثابتة فيما مضى تنبئ عن مدة ماسيأتي في سباحتهما في أفلاكهما .

وأما العاقبة فخاصةٌ بقيم الإنسان والمجتمع وأخلاقه ، لهذا لا يذكر القرآن العاقبة كبرهان للعلم إلا مع القيم والأخلاق مثل عاقبة المكذبين والمجرمين والمفسدين والظالمين كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص ٨٣/٢٨] ، ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه ١٣٢/٢٠] ، ﴿ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل ٣٦/١٦] .

هذه الأمور التي أُمِرْنا أن ننظر في عواقبها كلها أمور اجتماعية قيمية أخلاقية وليست كيميائية ولا فيزيائية ولا طبية وإنما عواقب قيم اجتماعية عامة ، وهذا يدل على أن العاقبة برهان على صحة وسلامة وعلمية وسننية القيم والأخلاق .. ولم يذكر القرآن الكريم عاقبة المال والسلاح والسفن والنبات والحيوان والحديد .. لأن سنن هذه الأمور

ليست بالعاقبة بل عاقبتها ترجع إلى الإنسان الذي يستخدمها في الخير والشر . وهذه نقطة مهمة لأن اشتباه هذه النقطة أدى بكثير من العلماء إلى اعتبار العلم محايداً أخلاقياً ، وسبب ذلك ـ كما أشرت إليه بأسلوب آخر ـ أمران : أولهما اعتبار العلم مقصوراً على الطبيعة ، واعتبار ما يتعلق بالقيم ليس علماً .. وثانيهما : عدم اعتبار العاقبة دليلاً على العلم وخاصة علم القيم ..

إن الطبيعة وسننها ليست خيرة أو شريرة بحد ذاتها ، وإنما تكتسب هذه الصفة أو تلك بحسب توجيهها بواسطة قيم الإنسان ومبادئه في الحياة . فكما قال الرسول ﷺ : « نعم المال الصالح للمرء الصالح » (مسند أحمد ١٩٧/٤) ، يمكن القول : بئس المال الحرام للرجل الظالم .. وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. ﴾ [الإسراء ٢٩/١٧] . ليس نهياً عن الشيء وضده ، فالتبذير والتقتير ليسا سنناً مالية وإنما قيماً أخلاقية .. لهذا اضطرت الدراسات الاقتصادية مؤخراً لدراسة الاقتصاد في إطار الحضارة أي إطار القيم .. لأن الاقتصاد هو : (الطبيعة + الإنسان) . وحينما يصير الشيء متصلاً بالإنسان فإنه يخضع لقيم الإنسان . فقيم الإنسان هي التي تعطي معنى الخير والشر والنافع والضار وليست الطبيعة بحدّ ذاتها .

فالقرآن الكريم يجعل القيم الأخلاقية علماً له سنن ثابتة ، ولهذا يأمرنا بالنظر إلى عاقبة الذين خلوا من قبل وعاقبة التقوى وعاقبة المكر وعاقبة الظلم ..

وإذا كان للفيزياء والكيمياء مخابر وأدوات لإثبات سننها وتسخيرها ، فإن التاريخ وسنن الذين خلوا من قبل وعاقبة الذين من قبلهم هي مختبر علم الاجتماع والعمران وعلم القيم والحضارات .. ولقد تنبه محمد إقبال على هذا فقال : « ولهذا كان من بين ما يُحكم به على قيمة دعوة النّبي ورسالته ، البحث عن نوع الرجولة التي ابتدعها ، والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته »[1] .

والتاريخ الذي هو مختبر القيم وميزان الحكم على الحضارات ، لا بد من دراسته وتمحيصه زماناً ومكاناً تاريخياً وجغرافياً .. فإن الأمر بالسير في الأرض ، والنظر إلى كيف بدأ الخلق ، والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل ، كل هذا يقتضي إحصاء لأيام الله في البشر . ولقد صار لأعمال البشر على هذه الأرض قيمة علمية لأن استخراج علم الصلاح والفساد صار منوطاً بالنظر إلى عواقب الأمور الماضية والحاضرة سواء ماسبق نزول القرآن وما عاصره أو ما جاء بعده .

(١) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني ، ص ١٤٢ ، القاهرة ١٩٥٥ م .

والقرآن فيه نماذج من الاعتبار لاستخراج السنن وقوانين علم الصلاح والفساد من التاريخ الذي سبق نزول القرآن ، وكذلك من أحوال البشر المعاصرين له . وحين لا يتيسر استخراج الأحكام من الماضي فإن القرآن يعطي الأحكام بإحالة المخاطبين إلى المستقبل لأن سنن الله ستبرز وتظهر . فإن لم يظهر برهان صدق هذا الحكم الآن فانتظروا لأن الزمن سيُظهر صدق ذلك ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرّعد ١٣/٤٠] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرّعد ١٣/٤٠-٤٢] .

إن الاحتكام إلى التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً لفرز القيم الصالحة من الطالحة منهج قرآني وعلم قرآني ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص ٣٨/٨٨] ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلت ٤١/٥٣] . وكذلك في الإنجيل مثل هذا ، ففي الإصحاح السابع من إنجيل متى : (احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم) ، وفي هذا المعنى أيضاً ورد في إنجيل متى - إصحاح ٢١ فقرة ٤٣ : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) .

وإذا كان القرآن الكريم يأمرنا أن نكون شهداء على الناس بالقسط وعلى أنفسنا ، فإن الشهادة تقتضي الحضور . ومن صور الحضور قيام العلماء والمؤرخين بالسير في الأرض والنظر والدراسة .. لأن المتعمق بالدراسة وتمحيص التاريخ يرتفع إلى درجة الحاضر المشاهد ، بل يفوق المشاهد في بعض الأمور التي يستحضرها الدارس ولم تكن في متناول المشاهد .

د ـ العلم ما هو خير وأبقى :

ونضيف إلى ما سبق من براهين العلم برهان « ما هو خير وأبقى » .

فكل موضوع احتوى على الخير والأبقى هو علم بالقدر الذي فيه من الخير والأبقى .

ولتوضيح مثل هذه الأمور لا بد من متابعتها إلى جذورها لنخرج بها من التصور العائم إلى الفهم الراسي بجذوره في الإدراك .

ما الخير ؟ حتى ننطلق إلى تعريف العلم . ولتعريف العلم ينبغي أن نبدأ من أوليات بيّنة واضحة ، كالأوليات التي تظهر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلاَالظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾ [فاطر ٣٥/٢١] . حيث يتم التأكيد على تحديد

منطلق العلم والحق والخير من بدهيات ثابتة ـ العين ـ فآلة البصر خير من عدمها وآلة البصر إنما اعتمادها على الإحساس بالنور . وبقاء البصر فعالاً لا يتم إلا في درجة معينة من الحرارة وإلا عطبت الآلة . فالإنسان لاتكون فعاليته إلا في درجة حرارة مناسبة . هكذا كل أمور الكون في توازن معين ، إن زادت أو نقصت اختل الخير واختل النفع . فإذا أنكر أحد أن البصير خير من الأعمى فهو جدير بالإعراض عنه لأنه يكون فَقَدَ التوازن . ويعرض للناس مثل هذا الخلل في التوازن ، ولولا رغبة التوازن لما بدأت الحياة ولما استمرت ولما نمت . فلا بد للانطلاق من قاعدة للإقلاع في كل أمور الحياة ، فالحق الموجود في الكون على أساسه يتم النمو والزيادة في الكفايات . فتاريخ بدء الخلق ينطق بهذا بلسان الكون الفصيح وبسنته الثابتة الغالبة ويتخطى العقبات .

وهذه المواضيع في حاجة إلى الإبانة والتوضيح ، والرجوع إليها والحرص على بقاء الاتصال بها حتى يظل البدء والمصير غير مقطوع الأسباب التي تصل ما بينها . وربما من أكبر العقبات أمام العلم والتسخير وتهيئة الإنسان لأداء وظيفته انقطاع التسلسل بين بدء الخلق وما وصل إليه الخلق في النماء . وحين يحصل الانقطاع يحاول الجهل أن يبني قصوراً وجسوراً من الأوهام والظنون ، فلهذا من الضروري أن

تظل الطريق موصولة بين بدء العلم وبين نهاية العلم . ونحن نعلم أن انقطاع تسلسل العلم يحول دون فهم القسم الأخير منه ؛ فلا يكون مبنياً على أساس مهما كانت الصورة اللفظية محفوظة ، وربما يمكن فهم عدم استفادة الأمم المتخلفة من التقدم العلمي ، لأن قسماً من طريق العلم مفقود عندهم ، وأن التسلسل غير حاصل لديهم . فمن هنا كان الرجوع إلى أول العلم أي كيف بدأ ثم كيف استمر في النمو ، أساسياً وضرورياً للاستفادة من العلم . ولهذا نرى اهتمام القرآن بالنظر إلى الخلق ، وتتبع البدء ليكون البدء من أمور أولية واضحة ، ثم لا ينتقل منها إلى مكان آخر إلا بطريق معبدة لمتابعة نموه . إن هذا الفهم للعلم ذو أهمية بالغة احرص عليه ولا تتهاون ، لأن أي تهاون في ذلك يجعل الثمن باهظاً . فمن المفيد أن نبدأ من نقطة أولية بدهية ننطلق منها ، ألا وهي الخير أو النافع ، أو الأكفأ هذه هي النقطة الأساسية سواء استطعت أن أصل إلى بيان واضح فيها أم لم أصل . وعلى كل الباحثين أن يتباروا في توضيح هذه النقطة : نقطة البداية حتى لا يكون للشيطان سلطان ، لأن سلطان الشيطان يبدأ دائماً عندما يجهل الإنسان طريق الخير ، أو يشتبه عليه . وقديماً قال الناس : (البيان يطرد الشيطان) ، (والبيان في الحقل يمنع التنازع في البيدر) ، هذه حكم شعبية ، ولكن وراءها تجارب عريقة . ونتائج مثل هذه

التجارب التي دفع الناس ثمنها تشيع بين الناس ويتناقلونها كحكم مقدسة ، ولكن أحياناً كثيرة تدخل هذه الحكم في الظلمات ظلمات الجهل والأهواء فتصبح فائدتها قليلة مما يضطر الناس إلى شرائها مرة أخرى ودفع ثمنها مراراً ، بينما لواحتفظوا بوضوح بدئها وحركتها لما اقتضى منا الثمن إلا مرة واحدة ، بل ربما أمكن التنبؤ بها وإعفاء الإنسان حتى من ثمنها الأول .

إذن كل شيء أعطى نتائج أنفع فهو حق وهو خير ، وهو علم ، بمقدار ما فيه من النفع .

ولكن ليتحصن النفع من الضرر ، والعلم من الجهل ، والحق من الباطل ، لا بد من إدخال عنصر الزمن ، فالخير لا يستحق هذا الوصف ، إلا إذا صاحبه الاستمرار ، وكلما كان الاستمرار أطول ، كان الخير أعرق في الحق والعلم ، لأن صفة الدوام والاستمرار هي التي تعطي القيمة للنافع ، ولذلك أدان القرآن الذين لا ينظرون إلى العواقب على المدى الطويل والمستعجلين ﴿ إنَّ هَؤلاء يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان ٧٦/٢٧] .

كما أدان الذين لا يصبرون على تحمل بعض الصعوبات في سبيل الوصول إلى غايات تحتوي على صفتي (الخير والأبقى) .

ولابن المقفع عبارة مشرقة في بيان ارتباط الخير بالزمن ، بالأبقى ، قال :

« فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذي ، وإن هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والأكياس ، ثم اختلفوا بعدها في خصال ، من ذلك أن العاقل ينظر في ما يؤذيه وفي ما يسره ، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب - إن كان مما يحب ، وأحق بالاتقاء إن كان مما يكره - أطوله وأدومه وأبقاه »[1] .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن هذا البرهان على العلم يقصد به العلم المتعلق بالإنسان (آيات الأنفس) لا العلم المتعلق بالطبيعة (آيات الآفاق) ، وبهذا المعنى فإن القرآن يجعل العلم أخلاقاً ، إذ يجعل دليل العلم (العاقبة) ، العاقبة المحتوية على ما هو خير وأبقى ؛ لأن الأخلاق هي النافع للناس ، وأرضية الأخلاق في الواقع هي الأمور النافعة للبشر على مرّ التاريخ والمحتوية على ما هو خير وأبقى . ودراسة التاريخ ضرورية لمعرفة الخير والأبقى ، والذين لا يعرفون التاريخ يظنون أن الأخلاق فرائض اعتباطية وأثقالٌ تمنعهم من أهوائهم

(١) من مقدمة الأدب الصغير لابن المقفع .

وشهواتهم ، حقاً إن الأخلاق المتصفة بما هو خير وأبقى ليست أخلاق الأهواء والشهوات ، وإنما أخلاق المتأمل للتاريخ وعواقب الأمور على المدى الطويل .

إن الدراسات المتأنية الحديثة هي التي كشفت آيات الله في الآفاق والأنفس وأظهرت أن أخلاق الأديان ووصايا الآمرين بالقسط من الناس ، هي المؤيدة بالعلم المستنبط من عواقب سلوك البشر على مرّ التاريخ .

ويذكر ابن المقفع أيضاً (المُلك ـ السياسة ـ بأنه إما ملك دين أو ملك عقل أو ملك هوى) ، ويصف الأخير بأنه (لعب ساعة وخراب دهر) ، هذا هو النظر التاريخي العلمي الأخلاقي . وإذا فهمت هذا فاعلم أن ما يُتداول من نفي العلم عن الأخلاق والقيم والأديان إنما هو اتباع للأهواء وجهل بالواقع والتاريخ ، ولذلك وصف القرآن أقواماً بأنهم لا يعلمون وبأنهم لا يفقهون وأن على أبصارهم غشاوة .

وينبغي هنا أيضاً في صدد بحث (دليل العلم) وأنه ما (هو خير وأبقى) : إلقاء بعض الأضواء على مذهب الذرائعية (النفعية أو المصلحية) إن هذا المذهب ليس خطأ محضاً ، فالذرائعية حق إذا

اتصفت بأنها هي الخير والأبقى والأعم ، وهذه هي ذرائعية القرآن والأديان والآمرين بالقسط من الناس والعقلاء من بني آدم كما ذكر ابن المقفع ، ولكن المصلحة العاجلة التي من بعدها إثارة الأحقاد وسفك الدماء وإغراء العداوة والبغضاء هي من نتائج الذرائعية العاجلة التي لا تنظر إلى عواقب الأمور ولا تنظر نظر التاريخ ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة ٧٥/٢٠-٢١] . إن نهب أموال اليتامى والشعوب المستضعفة في العالم والتمتع على حساب جوعهم وعريهم .. يزرع الأحقاد ولا يحصد إلا الحروب المدمرة .. فهذه الذرائعية التي تحقق مصلحة طائفة من الناس على حساب آخرين ، ذرائعية قصيرة النظر وأصحابها يتبعون أهواءهم وشهواتهم ، وليست ذرائعية المصلحة الدائمة العامة النافعة المؤيدة بالعلم والتاريخ وعواقب الأمور .

وكذلك يحسن هنا أن نذكر بأن الأخلاق هي ما ثبت على مرِّ التاريخ بأنها السلوك الأنفع الذي يأتي بخير أكثر وأن عاقبته أحمد ، وهذا ما جعل الأخلاق علماً ، بل إنها العلم الأكثر نفعاً ، وإن الإنسان إن فقَدَ النظر إلى عواقب الأمور فقد يستعمل ما سُخر لخيره وخير الناس استعمالاً يجلب الضرر .

ومما يدل أيضاً على معنى أن ما هو خير وأبقى هو العلم وهو

الدين ، ما يقرره ابن تيمية من أن : « الواجب ما هو نافع دائماً وغالباً ، وإن الحرام ما هو ضار دائماً أو غالباً » . إن مثل هذه الأضواء والاستنباطات هي التي تجعل الدين والأخلاق علماً ، ونحن نلح في كل مناسبة على إظهار الجانب العلمي في الأخلاق والدين ، لأن ثقافة هذا العصر تفصل بين العلم وبين الدين والأخلاق ، وهذا الفصل مبني على إيثار الخير العاجل على الخير الباقي والمستمر ، وكذلك ينبغي أن نذكر بأن سلطان الإنسان في التسخير إن اقتصر على تسخير الطبيعة المادية ولم يسخر أيضاً السلوك الإنساني إيجابياً بضبط نفسه ونهيها عن الهوى .. فإن هذه النعم تتحول إلى نقم .

إن الاحتكام إلى العاقبة أمر هام جداً ، ولقد أشار راسل إلى قول الإنجيل : (من ثمارهم تعرفونهم) على أنه أسلوب علمي تاريخي في معرفة الحق . ولكنه مرّ به ولم يتوقف عنده ليجعله منطلق منهج معرفي .

وأشار الأستاذ حسين مروة في كتابه الضخم ـ النزعة المادية ـ إشارة خفيفة في بضعة أسطر إلى هذه الفكرة ـ فكرة العواقب ـ ولكنه أيضاً لم يستخدم أسلوبه المطول في البحث لكشف حقيقة هذا الموضوع في الآفاق والأنفس . ولعل ما يحمله كل من راسل وحسين مروة من مسلمات سابقة عن الدين جعلها يقفزان من فوق الفكرة حيث

لا يكشفان منهجاً علمياً أصيلاً في الدين والتاريخ ، بل نظرا إلى هذه الفكرة وكأنها ملصقة ومدسوسة على الدين وأنها ليست منهجاً دينياً أصيلاً جاء عن قصد وتعمد وتأكيد .

والذي جرأهما على هذا الإهمال : هو إهمال أهل الكتاب لهذه الفكرة . ولكن مجرد الإشارة إلى وجود هذا المبدأ في كل من الإنجيل والقرآن له مغزاه وأهميته في المستقبل . وحَسْبُ راسل ومروة أن يشيرا - مهما كانت إشارة خفيفة - إذ غيرهما لم تخطر له الإشارة إلى ذلك . وفي نمو العلم تحدث مثل هذه التجاوزات والوقفات القصيرة ثم إعادة كشف ذلك من جديد ليكون موضع دراسة متعمقة .

إن جعل العاقبة دليلاً على العلم تترتب عليه مواقف مختلفة من كثير من القضايا ، ويلزم منه كذلك إحداث تعريفات جديدة ومفاهيم خاصة للعلم ، والعقل ، والحق ، والتاريخ .

ذكرنا سابقاً أن هذا الفهم لدليل العلم يجعل الدين علماً ينظر إليه من حيث نتائجه لا من حيث ما تعودنا عليه من آراء الناس . وبهذه النظرة يزول النزاع الذي يظهر في العلاقة بين العقل والنقل ، فحين يقال إن العقل لا يدرك معقولية في أعمال الحج والصلاة والصيام كرمي الجمار والسحور .. إن الذي يجعل هذه الأمور لا مجال للعقل

فيها ، أنهم لا يفهمون العلم ربطاً للمنتائج بأسبابها ، ولو أنهم فعلوا ذلك لتبينت لهم أهمية النتائج والوظائف التي تؤديها هذه الشعائر ، وما قدمته وما تزال تقدمه من اتحاد وتوحد للعالم الإسلامي واحتفاظه بالأخوة والترابط وفي هذا يقول إقبال :

قطرة المـــاء التي من زمـــزم   قيصر يرنــو لهـــا كالخـــدم

إن علماء الاجتماع والذين يبحثون ما يعطي للمجتمع صلابته وتماسكه ، هم الذين سيدركون أهمية هذه الشعائر . فحين فَقَدَ المسلمون السلطان والدولة والعلم .. فإن الذي حفظ كيانهم ولا يزال يحفظ وجودهم هي هذه العبادات التي ينظر إليها ـ من لا يعلم ـ على أنها غير معقولة ، وغير موظفة لسلامة الفرد والمجتمع . يبين لوتروب ستودارد في كتابه حاضر العالم الإسلامي ، أن الذي حفظ على المسلمين وحدتهم وجعلهم على هذا التواصل والتعاون بعد أن فقدوا السلطان والخلافة هو الحج إلى بيت الله الحرام .

حقاً لقد أبقت هذه الشعائر رمق الحياة في كيان المسلمين : وما لهذه الشعائر من مهات لا يمكن أن ينتجها الناس بين عشية وضحاها . ونرى خطأ من يرى عدم تدخل العقل والعلم لفهم الشعائر الدينية . بل نرى العبادات الإسلامية لا أنها غير معقولة بل إننا ننظر

إليها بخشوع وقداسة لما ينتج عنها من نتائج وعواقب ، وما تقوم به من وظائف .

فمثل هذه الأعمال رموز وشعائر للاتصال الفردي والجماعي لمغزى الوجود وتفجير الطاقات وضبطها في آن واحد ، كما هو اتصال بمبدع الحياة بديع السموات والأرض . إن مثل هذه الأمور لا ينظر إليها مبتورة دون صلة بأهدافها ووظائفها . إن هذه الظواهر تنتظر من يكشف سننها وعواقبها ، وقد عرض إقبال هذا المعنى بأسلوبه الشعري :

درة التوحيد فاعرفها الصلاة   حجك الأصغر فاحفظها الصلاة
بيد المسلم هذا الخنجر   يقتل الفحش به والمنكر

وأخيراً ..

مما يؤخذ على العلم اليوناني أنه كان نظرياً مفصولاً عن التجربة والعمل .

إن العاقبة شيء فوق التجربة ، فهي تجربة وزيادة ، إنها تجربة مضاف إليها الخير والأبقى . وهذا النظر على أساس العواقب ينتج عنه أيضاً زوال النزاع حول العلمانية ، لأن العلمانية نشأت حين كان الناس يظنون أن العلم يناقض الدين ، وأن الدين والإيمان لا يدخل إليهما

العلم ، فالدين والإيمان فوق العلم عند البعض ، وخارج العلم عند قوم آخرين ، وضد العلم عند فريق ثالث .. ففي تلك الأيام استخدمت العلمانية كشعار ضد الخرافة وضد غير المعقول وغير المنطق . فإذا كانت العلمانية هي قبول نتائج العلم وعواقب الأمور فإن المؤمن لن يتضايق من هذا الشعار ، وإنما سيشعر أنه ينبغي أن يصحح منهج المعرفة ليدخل الكل إلى مملكة العلم ، ويخضع كل شيء لسلطان العلم الذي لا يقهر .

هذه كلمات موجزة ، ولكن إذا استطعت أن تتعامل معها على أساس ارتباطها بالوقائع والسنن لا على أساس ارتباطها بالأشخاص ، فستنتفع منها ، وستكون منطلقاً جديداً لمنهج معرفي جديد ، ونكون بذلك بدأنا طريقاً جديداً لتغيير واقعنا الذي لا يرضى عنه أحدٌ ، وهذا الواقع لن يتغير إلا إذا بدأنا التغيير مما بالأنفس ، ونحن حريصون على ما بأنفسنا مع أننا نمقت نتائجها المتمثلة في واقعنا . فحين ندرك الصلة بين واقعنا وبين ما بأنفسنا، فسوف نقدر على تأمل ما بالأنفس وعلى محاولة تصحيحها أو قلبها رأساً على عقب ، وبمعاناة أقل ، لأن عدم وضوح الصلة بين ما بالأنفس والواقع ، هو مصدر كل الضلال ، فحين نتمكن من إحصاء ما بالأنفس ثم نرجع أو نصل هذه بالنتائج والأزمات التي نعانيها نكون بدأنا برؤية بصيص من النور ونكون أزلنا الظلام

الذي يخفي الأسباب الحقيقية للمشاكل ، عند ذلك نكف عن البحث عن كبش الفداء لأزماتنا فيما بيننا نحن في أنفسنا ، وفيما بيننا وبين العالم الآخر .

إن هذا الفهم وهذه الرؤية تمنع من تشتت جهود الأمة وبعثرة طاقاتها .

وحين نفهم الأمور بعواقبها وأسبابها الواضحة نكون أمسكنا بالعروة الوثقى ، وعند ذاك نتخلى عن أشياء لتذهب جفاء . ففي قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرّعد ١٧/١٣] ، منهج معرفي تاريخي سنني لأن الذي سيبقى في الأرض هو النافع ، والذي لا يؤدي دوراً نافعاً سيذهب جفاء مهما تشبث به المتشبثون . فما علينا إلا أن نحدق في واقع الأرض لنرى كيف تترسخ قواعد العلم ومناهج المعرفة على أساس النفع والضرر خلال التاريخ ، إنه الخير والأبقى . فالمبدأ الذي يردنا إلى مثل هذا المنهج يثق بالتاريخ الماضي ويثق في المستقبل لأن الحق في هذا الكون أن يذهب الزبد جفاء ، وأن يبقى في أيدي الناس ما ينفعهم .

الموقف العلمي

ونرى من الضروري أن نقوم بإلقاء ضوء على الموقف العلمي ، أي الموقف من المجهول ، الموقف من الذي لم يصر علماً بعد . والإنسان عادة يختزل الماضي و يمد خياله إلى المستقبل ، فكأنه يطير بين جناحي الماضي والمستقبل ، بين جناحي المعلوم والمجهول . فعلى قدر هضمه للماضي وكيف بدأ الخلق يلقي الأضواء على المستقبل والمجهول ، وعلى قدر ما عنده من خبرات وعلوم متراكمة فإن موقفه من المجهول يكون متفائلاً ، ويقيس ما يجهله الآن بما كان يجهله سابقاً ثم تعلمه ، فلا يكون عنده اليأس والغموض إزاء المجهول ، وإنما معه خبراته ومكاسبه القديمة وتجاوزاته الماضية ، أي أن المشكلات التي حللناها تساعدنا وتلقي لنا أضواء على المشكلات التي لم نحلها .

وهذا الموضوع متصل بموضوع ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] ، فالذي يعرف كيف بدأ الخلق يحصل لديه تصور لمصير الخلق والمستقبل ولو بشكل غامض ، وهذا التصور مستمد من السابق ، إنه لن يبقى كما هو ، وإنه يمكن أن يتغير

كما تغير الماضي ، وكما خُلِقَ الماضي يمكن أن يخلق المستقبل ، وكما أن الخلق الحالي له بداية ليست كما هو الآن فكذلك له مستقبل ليس كما هو الآن .. ﴿ وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر ١/٣٥] ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرّحمن ٢٩/٥٥] .

ومن الأمور التي تَحْرُم الإنسان من الموقف العلمي : أن يظن الإنسان أن العالم خلق في لحظة واحدة كما هو الآن ، هذه الصخور والجبال والنجوم والمجرات والنباتات والحيوانات .. لها تواريخ وكيفية لبدء خلقها ، فمعرفة هذه الكيفية لبدء خلقها تلقي ضوءاً طويلاً على كيفية صيرورتها في المستقبل .. وهذه الكيفية الماضية أمر القرآن بالنظر إليها والسعي لهضمها وتأملها ، وبعد أن تتحقق هذه الكيفية الماضية يحصل لنا تلقائياً التصور للمستقبل وما يحتويه من إمكانات . إن من لا يملك معرفة ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ لن يستطيع أن يتخيل وأن يتصور المستقبل الذي يضمره الحاضر .

لقد ترسخ في أذهان المسلمين كيفية معينة لنشوء الخلق من خلال الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة ، وليس من السير في الأرض . وهذا الرسوخ كان سبباً في موقف المسلمين العدائي من فكرة التطور التي دخلت العالم الإسلامي منذ مئة عام ، كما كان سبباً في إهمالهم وعدم

التفاتهم إلى الآية الواضحة التي تحدد مصدر معرفة كيف بدأ الخلق من السير في الأرض : ﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] ، وإنني لم أجد عند المسلمين بحثاً واحداً أدخل هذه الآية على أنها متصلة بهذا الموضوع . ونحن هنا لسنا بصدد إثبات فكرة التطور أو نفيها وإنما في تحديد منهج البحث .

كما أن شعورنا بالمشكلات الحالية وعدم تصورنا جيداً لمشكلات الماضي ، جعل المشكلات الحالية مزمنة بل وتشلّ جهد الإنسان وسعيه الصحيح لإزالتها .

إذن الموقف العلمي (أي الموقف التاريخي والسنني) موقف السائر والمتطلع إلى كيف بدأ الخلق ، هو الذي يعطي الموقف المتماسك الفعال الذي لا انفعال فيه ، والثقة التي لا شك فيها ولا تردد ، ويكتسب الإنسان من هذا الموقف التبصر والبصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف ١٠٨/١٢] ، فمن هنا ندرك أن الذين لا يعرفون الماضي بوضوح ليسوا هم الذين يحلون مشكلات الحاضر بفعالية . ومن هنا يتبين لنا مقدار حاجتنا الملحة ليكون لنا منهج واضح لمعرفة الماضي بخطوطه العريضة الواضحة ، وبشكل يعم كل الناس وبخطوطه الدقيقة الواضحة لكل من يريد التخصص .

إن من أكبر الخدمات التي تقدم للعلم معرفة الماضي وهضمه والقدرة على تقديمه بشكل ميسور واضح التسلسل قريب المنال ؛ فلا بد من معرفة تاريخ كل خلق ـ مخلوق ـ آفاقاً وأنفساً ، ونحن كالذين من قبلنا حصل لنا ما حصل لهم .. طال علينا الأمد وقست قلوبنا وجمدنا عند رؤية اللحظة الحاضرة رؤية لاسننية ، ورؤية جبرية قدرية مبتورة من عبر الماضي ، ومبتورة من التطلعات إلى المستقبل والآمال في تخليصها من الآصار والأغلال التي ترسف فيها المجتمعات والبشرية جميعاً . إن خلاص الجميع إنما يتم في التوجه إلى إدراك الماضي ومعرفة ما كان وكيف كان . لتحصل لنا قدرة على التعاون لبناء ماسيكون وكيف يكون . وعند هذا سندرك كيف تكون مساعدة الله لنا للقيام بالمهات الموكولة إلينا ونفهم معنى رحمة الله في أسلوب امتحان ذكائنا ، ونبدأ بعد ذلك بالشكر لله على ما بين أيدينا من آيات لنتبوأ مقام سلطان العالم وسلطان التسخير .. وبهذا يكون لشكرنا وحمدنا لله معنى ، وبهذا يعود المعنى الحي لفاتحة الكتاب حين نتوجه بالصلاة إلى الرَّحمن الرَّحيم .

إن من حُرِمَ الموقف العلمي يقف موقف المغلق المتشائم المحروم من الآمال ومن الرحمة والتسامح ؛ وهو موقف الفاشلين المغلق عليهم آفاق حل المشكلات . إنهم حملة الحقد والساعون إلى الانتقام والناهجون

سبيل (عليَّ وعلى أعدائي) ، وهم الذين يعالجون المشكلات بقطع الرؤوس بدل ترشيدها وهدايتها .. هذا إذا كانوا من المستكبرين في الأرض ، أما إن كانوا من المستضعفين في الأرض فيظلون يجترون أحقادهم ويتحينون الفرصة للإطاحة بالرؤوس التي عجزوا عن تقديم ما يهديها ويرشدها . إن العلم هو الذي يعطي الرحمة ، والعفو ، والصفح والتسامح ، والعلماء هم الذين يبينون الحق ويرحمون الخلق كما يقول ابن تيمية . أما الجهل فهو الذي يعطي الفظاظة والغلظة ، وهو الذي يجعل الناس يتلمظون إلى السحق حتى العظم ، وهم الذين لا يهدأ غليلُهم ولا يروي عطشَهم إلا الدماء والدمار . لا بد من أن تهدم قرطاجنة .

فإذا حصل لك يوماً شعور بالانفعال جعلك تضرب شيئاً أمامك لعجزك عن حله بسبله الصحيحة ، أو رأيت من يفعل ذلك ثم أتبع عمله بقوله : هذا أمر غير قابل للحل ، فاعلم أن هذا الموقف غير علمي ، وغير تاريخي ، وغير إنساني ، لأن العلم والتاريخ رحمة ، وعفو ، وصفح ، وتسامح ، وهداية وأمل مشرق ، وليس يأساً مطبقاً . وهذا معنى كون السموات والأرض خلقت بالحق ، أي قابلة لحل مشكلاتها وتسخيرها لا هدمها .

وإذا رأيت الناس يائسين من تغيير أوضاعهم وحلِّ مشكلاتهم ،

وإذا رأيت الناس غير مبالين ولا ميالين للاستماع إلى شيء .. فاعلم أن سبب ذلك هو اليأس المبين واليأس قرين الكفر ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف ١٢/٨٧] ، والعجز والكسل والجبن والبخل من ذراري الجهل .. وإن الفعالية ، والنشاط ، والشجاعة ، والكرم ، من نتائج العلم والفهم . والعلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، وليس ثروة جاهزة ، وإنما قدرات إنسانية ومجالات تسخير وملكوت لا نهاية لها .. فالبحر ينفد وعطاء الله وكلماته لا تنفد .

العلم والهوى

أضع هذا العنوان ولا أزعم أني موافيك بما يشفي غليلك في هذا الموضوع ، وإنما أطرق باباً أشعر بأهميته وأثره البالغ على سلوك الناس . إن استمرار البحث والدرس والتأمل في الأحداث يهدي الباحث إلى أن يقترب إلى ما هو أوضح وأبين وأقرب إلى العلم .

إن وضع العلم على أنه مقابل للهوى يوحي بأنهما متضادان ، ولقد ورد الهوى في القرآن في موضع الاتهام والتحذير منه والنهي عن اتباعه ، سواء كان الاتباع لهوى النفس ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. ﴾ [الجاثية ٢٣/٤٥] ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ [القصص ٥٠/٢٨] ، ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف ٢٨/١٨] . أو كان الاتباع لأهواء الآخرين كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ١٤٥/٢] . ولقد زكّى القرآن من ينهى النفس عن الهوى لأن اتباع الهوى يصرف عن العدل ويوقع في الظلم ويضل عن سبيل الله .. ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾

[النساء ٤/١٣٥] ، ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [ص ٣٨/٢٦] ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام ٦/١١٩] .

ولكن كيف نعرف الهوى ؟ كيف نشعر به ونحس به في أنفسنا وأنفس الآخرين ؟ وكيف نتعرف على مداخله ومسالكه ؟ كيف يتكون الهوى ؟ وكيف نكشفه ؟ وكيف نتخلص منه ؟ ولقد بلغ ببعض الناس أن قال : إذا أردت النجاة فاترك ماتهوى نفسك . قال البوصيري في هذا المعنى :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتّهم

ولعلماء النفس وقفات عند الهوى يجدر تأملها .

ولا أبالغ إذا قلت إنه لا يحدث نزاع في العالم بين الناس إلا وللهوى مقام مكين فيه ، فالهوى يلوّن الرؤية ، وكل يرى الموضوع على خلاف ما يراه الآخر . والهوى أقوى ما يكون عند الأطفال والجاهلين من الناس وأقلهم علماً بالتاريخ وأحداث العالم وسنن الكون ، فإذا قلَّ العلم كَثُر الهوى .. وما ينفع الإنسان ويضره ، وما يتصل به وبأولاده وأعماله ومذهبه وقومه .. يؤثر في موقفه ، حيث يتدخل الهوى في الحكم ويحجب الرؤية الموضوعية للأمور

فلا يعود الإنسان يراها كما يراها غيره ، وموقف الإنسان هذا يحدث لديه بغير علم ولا شعور في الغالب . وقد أدركت الثقافات البشرية هذا الجانب ، فكل الشعوب عندها أمثال توضح كيف يؤثر الهوى في الحكم على الأشياء . ففي الأمثال الشعبية نجد (أكره من يمدح نفسه وأساوي تسعة رجال) . وفي حديقة أطفال أخذ أحد الصغار يزعق من غير توقف ، وصادف أن جدته ـ وهي مديرة المؤسسة ـ كانت في الصف فقالت للخادمة : « لو لم يكن حفيدي لقلت إنه مزعج أما وهو حفيدي ! فأقول : إن لديه موهبة قيادية » . وهكذا يرى الإنسان الساذج ما يتصل به غير ما يتصل بالآخر ، أقذاره مختلفة ليست كأقذار الآخرين .. وربما أكثر الناس شعوراً بالأهواء القضاة أمام المتنازعين . والله تعالى يقص علينا قصة الهوى وكيف يحرف قلوب الناس ويلوي أعناقهم . ففي قصة داود عليه السلام يقول الله تعالى لداود : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [ص ٢٦/٣٨] ، هذا توجيه من الله تعالى لمن صار في مكان الحاكم بين الناس . وقصة الذين تسوروا المحراب قصة رائعة في توضيح الهوى في سورة ﴿ ص ﴾ . وقبل بدء القصة يذكر الله تعالى محمداً ﷺ الذي لاقى العنت من قومه الذين ﴿ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، أَجَعَلَ الآلِهَةَ

إلَهاً وَاحِداً إنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص ٣٨/٥] . ويقول الله تعالى بعد ذلك لنبيه : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُون وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ذَا الأيْدِ إنَّهُ أوَّابٌ . إنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص ٣٨/١٧-٢٠] . يصف الله تعالى داود بهذه الأوصاف الجليلة ولا سيما إيتاءه الحكمة والملك المكين وفصل الخطاب ، وبعد هذا يقول : ﴿ وَهَلْ أتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قَالُوا : لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إنَّ هَذَا أخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلَى نِعَاجِهِ وَإنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص ٣٨/٢١-٢٦] .

والشاهد في القصة الخصمان ، الذي عنده نعجة واحدة وهو

يعرض القضية مندهشاً والآخر الذي عنده تسع وتسعون نعجة . فالذي عنده مئة إلا واحدة شعر بالحاجة إلى أن يضم النعجة الواحدة إلى التسع والتسعين لتصبح مئة ، وساق حججاً على أنه هو أولى بهذه النعجة من صاحبها حتى شعر صاحب النعجة الواحدة بأنه مغلوب إزاء هذه الحجج .. إن الذين لهم صلة بأصحاب الأموال والأنعام والأراضي .. يعرفون من أمورهم ما يدهش ، فالقناطير المقنطرة تفعل الأفاعيل .. إن هذه الحادثة ـ وكثيراً مثلها يقع في الحياة اليومية بين الناس ـ تظهر مقدار ما يفعل الهوى بالناس .

إن النزاع بين النساء والرجال والإخوة وأصحاب الأسرة الواحدة والجيران ، جيران البيوت أو جيران القرى والأقطار .. إن النزاعات سببها في أن كل واحد يرى الموضوع على غير ما يراه الآخر ، حتى إن مالك التسعة والتسعين يشعر بالحاجة إلى أن يسلب مالك الواحد ليضم الواحد إلى ملكه .

أرى أن هذا المثل مثل رائع على هذه المشكلة العالمية ، وعبرة من العبر . والإنسان حين يرى مثل هذا النبأ يراجع نفسه ويقول : كلنا نقع في هنا . ولكن المشكلة أن الإنسان ـ بشكل عام ـ لا يرى إلا نفسه ولا يرى إلا ذاته وأناه ، وأن الآخر لا شيء . هذا مثل على الهوى كيف

يضل عن سبيل الله ، وكيف يجعل الإنسان أعمى وأصم ، وفي الحديث الشريف : « حبُّك الشيء يعمي ويصم » (رواه أبو داود في سننه) ، لهذا داود نفسه ـ عليه السلام ـ تأثر من هذا النبأ وشعر كيف أن الإنسان معرض لأن يؤثر الهوى فيه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب .

هذا ما أراه من مغزى هذه القصة . إنها مشكلة عالمية اجتماعية ، مشكلة كل أسرة ومشكلة مجلس الأمن الدولي ومشكلة سكان هذا الكوكب وحيث وجد شخصان .

إن منشأ الهوى حب الذات ، وهو وإن كان يؤدي دوراً إيجابياً في حفظ الحياة الذاتية إلا أنه لا بد من تجاوز هذا الدور حتى لا يبقى محصوراً في هذه الدائرة الفردية وذلك لصالح الذات ، حيث لابد أن تعيش الذات في الحياة الاجتماعية ، ولا بد أن يعي الفرد أن وجوده صار مرتبطاً بالمجتمع ، فلا بد أن يتنازل عن هواه ويعتبره عدواً قابعاً في نفسه يعيق نموه وتطوره إلى الأعلى ، ولا بد أن يتخلص من نوازعه الفردية ليرتقي إلى الدوافع الاجتماعية ، وهذه نقلة من الأنانية إلى الإيثار ، إلى الغيرية ، لأن نمو الحياة الاجتماعية في أسمى صوره مبني على الإيثار . ويمدح الله المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر ٩/٥٩] .

إن هذا الموضوع متصل بالنزاعات بين البشر بأسبابها وكيفية حلها ، والاعتبار بالتاريخ ، إن سعة وسائل الاتصال وسرعتها تعرض المشكلات العالمية والدولية بشكل شبيه جداً بالنزاعات داخل الأسرة الواحدة في توزيع المغارم والمغانم وأسلوب الخطاب وتفسير الخطاب وما فيه من جرح ونقد وغمط وتضخيم وتحقير .

إننا نعيش في عمق الهوى حين نرى الأطفال يتخاصمون ويتنازعون على أدوارهم وأدواتهم وألعابهم . كما نرى ذلك على مستوى قادة السياسة في العالم .

كذلك نشاهد هذا الحوار - حوار الطرشان - بين المتقاتلين باللسان أو السنان ، فما يقوم به الآخر همجية ووحشية وإرهاب ولا إنسانية وعدوان ، وما يقوم به هو حماية وأمن للمواطنين الأبرياء ومجال أمن ودفاع عن كل ما يجعل الحياة مقبولة أن يعاش فيها .

لقد تغلب العالم على هذه المشكلة داخل الدولة الواحدة بوضع القوانين وتنظيم القضاء حيث يتحاكم المتنازعون إلى المحاكم ، ويصدر القضاة الأحكام بدرجات مختلفة في قربها إلى العدل ، وهذا أفضل من أن يترك لكل فرد أخذ حقه بنفسه ، حتى لا تعود الحياة إلى قانون الغاب وتصبح خالية من الأخوة ، موزعة بين الاستكبار

والاستضعاف . فيا حبذا لو تصل مجموعة الدول إلى مثل ما وصلت إليه الدولة الواحدة .

إن القانون الدولي حبر على ورق ، ومحكمة العدل الدولية لا تجري على الألسنة ولا وظيفة لها ، فلا بد من جعل المؤسسات العالمية فعالة بتآزر أصحاب المصالح الحقيقية من مستضعفي العالم لمنع الحروب كما في الدولة الواحدة ، لمنع الحروب العرقية أو الثقافية أو الطبقية والإقليمية النابعة من مختلف الأهواء . وما هو أقرب للإنصاف هو التحاكم إلى طرف ثالث بعيد الصلة عن الطرفين لأنه أجدر برؤية الباغي ، لأن كلاً من الباغي وغريمه غير قادرين على رؤية الموضوع كما هو . إن عالمنا تحكمه الأهواء ، ولا يزال عاجزاً عن لجمها ، وهي التي تحدث الفساد في العالم و « لقد حاولت منظمة الأمم المتحدة وضع تعريف للفظة (اعتداء) إلا أنها تخلت عن هذه المحاولة ، وأخيراً تقرر أن لفظة اعتداء تعبر عن فكرة قائمة بذاتها لا تعير نفسها للتعريف »[1] . وسبب الفشل في التعريف أن كل طرف يفسر الموضوع من زاوية رؤيته الخاصة فيفسره على هواه . ولو أن القاضي في المحكمة أخذ بهذا الرأي ـ لتعريف الاعتداء ـ لما كان هناك إدانة لأحد بالاعتداء ، ولكن

(١) كتاب هل ينقذنا العلم ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٦٦

قانون الغاب يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً . والذي يفصل في الأمور هو الأقوى ، والذي يفسر الاعتداء هو المنتصر .

ورؤية الهوى صعبة ، والإحساس به عسير لأن الهوى في حقيقته ظلم للنفس وإن كان في ظاهره حباً لها ، ولهذا فإن الهوى يخدع الناس ويصرعهم ويجعلهم في موضع الامتحان ، وكشفه آية الذكاء .. وفي التاريخ عبرة والتأمل فيه يوقظ الإنسان ويعلمه موضع الخطأ ومسالك الهوى في الخداع .

والله سبحانه وتعالى يسمي المخطئ ظالماً لنفسه . والإنسان عادة لا يشعر أنه يظلم نفسه بل يشعر أن الظلم يأتي من الآخرين . والقرآن ينفرد في تسمية الذي يقع في الخطيئة بأنه ظالم لنفسه ، وحتى المستضعفين يسميهم ظالمي أنفسهم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النِّساء ٤/٩٧] .

إن سنن الله في التغلب على حالة الاستضعاف كثيرة ، ولكن الجهل يضيق الواسع والأرض تضيق على رحبها ، فضيق النفس يضيق كل شيء . والهوى يَضِّل عن سبيل الله وسنة الله .

ومن المفيد تأمل كيف بدأ خلق القانون بين الناس ، وتأمل

الحاجة الملحة التي جعلتهم يشعرون بضرورة القانون الذي ينظم أمور الحياة ويلجم الأهواء . والله يأمرنا أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق . وهو أشد ماأشعر أن الناس في حاجة إليه أن يعرفوا كيف بدأ خلق القانون والنظام ، وهذا مايسميه الدين : كيف بدأ الحرام ، وبكلمة علم النفس (التابو) فإذا عرفنا ذلك نبدأ بمعرفة متى بدا الإنسان يشعر بضرورة لجم هواه إلى توجيه غرائزه ؛ فكل الحضارات في العالم إنما كان همها توجيه غرائز الإنسان وضبط أهوائه ليتسامى ، فأكدت على وضع الأهواء الداخلية تحت المجهر ، لتوجيهها وإيقاف دورها المعطل للتسامي . وإذا رأينا أن العلم تَسَخَّرَ للهوى بسبب سيطرة الجهل ، فإن ذلك مرحلة زائلة لأن العاقبة للعلم .

ومن الكلمات التي تدل على الهوى اللاشعور والانفعال ـ حبّاً أو بغضاً ـ والذاتية والنرجسية والغرائز والنفس الأمارة والأنانية . ولقد اهتم الصوفية وعلماء النفس بتتبع مداخل الهوى في النفس . ويسمي (راسل) الهوى : رغبات وأمالاً ، يقول : « إن الناس ليشق عليهم في كل الميادين أن يقيموا آراءهم على البراهين لا على الآمال ، فإذا اتهم جيرانهم بجافاة الفضيلة صدقوا التهمة وكاد يستحيل الانتظار حتى تثبت . وإذا تأمل أحدهم نفسه اقتنع بأنه مهذب .. وقد يكون الأساس الموضوعي لكل هذه المعتقدات بالغ الضآلة ولكن رغباتنا

تجرفنا إلى التصديق جرفاً لا يقاوم ، أما الطريقة العلمية فتلقي برغباتنا جانباً ، فالذي يصدر تذاكر الرهان علمي[1] ويجمع ثروة ، بينما المراهن العادي غير علمي ونصيبه الفقر »[2] .

وفي تراثنا الأدبي والصوفي لفتات أخاذة في إبراز عمل الهوى في النفس ، ولقد قال الرسول ﷺ : « حبُّك الشيء يعمي ويصم »[3] . فالهوى يعمي ويصم ولا يرى الشيء كما هو ولا يسمعه على ما هو عليه ، وإنما يجري عليه التحويرات اللازمة . ولقد عرض التوحيدي شيئاً من هذا فقال :

« إن صديقه مسكويه قال له يوماً : أما ترى إلى خطأ صاحبنا - وهو يعني ابن العميد - في إعطائه فلاناً ألف دينار ضربة واحدة ! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق فقال له أبو حيان ، بعدما طال الحديث ، وبالغ في إظهار أسفه : أيها الشيخ ، أسألك عن شيء واحد واصْدُقْ فإنه لا مذبَّ للكذب بيني وبينك ، ولا هبوب لريح التمويه علينا . لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وأضعافه وأضعاف

(١) أي يعرف القانون والتسخير ، ولكن ليس على أساس النظر إلى العاقبة . فالخداع أساس معرفته .

(٢) النظرة العلمية لراسل . ص ٣٦ وما قبلها .

(٣) سنن أبي داود .

أضعافه ، أكنت تتخيله في نفسك مخطئاً ومبذراً ومفسداً ، أو جاهلاً بحق المال ؟ أو كنت تقول : ماأحسن مافعل ، وليته أربى عليه ، فإن كان ماتسمع على حقيقته ، فاعلم أن الذي بدد مالك ، وردد مقالك إنما هو الحسد وشيء آخر من جنسه ، فأنت تدعي الحكمة وتتكلم في الأخلاق ، وتزيف منها الزائف ، وتجتار منها المختار ، فافطن لأمرك واطلع على سرك وشرك »[1] .

وقال أبو حيان على لسان أستاذه أبي سليمان :

« إن كثيراً من أخلاق الإنسان تخفى عليه وتطوى عنه وذلك جلي لصاحبه وجاره وعشيرته ، وهو يدرك أخفى من ذلك على صاحبه وجليسه ، وكأنه في عرض هذه الأحوال عالم جاهل ، متيقظ غافل .. وحليم طائش ، يرضى عن نفسه في شيء هو المغتاظ على غيره من أجله »[2] .

وقد أشار الجاحظ إلى ضرب من هذا في كتابه (البيان والتبيين) وكيف يستعين الإنسان بالحركة والإشارة للبيان فقال :

« وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب

(١) زكريا إبراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٧١ ، سلسلة أعلام العرب .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١٦

عينيه ولم يحرك رأسه حتى كأن كلامه يخرج من صدع صخرة ، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك بالعجز عن بلوغ إرادته ، وكان يقول : ليس من المنطق أن نستعين عليه بغيره ، حتى كلّمهُ إبراهيم النظام عند أيوب بن جعفر فاضطره بالحجة وبالزيادة في المسألة حتى حرك يديه ، وحل حبوته . وحبا إليه حتى أخذ بيديه . ففي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم .

وكان الذي غر أبا شمر وموّه له هذا الرأي أن أصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون إليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم ، ويثبته عندهم ، فلما طال عليه توقيرهم ، وترك مجاذبتهم إياه ، وخفت مؤونة الكلام عليه ، نسي حالة منازعة الأكفاء ومجاذبة الخصوم »[1] .

ومما يساعد على إلقاء ضوء على الهوى أن أصل الهوى مصنوع حضاري . والشهوات وإن كانت الحضارة توجهها فإنها غرائزية أكثر . فالشهوات جسدية ، والأهواء نفسية ، وإذا قلنا إن الهوى مصنوع حضاري فذلك لأن الإنسان اعتاد أن يسخر لموضوع اجتماعي معين يصعب عليه أن يوسع دائرته ، دائرة الأسرة ثم العشيرة ثم القوم ثم الإنسانية . فحين كان عدد البشر قليلاً على الأرض ووسائلّ اتصالهم

(١) انظر البيان والتبيين ، الجاحظ ، طبع مصر ، ١٩٢٦ ، ص ٧٨

بطيئة ، كانت الأسرة تستحوذ على طاقة الإنسان ، وحين كثر عدد التجمعات في مناطق معينة اقتضى توجيه طاقة الإنسان وتوزيعها على دائرة أوسع وهذا يتطلب علماً ، فإن الشعور بالحاجة من دون علم بطرق تحققها يجعل الموضوع يعالج بالموعظة والطقوس والأغنية والمدح والهجاء .. إن وضع طاقات الإنسان التي ظلت محصورة مدة طويلة في العشيرة في مجال أوسع لا يمكن أن يتم بموعظة تقليدية أو خطاب سياسي يحشر له الناس عشية أو ضحى .. بل لا بد من وضوح كيف بدأ الخلق قبل أن نعرف كيف نزيد أو نوسع في الخلق .

إن صياغة الإنسان وفق قيم يشهد التاريخ على سلامتها موضوع كان يجري تلقائياً ، ولمّا يبدأ العلم يتدخل لتجلية سنن هذه العملية .

وقد بذل البشر جهوداً كبيرة في سبيل تهذيب أنفسهم للخروج من التوحش والدناءة والبذاءة ، ولكن ثمار هذه الجهود كانت قليلة بسبب قلة العلم ، وغموض المعرفة .

وما حققه الإنسان من نجاح تلقائي في هذه الميادين ، إنما كان بجهودٍ لم ينورها ضوء العلم ولم يكشف الإنسان سننها وقوانينها .

وهذا الغموض يضعف الأمل في نجاح الجهود المبذولة لرفع مستوى الناس ، ولا يمكن أن تشحذ همة المتفائلين إلا بمعرفة القواعد

والأصول التي يتم على أساسها تسخير طاقات الإنسان للتحول من حالة التوحش إلى تزكية النفس ، والارتفاع إلى المرتبة التي أرادها الله لهم ، وهؤلاء المتفائلون هم الذين يدركون مغزى الحوار بين رب العزة والملائكة حين قالوا :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] ، فترتفع نفوسهم إلى الآفاق التي ارتفعت إليها نفس يوسف ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف ١٢/٢٣] .

حقاً ، إن هذا الثوب الأخلاقي الحضاري المهلهل الذي لا يكاد يستر الناس يُرمى بعيداً عند الأزمات ، ويتحول الناس إلى نهابين وسفاكين .. أما نسمع ونرى مع الأخبار العالمية من بروز النهابين حين حدوث الأزمات من الزلازل ، وعند غياب السلطة يتحول الأفراد إلى ذئاب ، حقاً إنها لحواجز هشة ، هذه الحواجز التي نبيتُ وراءها شاعرين بالأمن ونحن لا نعلم مقدار ضآلة الضوابط التي تظهر النفوس وكأنها مهذبة أو متحضرة أو أن الأهواء لا تحكمها .

وأحكام القرآن : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ ٣٤/١٣] ،

﴿ فَقَلِيلاً مَـا يُؤمِنُونَ ﴾ [البقرة ٨٨/٢] ، وسواهـا إنما هي وصف وقـائع لا نـزال نعيشهـا بكل واقعيتهـا ، ولكن من الخطـأ أن نصـل من هـذه الواقعية إلى الحكم بضرورة استمرار هذا الواقع ، لأن عـالمـاً آخر يمكن أن يبنيه العلم حين نرى آيـات الله في الآفـاق والأنفس . إن السيطرة على زمام النفوس بالإمساك بسنن الله هي التي تمكن الإنسـان من أن يعيش مع سنن الله (الإنسان المتقي) فهـذا الـذي يمكنـه أن ينهى النفس عن الهوى حين يقع الآخر صريعاً لهواه ؛ إنه الإنسان الـذي إذا سلـك فجـاً سلـك الشيطـان فجـاً غير فجـه .. ولا يـزال البشر بعيـدين عن هـذه السيطرة سواء منهم المتحضرون مـاديـاً المتخلفـون نفسيـاً أو المتخلفـون ماديـاً ونفسيـاً .

قد نجد من يعز عليه أن نُشعر القـارئ بـأن في الإمكان الأمل في تضييـق الخنـاق على الفسـاد في الأرض وتـوسيـع دائرة العلم في النــاس وطرد الشيطـان من طرقـاتهم ، وقـد وُجـد من عزَّ عليـه أن تخفف آلام البشر في تحسين علاج أمراضهم بتقـديم علم الوقـايـة والعـلاج لـلأمراض الجسدية .

فالأمراض الأخلاقية أو النفسية أو الحضارية أو كما يسميها القرآن الأمراض القلبيــة ، هي التي كان عــلاجهــا مــوضــع اهتمام القرآن ، وإعطـائهـا الأولـويـة في الشفـاء . فـالصـدارة في القرآن لعـلاج مرضى

القلوب بالمعنى الديني الأخلاقي الحضاري النفسي وليس بالمعنى الجسدي . وإن القرآن يلح على خطورة المعاصي التي يرتكبها القلب كالكذب والنفاق .. أكثر من الإلحاح على المعاصي التي ترتكبها الجوارح .

إن التظاهر بقبول القيم والخروج عليها ينبوع الرياء والكذب ، فالأهواء تدخل إلى زوايا قلوب الناس فتريهم مخالفاتهم ضئيلة ، ولكن الذين يرونهم في الخارج يرون هذه المخالفات تحت المجهر . والحضارة تهتز من قواعدها ، والقيم تنتكس على رؤوسها حين تتحكم الأهواء ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [ص ٢٦/٣٨] .

وتصبح الحضارة في أزمة حين تتدحرج القيم التي لا قيام لها في نفوس أصحاب الأهواء وخاصة الذين يتمتعون بمغانم الحضارة دون أن يدفعوا ضريبة التزامها ، اتباعاً للهوى وتسويلاً للنفس ، كدأب الذين خلوا من قبل . وكما يبين توينبي : إن الحضارة في صعود حين تكون الأقلية التي تقود هي الأقلية المبدعة ، ولكن حين تفتقد الإبداع وتحل السيطرة محله تبدأ الحضارة بالتحلل ، لأن بروليتاريا هذه الحضارة تكف عن إعطاء ولائها ، فهنا يحق القول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [ص ٢٦/٣٨] .

وحين يصف فرويد الحضارة يصف الواقع الذي أشرنا إليه ـ وهو وقت أفول الحضارة أو انحدارها كما يسميه شبنجلر ـ يقول فرويد : « إن الحضارة تدوس برجليها فكرة العدالة الأولية فيما يتعلق بتوزيع الثروات ، وحين تعجز الحضارة عن إرضاء قسم من المساهمين فيها إلا باضطهاد آخرين ـ ربما الأغلبية شأن الحضارات الراهنة ـ إننا لا يمكن أن نتوقع دخول القيمة الثقافية إلى نفوس هؤلاء المضطهدين ، إنهم متهيئون لرفض الاعتراف بها وإلى هدمها وإنكار قواعدها .. إنهم يعادونها ، إنها لا أمل في استمرارها ، بل إنها لا تستحق هذا الاستمرار »[1] .

هذه الوقائع التاريخية حالة تدعو ـ عند النظرة العجلى ـ إلى اليأس ، ولكن النظر إلى هذا الموضوع من خلال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١٣/١١] ، يجعل الموضوع داخلاً في صميم العلم . وليست القضية قضية تفاؤل أو يأس .. وإنما تبصر وجهود موجهة لتوجيه الدفة إلى النجاة .

إن محتوى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال ٨/٥٣] ، حين يُنظر إليه على أساس التبرك بكلام الله تعالى يختلف عن النظر إليه في ضوء

آيات الآفاق والأنفس وفي ضوء : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

إن التأمل في التاريخ لمعرفة ما حدث وكيف حدث يفتح للمتأمل آفاقاً لكشف السنة ومعرفة قواعد التسخير ، فيتحول الإنسان إلى أحسن تقويم ويمشي سوياً على صراط مستقيم ، ولكن النظرة العجلى لأحداث التاريخ ترى عدم التوازن بين الآلام والمكاسب ، كما ترى أن الآلام التي عانتها البشرية أكثر من المكاسب التي حصلت عليها ، إلا أن هذه النظرة العجلى تجهل أن طريق السمو والكمال يتطلب الكدح والعناء ودفع الضرائب من الدموع والدماء .

إن البشرية عانت من الأوبئة التي كانت تجتاحها ، وحين ألقى العلم أضواءه على الغموض الذي كان يحيط بأسباب الآلام من الجهل بطبيعة هذه الأسباب ، انقشعت الظلمة ، وتغير موقف الإنسان ، وإن كان الإنسان لا يزال يكدح للتغلب على الآلام في هذا الموضوع إلا أن موقفه تغير ، فهو يسعى على بصيرة وعلى طريق مستقيم لحل مشكلات الأمراض الجسدية في العالم .. وحين تتوجه هذه الأضواء العلمية إلى آلام ومشكلات الأمراض السارية الحضارية الناتجة من الأهواء ، يصبح الإنسان عند ذلك كما وصفه رسول الله ﷺ : « كأنما

نشط من عقال » أي كان مقيداً بالحبل ففك قيده ، وهذا تشبيه للحالة النفسية بالجسدية ، إلا أن الشفاء من الحالة النفسية حين يصيب الدواءُ الداءَ أيسر من علاج المرض العضوي الجسدي ، فكل واحد منا يشعر حين تحل مشكلاته كأن ثقلاً كان على كاهله ثم حُطَّ عنه .. والعلم هو الذي سيكشف هذه الحقائق ويجليها .

العلم والتوحيد

التوحيد هو لبُّ الدين وجوهر العبادة ، وهو الركن الأول والأساسي في الإسلام وشعاره : ﴿ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ ﴾ [محمد ١٩/٤٧] ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص ١/١١٢] ، و ﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام ١٦٢/٦] .

وهذا الشيء معروف معرفة عامة لدى المؤمنين ، ولكن الذي في حاجة إلى إيضاح هو أن التوحيد يمكن أن يظهر في ثلاثة جوانب : توحيد الذات ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الرغبة والرهبة .

١ ـ **توحيد الذات** : ونعني بذلك أن الخالق واحد . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ ﴾ [فاطر ٣/٣٥] . وهذا النوع من التوحيد ، كان كثير من المشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ يقول به : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [العنكبوت ٦١/٢٩] . إلا أن هذا التوحيد غير كاف . فما دام الخالق واحداً فيجب أن تكون الطاعة لأمره وحده .

٢ ـ **توحيد التشريع** : وهو أن تكون الطاعة لأمر الله وحده .

ولقد أطلق المسلمون على توحيد الذات وتوحيد التشريع لفظة توحيد الربوبية . قال الله تعالى : ﴿ ألاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف ٥٤/٧] . فكما أن الله خالق لا شريك له في الخلق ، كذلك لا شريك له في الأمر الذي هو التشريع . تلا عدي بن حاتم قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة ٣١/٩] ، قال عدي بن حاتم : « لم يعبدوهم » ، فقال له رسول الله ﷺ : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذي .

٣ ـ **أما النوع الثالث من التوحيد فهو** : توحيد الرغبة والرهبة . وهذا النوع هو الذي سماه المسلمون توحيد الألوهية ، وهو الذي أنكره المشركون حين قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص ٥/٣٨] .

فالنوع الأول من التوحيد يخالفه الماديون أصحاب وحدة الوجود ، والثاني يخالفه الذين يتخذون البشر مصدراً للتشريع دون مراعاة موافقة أو مخالفة أمر الله ، ويُخضعون البشر له كما يحكي القرآن الكريم عن فرعون : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء ٢٩/٢٦] . والنوع الثالث يخالفه عامة البشر الذين يخافون ضُرَّ المخلوقات أو يرجون نفعها .

إن هـذه المعـاني يمكن أن نعبر عنهـا بـأسـاليب مختلفـة .. والمهم هنا : ما علاقة هذا التوحيد بالعلم ؟

الجواب على هـذا التسـاؤل يكـون بمعرفـة أمر الله والالتزام بـه ، فعـدم العلم هو الـذي يجعل الإنسـان لا يلتزم بـالتوحيـد . إذن العلم هو أساس التوحيد الذي يقوم عليه ، ولا توحيد بلا علم ، فإذا كان لا نجاة بدون توحيد ، ولا توحيد بدون علم ، فإنه لا نجاة بدون علم .

هذا معلوم في التوحيـد في أمر الله التشريعي (الحلال والحرام في الـدين) . أمـا العلم في أمر الله الكـوني أي معرفـة آيـاتـه في الآفـاق والأنفس وتسخير الكون فالأمر كذلك أي لا تسخير بـدون علم . فعـدم العلم بسنن الله في الكون لا يجعل الكون مسخراً لـلإنسـان ، لأن تسخير الكون لا يتم إلا بـالعلم . وهـذا واضح في مجـالات الـزراعـة والصنـاعـة وتربيـة الحيوان بـل وفي مجـال الإنسـان ، إذن إن النجـاة والنجـاح في الآخرة ، والنجاة والنجاح في الدنيا لا تتم إلا بالعلم .

هذا الأسلوب الـذي قـدمنـا بـه الموضوع معروف إلى حـدٍّ مـا ، ولكن يمكن أن يعرض المـوضـوع بـأسلـوب آخر تحت عنـوان مشكلـة إنسانية زماناً ومكاناً بل تحت عنوان قيمة إنسانية .

لِمَ هذا الاهتمام الكبير بالتوحيـد في الـدين ؟ فهل يمكن أن نرى

أهمية التوحيد في واقع الفرد والجماعة ؟ وهل هو شيء مهم لما يعانيه الإنسان في هذه الحياة أيضاً ؟ لأنه لا نجاة في الآخرة بدون توحيد وعلم ، ولا نجاح في الدنيا بدون علم كما سنوضح فيما بعد . إننا لوأعدنا قراءة الفقرة السابقة ونحن نضع كلمة العلم مكان كلمة التوحيد لكان المغزى واحداً .

سبق أن بحثنا أن العلم إنما نحصله بالتعامل مع الواقع الخارجي ، وتصحيح أفكار الناس يتم بالعودة إلى الواقع الخارجي الذي تتحدث عنه تلك الأفكار . كما بحثنا أن من معوقات العلم النظر إلى عُالم الأشخاص بأنهم مصدر العلم ، وأن القرآن يدين هذا النظر ويسميه (ما وجدنا عليه آباءنا) ، ويلح على التعامل مع الواقع الخارجي ورؤية عواقب الأمور .

والإنسان لا يتعلم الشك فيما عليه الآباء واختبار ماهم عليه بالوقائع الخارجية إلا بمعاناة شديدة وأثمان مكلفة . فالإنسان تعلق بوسائل العلم التي أخذها عن آبائه وقبيلته تعلقاً ذابت معه شخصيته .. فلو نظرنا إلى العلم أو التوحيد كيف يتعلمه الإنسان بمعاناة ، أو نظرنا إلى الواقع كيف بدأ الإنسان في تعلمه ، أو كيف بدأ خلقه .. لأمكننا أن نقول مع الذين يسيرون في الأرض وينظرون كيف بدأ

الخلق . إن الخلق لم يظهر كما هو مرة واحدة ، وإنما بدأ ضعيفاً ويزيد فيه ما يشاء .

وإعادة النظر في كيف بدأ الخلق أمر مهم مثل التوحيد والعلم ، فهو يدخل في لبّ العلم .. أي معرفة كيف خلق الله ما خلق حتى لا يكون علمنا بالله مثل ظن الجاهلية ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران ١٥٤/٣] .

« إننا لم نألف النظر إلى ظهور الفردية على أنه عملية تاريخية ، بل إننا نجنح إلى الاعتقاد بأن الأفراد كانوا منذ أن كان الناس على الأرض ، وهذا بالطبع صحيح بمعنى ما ، فكل إنسان عاش في أي وقت كان فرداً ، ولكن الملفت للنظر هو أن غالبية الناس في معظم التاريخ البشري لم يخامرهم إلا أدنى شعور بفرديتهم ، فقد تطورت فكرة الفردية بوصفها حقيقة من حقائق الناس أو مثلاً أعلى يحيا من أجله الإنسان خلال التاريخ البشري »[١] .

وأظن أنه يمكن إلقاء ضوء ـ مهما كان خافتاً ـ على هذا الموضوع حين ننظر إلى الناس في يومنا هذا وهم يقولون إزاء المشكلات

---

(١) الغرب والعالم ، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات ، تأليف كافين رايلي ، ١٥١/١ ، طبع ١٩٨٥ م .

الاجتماعية (شو بيطلع بأيدينا ؟) . إن من أكبر الأمور التي على المصلح الاجتماعي القيام بها تبصير الأفراد بقدراتهم وإمكاناتهم التي يهدرونها . وفتح ثقب على هذا الحاجز الوهمي ـ الشعور بعدم القدرة على فعل شيء ما ـ الذي يشل جهد الأفراد في السعي لتغيير الوضع إلى ما هو أفضل ، يضعنا على طريق لحل ويغير مواقفنا ، لأن المشكلة ليست غياب الأهداف وإنما عدم معرفة وسائل تحقيق الأهداف التي هي ـ الوسائل ـ العلم والتوحيد .

فالمعنى الذي يريد أن يبرزه صاحب النص المقتبس السابق من كلمة (ظهوز الفردية) ، هو هذا المعنى الذي أردت إبرازه بهذا الضوء الخافت .

إذا ألقينا النظر على الواقع الاجتماعي وقمنا بتحليله لوجدنا أن الشعور العميق بالعجز عن التغيير من أكبر المشكلات التي لا تعيق التقدم فحسب ، بل تجعل البدء في العملية أمراً مستحيلاً . إن إبراز إمكانات الفرد وقدراته على التغيير والمساهمة في التغيير من أشرف وأقدس الجهود التي بذلها البشر في تاريخهم الطويل . وما أحوجنا اليوم إلى الكتاب والبينات لإعادة الحياة إلى هذه البذرة المفقودة وفتح ثقب في هذا الجدار الذي تصطدم به جهود المصلحين فنرتد خائبين حسارى خاسئين .

وحتى الجهود التغييرية المبذولة في عالم اليوم قاطبة لا تزال تكبتُ هذا المعنى وهم ـ في أحسن الأحوال ـ لا يريدون إظهار النزعات الفردية في القدرة على إبصار كيف ومتى تكون جهودهم مثمرة .

وإن من أروع اللحظات تلك التي يحس فيها الإنسان بفرديته ، أي أن ينكشف له السلطان الكامن في داخله ، وتبدو مكانته في هذا الكون المسخر له وتفاعله مع الحقيقة العظمى التي تنقذه من الذين يَكْبِتُون فيه هذا الحق الكامن منه ، هذا العلم الذي يعطي للإنسان هذا الشعور هو الذي يشعره بفرديته وتوحده ، ويخرجه من الجهل والشرك إلى التوحيد ، والمسؤولية وحمل الأمانة الإيجابية .

يذكر صاحب كتاب (الغرب والعالم ـ القسم الأول) في فصل (التفرد والثقافة) كيف أن التفرد وشعور الإنسان بالمسؤولية الخاصة كان مفقوداً في القبائل البدائية قبائل الصيد وعندما نتكلم عن التفرد والنزعة الفردية في المجتمع الحديث ، من المهم أن ندرك أننا نتأول أفكاراً لها تاريخ محدود ومحدد من المعاني ، وفي أقصى حالات تفردنا لا نملك أن نعبر عن أنفسنا بغير الألفاظ التي أخذناها عن تاريخنا الثقافي . (ص ١٥٢) .

واللغة ترشد إلى كيف بدأت هذه المعاني ، لأن اللغة توجد بعد

أن تخلق هذه المعاني ، ودراسة اللغات تبين عدم وجود الكلمات التي تدل على استقلال الإنسان الفرد ، ودراسة الحضارات ونشوء المدن وانتشار الحديد تبين كيف ساهمت هذه الأمور في إبراز شخصية الإنسان الفردية .

« مع أن اليونان كانوا متطورين بالنسبة لقبائل الصيد ، فإن سقراط حين كان يوجه نقده الحاد للأسلوب الذي يتلقى الناس به معارفهم ، وكان يطرح أسئلة ثاقبة تعدُّ تحدياً للأفكار التقليدية متسائلاً عن الطريقة التي تمَّ بها التوصل إلى هذه الأفكار .. » (ص ١٥٩) .

« على الرغم من أن أثينا أنجبت سقراط ، فإن المجتمع الأثيني كان عاجزاً عن التسامح مع مثل هذه النزعة الفردية ، والحكم بالإعدام الذي صدر عليه يوضح الحدود التي لا يجوز أن تتعداها النزعة الفردية في ذلك التاريخ » (ص ١٦٠) .

« وكان الاسبرطيون من سن السابعة يتلقون تعليماً يعدهم للنظام العسكري الصارم والطاعة المطلقة للدولة » (ص ١٦١) .

ويذكر توينبي كيف استقبل اليونان والرومان الفكرة المسيحية

على أنها سرطان اجتماعي مسؤول عن تحلل الدولة ، ويـذكر عن شاعر روماني أنه قال : إن شاباً كريم المحتد ينتمي إلى أمتنـا ، شـابـاً لا يعوزه الحسب انساق وراء الخبل وفكرة هجران الدنيـا .. إلى أن جـاء جيبون ووصف انتصـار البربريـة والـدين . وقــد وسـع الشرح عــالم في القرن العشرين ضليع في علم أصول الإنسـان لا يقل عن جيبون وهـو فريـزر وقد قال فريزر في كتابه الغصن الذهبي :

فقد قام المجتمع اليوناني ـ الروماني على فكرة خنوع الفرد للجماعة وسيطرة الدولة على المواطن . وتجعل هـذه الفكرة سلامـة المجتمع منـاط السلوك وهدفه الأسمى وتؤثرها على سلامة الفرد في الـدنيـا والآخرة .. على أن انتشار الأديان الشرقيـة وذيوع تعـاليمهـا قـد غيَّر هـذا الطـابع بأسره وبثَّ فيهم اعتبار الخلاص السرمدي هو المأرب الوحيد بتكريس الحياة من أجله . ومقابل هذا أصبح ازدهار الدولـة بل وحتى وجودهـا في أدنى درجات الأهمية والتقدير .. واستمرت هـذه الفكرة تسيطر ألف سنة على عقول الناس ، ثم كان إحياء القانون الرومـاني وفلسفـة أرسطو والفنون القديمة في أواخر القرون الوسطى .

وهكـذا انقضى التوقف الطويل الـذي كابـدتـه الحضـارة وانحسر غزو المد الشرقي وما يزال في انحسار متصل) . ثم يقول توينبي :

« ولكن ما رأي الناظر في بعض الأساليب التي تبدت بها عودة أوربا إلى المثل العليا إنه جيل آخر من الوثنية »[1] .

نقلنا هذه الكلمات لتدل على رؤية تسلسل المشكلة الإنسانية ، كيف أن إعادة الاعتبار للإنسان والتفرد ، أو إعادة التوحيد إلى الإنسان يعتبره فريزر عقبة أمام الحضارة بينما يعتبر توينبي فريزر عائداً للوثنية . الأمر واضح من ناحية كيف عبَّر كل واحد عن رأيه ، ولكن ما مقدار الصواب وأين بدأ التاريخ وأين يتجه ؟

واضح أن الحضارة اليونانية ـ الرومانية استُعبدت الإنسان للدولة . والحق أن المشكلة ليست في سلامة الفرد وحده أو سلامة المجتمع فقط ، ولكن في سلامة الجميع ، لأن سلامة الجميع بدون اجتهاد الأفراد ليست بشيء ، ولا يتجاوز ذلك المجتمع مجتمع النمل ، والفرد بدون المجتمع صفر . والعلم والنظر والتأمل كيف يتم الخلق هو الذي يضع كل شيء موضعه المناسب . والأفراد الذين ينظرون كيف يتم الخلق ، كانوا في موضع الاضطهاد مثل سقراط . وهذا ما نجده في قصص الأنبياء والأمم .. كانت الأمم تواجه هذه النظرات التي يأتي بها الأفراد بقولهم : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾

(١) دراسة للتاريخ ؛ توينبي ، ١٤٥/٣ ، طبع ١٩٦٠ . ويذكر توينبي أيضاً نماذج لهذه الوثنية الجديدة التي تمثلت في النازية والفاشية والعنصرية .

[القصص ٣٦/٢٨] ، ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ [طه ٦٣/٢٠] ، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم ١٣/١٤] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ ٣٤/٣٤] .

والعلم ينتج دائماً من المبادرات الفردية التي نبتت في أرض المجتمع ، هذا هو الواقع ولكن المجتمع يريد أن يكبت هذه المبادرات حتى في الأمور الكونية التسخيرية ، وهنا لا بد من وضع قاعدة للعلم والحق أساسها أن الأفراد الذين يتبين لهم هذا عليهم أن يتحملوا الأمانة التي ألقيت عليهم ويتحملوا ضغط المجتمع ؛ لهذا على الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس أن يصبروا صبر أولي العزم من الرسل ، وكما يقول محمد ﷺ : « رحم الله أخي موسى إنه أوذي أكثر من هذا فصبر » .

لا بد من عرض التاريخ وإضاءته لإدراك كيف تعلم الإنسان بمعاناة .

لا بد من كشف السنة والقانون ليتمكن الإنسان من الصبر ، ولا يتم ذلك إلا إذا كشف قانون الجهد المكافئ . والكون خلق مسخراً للإنسان شرط أن يعلم الإنسان قانون التسخير ؟ لهذا فإن الأمر ليس بالسهولة المفرطة ولا بالتعقيد المعجز ، وإنما بالمعاناة التي تكون العاقبة

فيها بجانب الحق ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرّعد ١٧/١٣] ، فعلى أهل العلم أن يبينوا و يبلغوا .

إن فكرة التوحيد خروج من الآبائية وعبادة الآباء ، وهذه الفكرة ـ الخروج من تقليد الآباء ـ هي الأرضية التي نبتت فيها كل الإنجازات البشرية حتى التي كانت في صورة معارضة للدين إنها لم تكن معارضة لجوهر الدين وإنما كانت معارضة بكل وضوح لفكرة الآبائية .

والآباء كانوا حريصين دائماً على صبِّ الأبناء في قوالب تسد عليهم المنافذ ، والإنسان عنده مرونة كبيرة في تقبل القوالب التي يمكن أن يُشَكَّل عليها ، كما أن له توقاً وتطلعاً إلى الحق . إن هذه الطبيعة المزدوجة للإنسان تُمَكِّن الاستفادة منها بفنية كاملة لإيجاد الإنسان الذي يلتزم بالجماعة ، ولكن لا يسكت عن قول الحق . فالصحابي بلال ـ رضي الله عنه ـ كان يشعر بهذه المسؤولية وأنه ليس صفراً وأنه يمكن ، بل يجب أن يؤدي دوره حين كان يعلن أحد أحد وهو تحت التعذيب ، ولم يقل في نفسه : إن المشكلة فوق طاقتي ، فمن أنا حتى أزج بنفسي في هذه المعركة ؟ أجل ! لقد كان عبداً غريباً طارئاً . كان عبداً من الناحية القانونية ، ولكن كان يمارس الحرية والمسؤولية

بشكل لم يكن في مقدور من يعيشون في عالم ألغيت فيه العبودية قانونياً بل إنهم محرومون من لحظة يشعرون فيها بأنهم يمارسون حقهم في تبني ما يرونه حقاً و يلتزمونه علانية .

وعند هذه النقطة يبدو صراع الحضارة مع التخلف وصراع التوحيد مع الوثنية . الحضارة والتوحيد يقولان للإنسان : عليك أن تمارس هذا الحق فأنت مسؤول أمام الحق وحده أمام الله الذي خلق بالحق وأمام نفسك . أنت الذي تحمل الحق وتلتزم به ، وهذا الحق لك ومن ينازعك فهو المتخلف المشرك ﴿ لآإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة ٢٥٦/٢] ، « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » كما قال عمر رضي الله عنه .

وجاليلو وهو يعلن أنه يترك الهرطقة أمام هيئة الإدانة كانت تتقد في نفسه شعلة الحق والعلم ، وإن كان آثر أن يتخذ موقف الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

إن من لا يقف عند الرسوم والأشكال يعرف أين يتمركز الزبد وأين يبقى ما ينفع الناس ؟ إنها ملّة إبراهيم ـ الأوّاه الحليم ـ الذي يلتزم الحق ويرحم الخلق مع أنه لا يكف عن إعلانه في أنه لا يحب الآفلين ، ويظل يكرر : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَاأَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً . فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام ٨١/٦] ، ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. ﴾ [الممتحنة ٤/٦٠] .

لقد وضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ الآبائية في الميزان ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يخون الحق والضمير في سبيل الآباء ، إنه موطن الصراع : الحق والضمير أم الآباء والمجتمع ؟ إن الحق والضمير ليس ضد الآباء والمجتمع وإنما ضد الباطل والخطأ . وهذا التمييز ضروري حتى لا نخرج عن العدل .

إن الآباء في عصر التخلف يريدون من الإنسان أن يكون مثل سائر الأشياء التي يستخدمها الإنسان ويسخرها ، بينما يقول له العلم والتوحيد : أنت لست كالأشياء .. إنك خلق آخر . ويعزز فريزر النظرة السلبية عندما يشكو من أن الأديان الشرقية قضت على ديانة اليونان والرومان التي كانت تصوغ الفرد على أنه للدولة أو المجتمع ، ولا تبالي بسلامة الفرد في الدنيا والآخرة ، وأن الفكرة الشرقية استمرت في السيطرة ألف سنة على عقول الناس ، ثم كان إحياء القانون الروماني وفلسفة أرسطو في أواخر القرون الوسطى بعد الفكر المسيحي . وإن ما يقول عنه فريزر : « ثم كان إحياء القانون

الروماني » هو أن يكون الإنسان مثل سائر أشياء المجتمع ، وكذلك فإن توينبي يُشبِّه جيوش الإمبراطوريات بضواري الرعاة ، وكما يشبِّه الإنسان في مواطن أخرى بالفرس أو القارب .

والآن : إن فكرة اليونان والرومان عادت وسيطرت على العالم فجميع جيوش العالم تلقن أفرادها أن ينفذوا أوامر قادتهم بدون تردد أو تذمر ، وألا يعترضوا إلا بعد تنفيذ ما أمروا به .

هذا النظام يجعل الجندي مثل البندقية أو المذياع . إن البندقية لا يمكن أن تمتنع عن الانطلاق حين يضغط على الزناد ، ولا تقول : إنني لن أقتل هذا لأنه بريء أو لا يستحق القتل . والمذياع لا يمكن أن يقول : سوف لا أنقل هذا الخبر لأنه باطل . والسوط لا تمتنع عن الهوي على جسد إنسان لأنه غير مدان . وهكذا تريد الحضارات والدول في العالم الآن أن يكون جنودها ، بينما التوحيد والعلم والأديان تقول للإنسان : لا يجوز لك أن تكون بندقية أو عصا أو ميكروفوناً بأيدي الناس . أنت خلق آخر تميز الخطأ من الصواب والحق من الباطل ، لهذا لا يجوز لك أن تطيع في معصية : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، « إنما الطاعة في المعروف » ، كما تقول له : إن العمل الذي تقوم به أنت مسؤول عنه ، ولا تعفيك السلطة التي أصدرت الأمر ، إذ الكل مسؤول .

يوم القيامة يقولون : ﴿ رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنا وَكُبَراءَنا فأضَلُّونا السَّبيلا . رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً ﴾ [الأحزاب ٦٨/٣٣] ، ﴿ رَبَّنا هؤلاءِ أَضَلُّونا فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ . قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [الأعراف ٣٧/٧ـ٣٨] . وهـذه الفكرة هي الفكرة الأساسية التي تخالف فيها الأديان التوحيدية الحضارات ؛ لهذا اعتبر توينبي الحضارات نكوصاً عن الأديان العليا . فالأديان العليا إنسانية وسمو ، فالأديان العليا ليست هي سرطانات الحضارات كما تصورها فريزر وأضرابه ، بل الحضارات هي سرطانات الأديان ونكوص عنها ، تلد ذراري مثل النازية والفاشية والعنصرية . فهذه هي السرطانات[1] .

والأديان إنما تصاب بالنكسات حين تقلد الحضارات ، وحين يتحول الدين إلى وثنية ، ويلقن الناس أن العصمة للآباء والمشايخ .. إنه التدحرج السهل للمنحدر وليس الصعود الشاق إلى تنمية الضمير وممارسة الحرية التي هي المسؤولية .. وكما نقلنا من كتاب (العالم والغرب) أهمية ظهور النزعة الفردية في التاريخ ، كذلك ننقل من كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) ما يلقي على هذا الموضوع ضوءاً

(١) راجع الباب السابع من كتاب دراسة للتاريخ ، جـ٣ ، طبعة ١٩٦٠ م .

أيضاً ، وذلك للمتعود على كيف يمكن أن يبحث عن مسار التوحيد في التاريخ في عالم الواقع . ولكن من المهم أيضاً القيام بعملية الربط بين البحث التاريخي ـ الذي يحدث في الواقع والذي يأمرنا به القرآن وهو السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق ـ وبين الأسلوب الذي يعرض به الموضوع في الكتب المقدسة ، وهنا واجب الموحدين والشهداء بالقسط من الناس . يقول ويلز :

« وقد أخضع الناس بادئ الأمر فانضووا تحت شيء يعظم الجماعات القبلية بوازع من الخوف من الملك والله . ولم يحدث إلا في خلال الثلاثة آلاف أو على الأكثر الأربعة آلاف الأخيرة من السنين أن أصبح لدينا أي برهان واضح يدل على أن نكران الذات الاختياري في سبيل غاية أعظم وبغير أجر أو ثواب يُنتظر كانت فكرة مقبولة لدى الناس أو أن أي إنسان قد قام بطرحها على الناس .

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على سطح شؤون الإنسانية كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال في يوم رائح من أيام الربيع هو الفكرة القائلة : بأن هناك في تكريس النفس سعادة أعظم من أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي ، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدراً وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها ،

ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر يبهر الأبصار ، رأيناها في تعاليم (بوذا) و (لاوتسي) وبوجه أشد ما يكون وضوحاً في تعاليم (يسوع) الناصري .

ولم تفقد المسيحية قط تمام الفقدان أثناء كل ما ألمّ بها من التغيير والمفاسد ، التلويح بالإخلاص لملكوت الرّب الذي يجعل البذخ للملوك والحكام ، والذي يجعل ما عليه الأثرياء من أبهة وإشباع للشهوات أشبه شيء بتبذير اللصوص .

وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام بمستطيع أن يكون عبداً تام العبودية ، فإن في هاتين الديانتين صفة لا يمكن أن تحمي تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسؤوليتهم الخاصة نحو العالم »[1] .

ويقول توينبي في كتابه (تاريخ البشرية) في الفصل الخامس والعشرين :

« انطلاقات جديدة في الحياة الروحية : من عام ٦٠٠ ـ ٤٨٠ ق.م ، في فترة لا تتجاوز ١٢٠ سنة مدة أربع أجيال فقط ظهر

(١) ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ص ١٠٣٧

خمسة من كبار الحكماء في العالم القديم ، وهذا الزمن يتسع من عام ١٠٦٠ ق.م إلى عام ٦٣٢ م . وهي سنة وفاة رسول الإسلام ﷺ .

١ ـ زرادشت : أفعاله تمت في السنوات المبكرة من القرن السادس قبل الميلاد ومجال نشاطه حوض نهري سيحون وجيحون .

٢ ـ أشعيا الثاني : عاصر قورش الذي سمح بعودة اليهود من بابل وكان ذلك ٥٣٩ ق.م .

٣ ـ بوذا : لعله كان يعيش نحو ٥٦٧ ـ ٤٨٧ ق.م نشاطه في بيهار الهند .

٤ ـ كونفوشيوس : إذا صح زمنه فهو ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م ، موطنه الصين .

٥ ـ فيثاغورث : معاصر لبوذا تقريباً ولد في جزيرة ساموس .

ولا يزالون حتى اليوم يؤثرون في الإنسانية مباشرة أكثر من أي كائن بشري حي .

أهم الخصائص لهؤلاء الحكماء الخمسة هي أن يصل الكائن الإنسان الفرد إلى علاقة شخصيته مع الحقيقة النهائية . فكل هؤلاء الحكماء الخمسة خرج عن تراثه في خضوعه الروحي للجماعة التي ولد فيها ، فإنه

بتحديه التقاليد رفض كلتا العبادتين ، عبادة الطبيعة وعبادة الإنسان . وكل هؤلاء اهتم أن يقود الناس الذين يتعامل معهم إلى الطريق الجديد الذي كشفه . بوذا وفيثاغورث كانا يشتركان في عقيدة أن الموت ليس نهاية الحياة . وبسبب دعوة هؤلاء الحكماء تبدلت رؤية الحقيقة والسلوك البشري بشكل لا يمكن الرجوع عنه . وأشعيا أول موحد يهودي وأقدم الموحدين في أي مكان منذ أخناتون في محاولته الفاشلة » .

هذه الرؤية التاريخية لتطور العقيدة والسلوك تتميز بإبراز جانبين هامين : الأول : تلمس الهدى خارج المجتمع ؛ بمعنى الخروج عن التعبد للمجتمع والاستنامة إلى تقاليد الآباء . والثاني : إن الموت ليس نهاية الحياة .

والقرآن الكريم يعرض هذا الواقع التاريخي بشكل متسلسل بصرف النظر عن تحديد الزمن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ٣٣/٣] . وفي ضوء آيات الآفاق والأنفس سيأخذ التوحيد بعداً جديداً في عالم المستقبل .

ولا بد من معرفة ما كابدته الإنسانية خلال التاريخ من انسحاق كرامة الإنسان في طقوس العبادات السياسية منذ أن كان يقتل خدم

الملك عند دفنه ، وما كان يحدث في الهند من إنهاء حياة الزوجة بعد وفاة زوجها .. وحتى اليوم حيث يعتبر الإنسان مثل العصا فينفذ دون أن يكون له حق الاعتراض .

إن من يتتبع كيف بدأ الخلق ، وكيف ينمو ويزداد ، يأخذ فكرة جديدة عن المبدأ والمصير ، وتظهر له فكرة التوحيد كحاجة إنسانية لا تتم إلا برفع مستوى الناس جميعاً إلى درجة تحمل الأمانة والمسؤولية ، وأن كل فرد عليه مسؤولية من كل خطأ يقع في العالم . وإذا ما وقع اعتداء على إنسان في العالم فكأنما حصل الاعتداء على كل إنسان في العالم ، فكما أن الخالق واحد ، فكذلك مصير البشرية واحد .

ويحسن هنا أن نذكر حدثاً تاريخياً يساهم في إلقاء الضوء على الأهداف التوحيدية في رفع مستوى الإنسان وإشعاره بالمسؤولية الفردية المتوحدة عن مصير الناس أجمعين . وإن من المتعارف عليه عند المجتمعات البشرية أن يدلي من يتولى الأمر ببيان يحدد فيه المنهج ويذكر الناس بالأمور ذات الأهمية للمجتمع .

وفي أول خطبة واجه بها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - المسلمين حين بويع بالخلافة ، تبرز أهمية التوحيد بمعنى تحديد شروط الطاعة للرؤساء وأولي الأمر ؛ فقد ذكَّر الناس بالمبدأ الأساسي في

الإسلام أنه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . يقول الخليفة الأول أبو بكر :

« أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيتهما فلا طاعة لي عليكم » .

إن إعلان هذا المبدأ من قبل الخليفة في أول خطاب يوجه إلى المجتمع دليل على أهمية هذا المبدأ بالنسبة للمتكلم وللمجتمع الذي يوجه إليه هذا الكلام ، إنه تذكير لهم أن لا يكونوا سياطاً وأبواقاً لولاة الأمور ، إن أهمية مثل هذا المبدأ وحاجة الناس إليه ستظهر في المستقبل . والعالم الآن في حاجة إلى أن يتعلم مثل هذا الدرس وأن يستعيده .

إن العالم حين يتخلص من وثنية الآباء والسادة والكبراء سيتذكر أياماً في تاريخ البشرية أعلنت فيها مبادئ كرامة الإنسانية ، ليس كحق فقط ، بل كواجب لا يجوز أن يُتنازل عنه ، وعليه أن يعلنه أينما كان لا يخاف في الله لومة لائم .

إن هذه الأضواء المبهرة انطفأت في خضم الأحداث ، وحتى الذين أعلنت فيهم مثل هذه المبادئ من قديم هم اليوم أبعد الناس من أن تكون حياتهم مذكرة بشيء من هذا ، بل سرعان ما تحول مثل ذلك

الخطاب النموذجي إلى نوع آخر من الخطـاب ، كأن يقول والي الأمر في تحديد أسلوب انتقال الحكم : الخليفة هذا ويشير إليـه ، ثم يقول : وإن هلك هذا فالخليفة هـذا ويشير إلى ولي العهـد .. ومن رفض هـذا فلـه هذا ويلوح بالسيف .. وتضيع الاحتجاجات الخافتة التي تقول : ويلكم أتعيدونها هرقلية إذا ذهب هرقل جاء هرقل .

ليس المهم مقدار صـدق الروايـة الخـاصـة بهـذا الموضوع ، ولكن الأحـداث واتجـاه سلوك النـاس كانت ولا تزال تصـدق هـذا وتتحـدى إعلان أبي بكر والعهـد الـذي كان يـأخـذه رسول الله ﷺ من كل من بايعه على أن يقول بـالحق حيثـما كان لا يخـاف في الله لومـة لائم ، وأن لا يطيع في معصيـة وفق الإعلان القرآني : ﴿ تَعَـالَـوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أنْ لاَ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِـهِ شَيْئـاً وَلاَ يَتَّخِـذَ بَعْضُنَـا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِـأنَّـا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ٣/٦٤] .

إن قانون ذهاب الزبد جفاء وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض هو الذي سيعيد الحياة إلى هـذه المبـادئ والـذين سيجنون حصـاد هـذا البـذار هم الـذين يتلقـون آيـات الله في الآفـاق والأنفس ، وهم الـذين يعرفـون سنـة الله وقـانـون عمـل الله في التـاريـخ ، وكيف يخلـق الله التاريخ ، وكيف يساهم البشر في صنع هذا التـاريخ بما حبـاهم الله من

سلطان التسخير ؛ هذا السلطان هو الذي يرفع الإنسان من عالم الأشياء إلى الخلق الآخر والذي يسميه إقبال : (النيابة الإلهية) . أي إلى حالة إدراك الإنسان إمكاناته كفرد في قدرته على إنقاذ نفسه والآخرين ، والمساهمة في إضاءة هذا الطريق . هذا ما كان يعلمه الأنبياء للناس ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التّحريم ٦/٦٦] .

إن السلوك الذي ينقذ في الآخرة من الجحيم هو السلوك نفسه الذي يخلص الأفراد والمجتمعات من جحيم التخلف والإذلال الذي يمارسه المستكبرون في الأرض . ونحن نتجرع ألوان الإذلال غصصاً : نتجرعه ولا نكاد نسيغه .

إن تخليص أنفسنا من الاستضعاف وتخليص الآخرين من الاستكبار طريقه واحدة لأن منشأهما واحد ، وهو نزع الكرامة من الإنسان ، لأن المستضعف ينزع الكرامة من نفسه ويغري الآخر بأن يستمرئ نزع الكرامة . والمستكبر الذي ينزع الكرامة من الآخر هو نفسه قد نزعها من نفسه قبل ذلك ، لأن من يتذوق الكرامة يعلم أنها وحدة لا تتجزأ ، فإذا انتزعت من أحد فإنها لا تسلم لأحد ، لأنه يذهب من كرامته بقدر ما انتزع من كرامة الآخر ، وبقدر ما تهين الإنسان يعود إليك من الهوان مثله .

والتوحيد الذي نحتفظ به لله يعود علينا في المجتمع بوحدة الكرامة للبشرية جمعاء . فوظيفة التوحيد الاجتماعية هي تقويم السلوك الإنساني الذي به تتحقق إنسانية الإنسان . فأي إنسان تقع عليه مظلمة ، فكأنما وقعت هذه المظلمة على الناس جميعاً ، لأنه مادام هناك ظلم يقع بغير حق فإنك لست آمناً أن يصيبك ما أصاب غيرك من ظلم : ولهذا من سعى إلى إحياء الكرامة الإنسانية في إنسان ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيْعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة ٥/٣٢] .

إن فكرة (من قال لشيخه لِمَ ؟ لا يفلح أبداً) لا تزال تأخذ مجراها إلى يومنا هذا ، فجميع دول العالم ومؤسساته تلقن الناس أن يطيعوا الأوامر وينفذوها من غير أن يكون لهم الحق في الاعتراض قبل تنفيذها . إن هذا الإجماع العالمي يخرقه الدين حين يقول ﷺ : « لا طاعة في معصية .. » ، وهذه الفكرة لا يستسيغها العالم الآن لأنهم لا يريدون أن يتعاملوا مع إنسان يراجعهم ويزن الأوامر التي يصدرونها إليه ، إنهم يرون أن إعطاء مثل هذا الحق للناس وللجنود فساد للنظام البشري وإحداث للفوضى ، مع أن هذه الفكرة هي التي يجب أن تقوم عليها حضارة الإنسان .

هـذا الموضوع لم يطرح بعـد كمشكلـة ، لأن هـذا يقتضي من كل إنسـان ولو كان في أدنى رتب الجنـديـة أن يكون واعيـاً للـدستور حتى يميز الموافق له من المخالف .

إن العالم الذي تطبق فيه نظريـة الـدين يختلف كليـاً عن العـالم الـذي نعيش فيـه من أدنـاه إلى أعـلاه ، وحين استشعر أبـو الأعلى المـودودي ـ رحمـه الله ـ هـذا المعنى قـال : « إن جنرالات العـالم الآن لا يصلحون أن يكونوا مجنـدين في الجيش الإسـلامي .. » لأن الجنـدي الذي ينفذ ما يؤمر به دون أن يعترض ، هو خطر على الآمر أيضاً .

هذه الأفكار بـدأت تعرض من جـديـد وتكشف من قريب ولمـا تأخذ مجراها بعد في أقنية المؤسسات الثقـافيـة ، ولم يتكيف العـالم بعـد لتصور إمكان العـالم الـذي ينبثـق عن مثـل هـذه الأفكار . والشهـداء بالحق والآمرون بالقسـط من النـاس عليهم أن يقوموا بـدورهم في حمل الأمانة والبلاغ المبين .

وخلاصة القول :

إن العلم والتـوحيـد يشتركان في أمـور ممـا يجعلهما متحـدَيْ المعنى أو جانبين لموضوع واحـد .. أولاً : لا يمكن أن يتحقق التوحيـد بـدون علم ؛ لأن التوحيدَ يأتي بعد العلم كما يأتي التسخير بعد العلم . ثانياً : إن

الخطأ في أي من العلم والتوحيد تأتي عقوبته التي لا تغتفر ولو بعد حين . ومعلوم في الإسلام أن الذنب الذي لا يغتفر هو الشرك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النّساء ٤٨/٤] . وكذلك الخطأ في العلم نتيجته فورية وحتمية ، فإذا أخطأت في استعمال الدواء أو الطاقة الكهربائية ، أو أعطيت معلومات خاطئة في الحياة الاجتماعية .. تأتي العقوبات حتمية وغير متسامحة .. فالسموم تقتل ، والكهرباء تصعق ، والمعلومات الخاطئة في الحياة الاجتماعية تجعل علاقات الناس مأساوية .

ثالثاً : إن العلم والتوحيد يتساوى موقفهما من عالم الأشخاص ـ الآباء ـ في ضرورة وضع عالم الأشخاص موضع الاختبار وعدم قبول ما يكون عليه عالم الأشخاص إلا على قدر ما يكون فيه من الصواب الذي تثبته عواقب الأمور . وإذا كان عالم الأشخاص يقدم لنا العلم والتوحيد ، إلا أن العلم والتوحيد لا بد أن تجري فيها دائماً عمليات التصحيح والضبط .

الفصل الثالث

الأجِنَّة القُرآنيّة

الأجِنَّة القُرآنيَّة

يـذكر إقبـال بـأسى وأسف إهمـال الأجنـة القرآنيـة في مجـالات العوامل المؤثرة في صنـاعـة المجتمع . ويقول في رسـالتـه إلى نيكلسـون : « إني مقتنـع تمـامـاً بـأن فتـح البـلاد لم يكن من البرنـامـج الأسـاسي للإسلام ، والحق أنني أعتبر من الخسارة الكبرى أن يوقف تقـدمَ الإسلام كإيمان فاتح نموَّ (أجنَّة) التنظيم الاجتماعي والـديمقراطي والاقتصـادي التي أجدها متوزعة في صفحات القرآن ، وفي سنَّة النَّبي »[1] .

والآيات التي سنعرض لها في خـاتمـة كتـابنـا هي بهـذا المعنى أي لإحياء الأجنة التي طالما بقيت في حالة كمون .

وعلينا أن ننبه إلى أن الأسلوب الذي نتناول بـه الآيـات يختلف كثيراً عن الأسلوب الذي يحاول التقاط إشارات من القرآن للدلالـة على مسـائل وجزئيـات في العلم الحـديث ، بينـما الجـانب الـذي نهتم بـه هـو إيضاح مبادئ ومنـاهج (إنتـاج المعرفـة والعلم) ، وليس بحث مسـائل العلم ، ومن هذا المنطلق كان اختيارنا للآيات التالية :

---

(١) انظر الأفروسيوية ، مالك بن نبي ص ، ط ٢ ، ١٩٨١ ، دار الفكر دمشق .

١ ـ ﴿ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] .

٢ ـ ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصّلت ٥٣/٤١] .

٣ ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الجاثية ١٣/٤٥] .

٤ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ﴾ [البقرة ٦٢/٢] .

- ١ -

﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾

[العنكبوت ٢٩/٢٠]

كلمات هذه الآية واضحة لا غموض فيها ، ومعناها لا يستعصي على أي ناطق باللغة العربية ، وحتى الأطفال يمكنهم أن يفهموا المعنى دون مشقة . ولكن مع ذلك لم يخطر في بال الناس ماذا سيتكشف من هذا المعنى ومن مضمون هذه الآية ، ونحن لا قدرة لنا على الإحاطة بهذا المحتوى ، ولكن تبين لنا وكُشف لنا مالم يكن يخطر على بال الأولين ، وسيرى اللاحقون مالم يتيسر لنا أن نراه نحن ... تحتوي الآية الكريمة على منهج محدد للبحث يشمل جوانب العالم المادية منها وغير المادية ، الجواهر والأعراض حسب تعبير الأقدمين . فالموضوع يشمل كل الكائنات من الذرة وما دونها في الصغر إلى المجرة ، بل وعموم الكون من المواد العضوية الأولى إلى الإنسان الذي هو في أحسن تقويم عضوياً وفكرياً واجتماعياً .. ومن الأفكار الأولية إلى أعقدها .

وتتضمن الآية كل شيء يمكن أن يدرسه الإنسان ، فالآية موضوع لكل علم ، وعلى مقتضى هذه الآية ينبغي أن يُذكر في مقدمة

كل موضوع كيف بدأ خلقه ، حتى ما يتعلق بطريقة الإيمان بالله : كيف بدأ الإنسان يدرك معنى الألوهية .. إذن كل موضوع له بدء خلق بالنسبة لدخوله إلى إدراك الإنسان .

وبمقتضى ماتطلبه الآية ينبغي أن نعيد النظر في كل ما نراه من حيث كيف بدأ خلقه ؟

إن النظر التقليدي كان يتصور أن الكون خُلق كما هو ابتداء ، وإن تصور نوعاً من البدء والصيرورة فإن هذا التصور بعيد عن الواقع ؛ لأن عيش الإنسان عمر الحضارات ـ خمسة آلاف السنة الماضية ـ لم يحدث في حياة الناس تغيراً يذكر في وسائل عيشهم ، وهذا ماأوحى إليهم بأنهم خلقوا كما هو عليه ، وأن ماهم عليه لم يكن نتيجة تقلب في الأرض آلاف السنين بل مئات الآلاف والملايين . ولعل الخيال يساعدنا على تقريب الموضوع ، وهذا المثل والخيال أقتبسه من الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ في كتابه الأفرسيوية : حيث تصور كائناً غريباً عن الأرض ، لديه تفكير يشبه تفكيرنا في ناحية ويفارقه في ناحية أخرى ، فهذا الكائن لو أتى إلى الأرض ولا يعرف من حياة البشر شيئاً ورأى الأطفال والكبار والشيوخ ولم يكن يعرف من تاريخهم وبدء خلقهم شيئاً ، فلربما تصور أن البشر الكبار والصغار وُجدوا هكذا ، وأن الكبار لم يكونوا صغاراً وأن الصغار لن يكبروا .

إن هـذا المثل مع كل نواقصـه قـد يقرب إلينـا أن رؤيـة لحظيـة منقطعة الصلة عن (كيف بـدأ الخلق) تعطي صورة مشوهـة للواقع ، وحتى في كيفية التعامل معه ، وحين نرى إنساناً لا نعرف تاريخه فإننـا نتردد في كيفية السلوك الذي نتخذه إزاءه ، فكلما عرفنا تاريخه تكيَّف موقفنـا منـه ، وإن لنـا من كل شخص مسلكاً معينـاً ومـوقفـاً خـاصـاً حسب معرفتنا بتاريخه .

وإذا زرت منطقـة مـا في فصل من فصـول السنـة فـلا يمكن أن تتصور حـال هـذه المنطقـة في بقيـة الفصـول إلا إذا كانت لـك معرفـة بالفصول والتغيرات التي تحدث خلال سنـة ، وإن كان بعض المخلوقـات لا تعرف من السنـة إلا جزءاً منهـا فـولادتهـا ومـوتهـا يكـون في فصـل واحد .

والآن إذا أردنـا أن نكيف تصورنـا وفق قولـه تعـالى : ﴿ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ فقد يحدث لنا تصور أن الخلق ليس شأنه أنه خُلق وانتهى ، بل إننـا نحن نُخلق الآن والكون يُخلق كما كنـا صغـاراً ، ولا نزال نُخلق خلقـاً من بعـد خلـق ، كـذلـك الكـون لا يزال يُخلـق لا أنـه خُلِـقَ وانتهى ، وإنمـا هـو الآن في بعض مراحـل خلقه فهو قد مرَّ بمراحل معينـة ويعيش في مراحل أخرى وسيصير إلى مراحل تالية .

وكـذلـك لـو تخيلنـا الإنسـان الفرد كيف بـدأ خلقـه من خليـة واحـدة ، ثم كيف نما وانتهى إلى أن صـار كائنـاً حيّاً عـاقلاً يسعى في مناكب الأرض ، ومع أن خلاياه تتغير وتتبدل فهو كائن واحـد بـاق . كـذلـك يمكن تصـور الإنسـانيـة ككائن واحـد ، أفراد البشر خـلا يـاه يـدخلون إليـه ويخرجون كما تولـد الخلايـا في الفرد وتخرج منـه ، وإذا نظرنا إلى البشرية كمخلوق واحد فربما أمكننا تصوره في مرحلة مـا في مرحلـة شبـه طفوليـة أو مراهقـة . وربما لا يزال الآن في مقتبل العمر فهو لم يصل بالتـأكيـد إلى مرحلـة الرشـد المتوقع لـه فهو ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَـاأَمَرَهُ ﴾ [عبس ٢٣/٨٠] . وبهـذا المعنى فسَّر إقبـال قـولـه تعـالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان ٢٨/٣١] .

ومن المعاني التي تـدل عليهـا الآيـة أيضـاً : أن معرفـة كيف بـدأ الخلق ، وفهم الأمور على هذا المستوى ينبـه الإنسـان إلى أن هـذا الخلق قـد ينمـو ويتقـدم ويتحسن ؛ لأن من عرف كيف بـدأ الخلـق ضعيفـاً وعاجزاً ثم نمـا نمواً بطيئـاً ، وأن هـذا النمو اقتضى دهوراً طويلـة . فقـد يقوده التأمل في بدء الخلق إلى التفكير في مصير الخلق ، ليس مصيره في يوم النشور ، بل مصيره الدنيوي أي نهاية هذا الخلق الذي عرفنا شيئـاً من بـدء خلقـه . وهـذا المعنى وإن كان غريبـاً عن الأجـواء الثقـافيـة التقليديـة ، إلا أن فهم آيـات الله في الآفـاق والأنفس ، وفهم شيء من

كيف بدأ الخلق .. يطرح هذا الموضوع على بساط البحث والتفكير والتأمل ، لأن من نظر إلى بدء الخلق سيتخيل مصيره إذا أدرك أن الخلق ينمو و يتقدم مستمراً ، لا أنه خلقٌ غير قابل للنمو أو خُلق خلقاً معاقاً غير قابل للتجاوز . فإذا نظرنا إلى الآيات الواردة في هذا الموضوع - حسب ما يتسرب إلينا من النظر الكليل الضعيف الذي يشتهي أن يرى ما سيراه الذين يأتون من بعدنا من آيات الله في الآفاق والأنفس مما يشرح و يوضح في هذا الموضوع - سنرى أن الله لما استخلف آدم وذريته في الأرض وأعلن للملائكة هذا الموضوع ، اعترضوا على هذا بقولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] ، فأجابهم ربُّ العزّة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] . والله سبحانه وتعالى لم ينفِ هذه التهمة عن الإنسان ، ولكن أعلمهم أن هناك شيئاً آخر عن الإنسان لا تعلمه الملائكة .

وإذا كان البشر لا يزالون على توقعات الملائكة إلى يومنا هذا ، فإن ما علم الله في هذا الإنسان صار الآن يراود البشر الذين نظروا إلى كيفية بدء خلق الإنسان : كيف يمكنهم تحقيق ذلك . وهكذا نرى أن آية استخلاف آدم تدل على أن هذا الذي علمه الله في شأن الإنسان هو في هذه الدنيا ، وأن علم الله هذا سيتحقق ، هذا العلم الذي لم يكن في

إمكان الملائكة علمه كما لم يكن في إمكان البشر إدراكه حتى رأوا من آيات الله في الآفاق والأنفس ماتدل عليه وتشير .

وكذلك قوله تعالى حين ذكر ما سخر الله للإنسان من الخيل والبغال والحمير لركوبها والتزين بها أتبع ذلك القول بقوله الكريم : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٨/١٦] ، أي يخلق ما لا تعلمون في هذا الموضوع بالذات وغيره من المواضيع أيضاً . ولقد رأينا نحن في القرون الأخيرة القليلة مالم يره الذين سبقونا مما سخر الله للإنسان ومما خلق . وفهم قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ مع التاريخ المشاهد الواقع يلقي الضوء على القول الكريم الآخر : ﴿ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، والموضوعان متشابهان جداً في الإعراب والدلالة على أن الخلق يزيد ، ويزيد إلى التحسن والتقدم ، والزيادة في التسخير في موضوع وسائل النقل واضحة جداً ، وإن كان لا يزال الأمر الآن كما كان مع ما خلق من الزيادة مما لا نعلم ، يمكن أن يخلق مالم نعلم أيضاً ، وكذلك في موضوع الإفساد في الأرض وسفك الدماء فإن الله سيخلق وضعاً واقعياً كما خلق في وسائل النقل خلقاً واقعياً آخر حيث سَيَخْلُقُ ـ جلَّ جلاله ـ سلوكاً يقل فيه الفساد والسفك إن لم نقل سينعدم فيه الفساد والسفك .

وإن من لا يعرف جيداً كيف بدأ الخلق وبأي المراحل مرَّ

الإنسان وكيف نما وتقدم وتحسن ، إن من لا يعرف ذلك لا يعرف معنى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ولا معنى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ولا معنى ﴿ وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ ولا معنى ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ ، بينما الذي اكتسب هذا النظر من السير في الأرض والنظر من كيف بدأ الخلق ، سيقرأ مرة أخرى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ بنظرة جديدة ، وخاصة حين يتابع قراءة هذه الآية ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ . إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] ، فهذه النشأة الآخرة وإن كانت ثقافتنا القاصرة المحدودة تقصرها وتحدها بالنشأة الآخرة في يوم النشور ، إلا أن إمكان أن يكون المعنى عاماً يشمل الدنيا والآخرة محتمل وارد ، وخاصة حين نتذكر أن الآيات السابقة تدل على نمو وتحسن في الخلق والتسخير في الدنيا خاصة .

والخلاصة إن هذه الآية تنقل موضوع بحث معرفة كيف بدأ الخلق من آيات الكتاب إلى آيات الآفاق والأنفس إلى السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق . وللأجيال القادمة وللذين سيرون آيات الله في الآفاق والأنفس نترك مصير مثل هذه البحوث مع تمنياتنا لهم أن يحققوا قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ومما يدل على البطء الشديد في الحركة الإسلامية أني لم أطّلع إلى

الآن على من تناول أو أشار إلى آية ﴿ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ، مع أن مشكلة بدء الخلق من أول الأفكار التي صدمت الفكر الديني ، وحتى الكتاب الذي ألفه في هذا الموضوع جمال الدين الأفغاني (الرَّد على الدهريين) يمكن أن يعتبر اتجاهاً إلى الوراء أكثر من أن يكون متطلعاً إلى الأمام ، وعذره في ذلك أنه كتبه في مطلع شبابه ، ومن ذاك التاريخ إلى الآن لا نجد مَنْ جعل آية النظر إلى كيف بدأ الخلق منطلقاً لبحث هذه المشكلة التي يعانيها الطلاب والأساتذة في العالم الإسلامي قاطبة ، وعلى الرغم من أن المشكلة ملحة والآية القرآنية ليست مثل الكتب المنسية فإن الفكرة المسيطرة تحول دون رؤية الأمور الواضحة التي تكاد تفقأ العين ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف ١٢/١٠٥] .

- ٢ -

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[فصّلت ٥٣/٤١]

١ ـ هذه الآية تستحق أن يكتب فيها كتاب خاص بها على نمط كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم ، إن ثراء مواضيع هذه الآية يجعلنا متأكدين أنها ستنال ما تستحق من النظرات الشاملة والعميقة في الفكر الديني والإنساني في المستقبل ، وأنه ستظهر دراسات ومؤلفات كثيرة في هذه الآيات تفتح آفاقاً جديدة فسيحة ؛ وإني حين أتناول بعض معانيها ومراميها أشعر أني بهذا الطرح أجعل نفسي من الذين بدؤوا يتطلعون إلى آفاق جديدة سوف لا تكف عن التوسع والتعمق من دارسين يأتون بعدنا سيمنحون من البيان والقدرة على حلّ كثير من الأغلال والآصار التي تثقل كواهلنا عن التقدم إلى ذلك العالم الجديد ، وإلى مستقبل كريم للإنسان المكرم ، المستقبل الذي يئس معظم البشر من بلوغه ولم تقدر الملائكة على تصوره وإمكانه (السلام العالمي) .

٢ ـ هذه الآية تنقل أدلة موضوع الفكر الديني الذي تقرره آيات

الكتـاب ، تنقـل مصـدر الأدلـة من آيـات الكتـاب إلى آيـات الآفـاق والأنفس ، وهذه النقلة البعيـدة المـدى لم تكن البشريـة مهيـأة لهـا من قبل ، بل لا تزال غير مهيأة لها إلى الآن . وانعدام هـذه النقلـة أو عـدم القـدرة على التكيف معهـا هو الـذي جعـل مصـدر أدلـة العلم والإيمـان مختلفة في أذهان العالم المعـاصر ، فجعلوا الـدين غير العلم ، وأن مصـدر العلم من الواقع ، ومصدر الـدين من الغيب . فهـذه الآيـة بهـذه النقلـة التاريخية التي لم يقدر البشر على تفهمها ، تـدمج الـدين دمجاً كاملاً في العلم الواقعي في المحيط الإنساني ، ليكون موضع تأمل الناس .

٣ ـ كما قلب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد ١١/١٣] ، مفهـوم النـاس عن التغيير الـذي كانـوا ينتظرونـه من الله ، ويرى البشر أنفسهم مثل الطين بين يـدي الخزاف تقيدهم الأقدار ، قلبت هذه الآية الفكرة رأساً على عقب فردت عمليـة التغيير إلى البشر ، واعتبرتهم مسؤولين عنهـا ، وهـذه هي الأمـانـة التي وضعت بين أيديهم . والبشر لظلمهم أنفسهم ولجهلهم بـالواقع ، لم يتعلموا ما عنـدهم من إمكانـات لحمل هـذه الأمـانـة التي عجزت عنهـا السماوات والأرض والجبال وأشفقن منهـا وحملهـا الإنسـان حمل استعـداد وإمكان واقتـدار ، وإن تبـاطـأ في تحويل هـذه القـدرات الممنوحـة لـه ، وفي إظهارها من القوة الكامنة إلى الواقع العملي في الحيـاة المتنـاميـة . وإن

إقبالاً كان يرى مثل هذه الإبداعات في الحياة البشرية وإمكاناتها الممنوحة له فعبر عنها بالشعر والمجاز والإيماء متخذاً أسلوب الصوفية في الإشارات ، إلا أن الموضوع لم يعد يكفيه إيماء الشعراء وإشارات الصوفية ، وإنما انتقل بكل ثقله وجلاله إلى علماء التاريخ الذين يسيرون في الأرض وينظرون كيف بدأ الخلق فيتبين لهم من آيات الآفاق والأنفس ما يجعلهم يتلون قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف ١٨/١٠٩] . والفكر الماركسي لبه ومبتداه ومنتهاه في إدراك محتوى هذه الآية حيث لحوا قدرة الإنسان على صنع التاريخ ، والقيام بعملية التغيير . فهذا الضجيج الذي أحدثه الفكر الماركسي خلال أكثر من مئة عام إنما كان في تبنيهم لهذه الفكرة وإدراكهم لها .

وحديثي هذا لا يعدو أن يكون مثل كلمات إقبال بل دونها ، وإنما المهمة الموضوعة الآن أمام الشباب والأمانة التي ينبغي أن يحملوها ، هي كيف سيجعلون أنفسهم مؤهلين للقيام بوظيفة التغيير الموكلة إليهم ، وما المؤهلات التي ينبغي أن يحصلوها حتى يتسلموا المهمة ويؤدوا الدور الموكل إليهم ليكونوا جارحة القدرة الإلهية كما يقول إقبال عن عبد الله الذي يبطش بيد الله ويمشي برجله ويسمع ويبصر

بسمعه وبصره على مقتضى الحديث القدسي عن العبد الذي ينال هذه المرتبة بتقربه من الله (بالفرائض والنوافل) فرائض الإيمان ونوافله وفرائض العلم ونوافله .

وجلال الدين الرومي يقول : « فحين يعطي السيد عبده الفأس فقد أعرب عن قصده بفعله فيما ينبغي أن يقوم به العبد » ، والله تعالى لما يقول للإنسان سوف لا أغيّر وضعك حتى تغيّره أنت فقد أسند إليه الأمانة واستخلفه على الأرض .

والجيلاني يقول : « الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق . والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لا من يكون مستسلماً مع القدر »[1] .

وابن القيم يقول : ليس الرجل الذي يستسلم للقدر بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله ، وكما قال عمر لأبي عبيدة بن الجراح لما قال له الأخير أتفر من قدر الله ، لما أراد عمر أن يرجع حين سمع بوجود الطاعون ، أجابه عمر : ويلك إنما نفر من قدر الله إلى قدر الله .. فهذه الكلمات يحمل كل منها طابع عصره ، ومعاصرونا لم ينطقوا بعد لأننا في عصر الصمت والمؤرخون المسلمون وعلماء النفس

---

(١) نقله ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين ، ١٩٩/١ ، طبعة دار الكتاب العربي .

والاجتماع لا يزالـون في صمت ، بـل لا يـؤمنـون بعلم التـاريـخ والنفس والاجتماع ، إنهم لا علم عندهم بآيـات الآفـاق والأنفس ودلالاتها وكيف بدأ الخلق ، فما أجمل ذاك العصر الذي سيتعلم فيـه الشبـاب قراءة آيـات الله في الآفاق والأنفس .

٤ ـ هـذه الآيـة آيـة الآفـاق والأنفس قلبت مكان الـدليـل ومصدره ، كما قلبت آية التغيير مفاهيم الناس . فـآيـة الآفـاق والأنفس حددت مكان الدليل ومصدره بـأنـه ليس الكتـاب ، فلا نطلب كيف بدأ الخلق من الكتـاب ، وإنمـا نطلبـه من السير في الأرض والنظر ، كما أمر بذلك الكتـاب ، فـالحكم في الكتـاب ، والـدليل في الواقع والأرض وآيات الآفاق والأنفس . وكذلـك سبق أن أشرنـا كيف أن الـذي حلّ النزاع في علم الفلك والأجرام السماويـة لم تكن النصوص ، وإنمـا آيـات الله في الآفـاق والأنفس ، لأن النصـوص لا تبحث علم الفلـك ، وإنمـا تلفت نظر الإنسان إلى مغزى هـذا الكون المليء بـالأسرار الـذي ينبغي أن يصل إليه هو في بحثه في الفلك وكذا سائر العلوم .

وحين أقول إن قراءة آيات الآفاق والأنفس لم تدخل بعد سـاحـة مطالعاتنـا ومفـاهيمنـا ، أعني مـا أقول . فنحن عـاجزون عن أن نُشهـد آيـات الآفـاق والأنفس على أن دين الله حق أو أن نعطي معنى قريبـاً

مبسطاً لمعنى آيات الآفاق والأنفس ، وأن دلالتها قطعية حين تستوفي شروطها .

٥ ـ في القضاء يطلبون البينة والأدلة والشهود ، والله تعالى يقيم على دينه وكتابه شاهدي عدل ، وهما آيات الآفاق والأنفس ، حين يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ، وهما شاهدان معتبران لهما حق الشهادة ، وميزة هذين الشاهدين أنهما نزيهان غيرُ مُتهمين بالتحيُّز والهوى ، فلهذا من استطاع أن يُشهد على قضيته آيات الآفاق والأنفس فقد استوفى نصاب الشهادة وأخرج الدليل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

وللمجادل أن يصادر آيات الكتاب ولكن لا يمكنه أن يصادر آيات الآفاق والأنفس ، فمن هذا الجانب صار دليل الدين دليلاً عالمياً إنسانياً علمياً ، وليس دليلاً لطائفة معينة من الناس : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ [النساء ١٧٤/٤] .

٦ ـ حينما كانت المعارف ظنية وتابعة للأهواء ، ولم تكن تشهد لها آيات الآفاق والأنفس ، كان النزاع يجري فيها ، ولكن حين قامت أدلتها من الآفاق تغيّر الوضع فخرجت الكيمياء من السحر لتصبح علماً دقيقاً . وهكذا حين بدأ علم النفس والاجتماع يأخذ أدلته من الآفاق

والأنفس صار علماً ، فكما لا يوجد فلك هندي وصيني ومصري و يوناني الآن كما كان موجوداً في السابق ، كذلك سيكون شأن الدين حين يصير علماً في ظل آيات الآفاق والأنفس .

والقرآن يعرض الدين كأمر واحد عالمي ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة ٢٨٥/٢] ، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً .. ﴾ [الشُّورى ١٣/٤٢] ، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران ١٩/٣] ، ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٠/٢ ـ ١٣٢] ، وعلى نهج هذه الآيات جاء قول الرسول ﷺ : « الأنبياء أبناء علات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى » (البخاري) .

٧ ـ يذكر إقبال أن هذه الآية جعلت آيات الآفاق والأنفس مصادر لمعرفة الحق ، فكأن هذا القول يظهر شيئاً جديداً في أدلة أصول الدين من الكتاب والسنة والقياس والإجماع ، وبمقتضى هذه الآية فإن آيات الآفاق والأنفس لها حق معرفة الحق وكشفه . هذا الحق كشيء مستنبط من الكتاب لا يؤدي دوراً كبيراً مثل قوله تعالى : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ، ولكن حين يبدأ الناس

يتعلمون كيف يتعاملون مع آيات الآفاق والأنفس فإن دلالة آيات الآفاق والأنفس تطلع ضوءاً مبهراً يحق معه أن يقال :

طلع الصباح فأطفئ القنديلا

ولكن الذين ظلوا طويلاً في الظلام يصيبهم العشى من الضوء الساطع .

وقد يرى بعض الناس في هذا الاتجاه خروجاً من الدين وتضييعاً له ، ولكننا نرى عكس ذلك . نرى أن هذا الأسلوب سيعطي المتدينين بهاءً كبيراً كما سيكون سبباً في دخول الناس في دين الله أفواجاً . وإن أمثال جارودي من مؤشرات هذا الاتجاه وإن كان لا يرضى عن أفكاره كثيرون آخرون من جوانب مختلفة ، فإنه هو أيضاً يرى أنهم يحملون رماد السلف لا شعلتهم .

٨ ـ كثيراً ما يواجهني الشباب المتحرق إلى التعاون والتآلف وتوحيد الجهود الإسلامية ـ وحتى الإنسانية ـ بسؤال ما السبيل إلى توحيد المسلمين أو العاملين للإسلام ؟ إني قد أشرت في بعض كتبي أن الجواب التقليدي لهذا السؤال هو قولهم : بالعودة إلى الكتاب والسنة والسلف الصالح . لكن هذا الجواب لم يعد كافياً على وضعه التقليدي ولكي يصدق هذا الجواب ويكتسب فاعليته العملية لا بد من أن يكشف المسلمون وغير المسلمين منهجاً لفهم الكتاب والسنة وكل التراث الإنساني . وأنا أستبق الجواب المفصل إلى الجواب المقتضب ، وأقول إن

هـذا المنهج منهـج آيـات الآفـاق والأنفس . إن هـذا المنهـج هـو الـذي سيحـدد معنى الكتـاب ومعنى السنـة ، ومعنى فهم النـاس لهما على مرّ التـاريخ . ولقـد ذكرت في أثنـاء مـا أكتب إشـارات ولمحـات إلى أهميـة آيات الآفاق والأنفس . وإنها نوع من الوحي والأسلوب الذي يعلن به الله إرادته لخلقه ، وهذا الأسلوب الجديد له ميزات جديدة أيضاً .

أرجو أن ينتبـه القـارئ إلى هـذا الموضوع ويتتبع ويجمع شتـات ما كتبت في هذا المجال ، ويدرب نفسه على تذوق آيـات الله في الآفـاق والأنفس ومزاياهما ، وإنها طريقان لتحويل الدين إلى العلم والعالمية . وكلما صار شيء علماً صار عالمياً . وبما أن الإسلام يتضمن هذا النوع من الخطاب الرباني وهذا التضمن هو الذي جعلـه عـالميـاً ، وهو عـالمي من أساسه ونشأته الأولى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ [سبأ ٣٤/٢٨] .

إذن إن هـذا المنهـج هـو الطريـق الـذي ستتـوحـد بـه المـذاهب الإسـلاميـة بـل وسيتـوحـد بـه العـالم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَـأَهُ بَعْـدَ حِينٍ ﴾ [ص ٣٨/٨٨] .

والمسلمون يطيرون فرحاً إذا رأوا شيئاً من آيات الآفاق والأنفس يدعم دينهم ، ولكن الذي لا ينتبهون إليـه بـدقـة هو أن آيـات الآفـاق والأنفس إذا صارت منهجاً محدد المعالم راسخ البنيـان ثـابت الأركان في

أرضية آيات الكتاب ، هنـاك يتحقق علم الله الموعود في تجـاوز الفسـاد في الأرض ، وسفك الدماء ، والاهتداء إلى سبل السلام ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [المائدة ٥/١٦] .

إن المراجع التقليدية لا تخرج من النتائج التقليـديـة . وكـذلـك التغيرات المرحلية تظل وقائعها مرحلية ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة ٢/١٤٤] .

وعلم الفلك مثل واضح وقريب كيف أن آيات الآفـاق والأنفس توحد الفهم وتزيل النزاع والخصام ، فبعد أن شهدت آيات الآفـاق على علم الفلـك ، لم يعـد هنـاك جـدال ولا خصـام وتوحـد فهم العـالم لسير الأرض والشمس والقمر والنجوم . ولم يعودوا يتطـارحون النصـوص في الشـدّ والجـذب والتضليـل والتكفير . فهكـذا إذا رأينـا آيـات الآفـاق والأنفس وتمكنا من أن نريها لغيرنا فهناك يزول التدابر ويحل الوئام ، ويتبين لهم أين موطن الحق ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

ولقد حدث أن أبـدى لي بعض الشبـاب بكل إخلاص تسـاؤلاتهم في أن الرسول ﷺ ، هل يمكن أن يترك الأمـة بعـده من غير أن يحـدد من يقودهم ويرجعون إليه في مشكلاتهم .

وكان جوابي بالصدق والإخلاص نفسه ، أني أريد أن أترك الأسلوب الذي تعودنا أن نبحث به هذا الموضوع من الرجوع إلى النصوص التي تتجاذبها طوائف المسلمين ويتجادلون في صحة ثبوتها أو دلالتها . وإني أشكركم أن السؤال طرح بشكل منطقي ، لا بشكل نصوصي .

وأنا أقول لكم من غير أن أدعي إنهاء الموضوع وإعطاء الحكم الفصل فيه ؛ بما أننا معشر المسلمين نحمل ديناً عالمياً ندعو العالم جميعاً إليه . هذا العالم الذي له تجاربه المضنية في هذه المواضيع بالذات . هل مما يناسب هذا العالم الذي ندعوه الآن أن نقول له : إن رسول الله ﷺ حدد مصدر معرفة الحق في شخص معين ومن سلالة معينه ، وإن الذي يقود المسلمين يُعين وهو لا يزال طفلاً ، أم أن نقول إن الأمر في الإسلام : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] ، وأن أولى الناس بولاية قضية أكفؤهم لها .

أنا لا أزعم أن مثل هذا الموضوع الذي له من العمر أجيالٌ كثيرة متطاولة - سواء في تاريخ المسلمين أو تاريخ البشر عامة - يُنهى بمثل هذا الكلام . ولكن فقط أريد أن ألقي ضوءاً على أن آيات الآفاق والأنفس يمكن أن تتدخل بكل موضوعية وحيادية لإلقاء أضواء كاشفة

على مواضيع ظلت تبحث من منطلقات غابت عنها دلالة آيات الآفاق وتجارب الأمم وسنة الذين خلوا من قبل .

ومما يبعث على التفاؤل أننا لاتعدم اتجاهات سئمت الأسلوب التقليدي في بحث هذه المشكلات . ومهما كان عدد هؤلاء قليلاً وأصواتهم خافتة ، وجهودهم مبعثرة ، فإن المستقبل لهم ، وآيات الآفاق والأنفس معهم ، وهم الذين سيتمتعون بالقوامة بالقسط ، والشهادة بالحق ، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وأولئك هم الذين سيكونون على قدم صدق ، وسيزول مافي صدورهم من غل . ثم إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس ليحل المشكلة خارج النصوص . ولا مانع من التذكير بالحديث الذي أكرره كثيراً لما له من الدلالة والأهمية في هذا الموضوع موضوع آيات الآفاق والأنفس . وذلك الحديث الذي يترك فيه الرسول ﷺ الاحتجاج بسلطانه النبوي وسلطان ماأوحي إليه ، ليتخذ آيات الآفاق والأنفس دليلاً وحجة لبيان موضوع معين وقع الجدال فيه مع صاحبه زياد بن لبيد .

(ذكر ابن كثير في تفسير سورة المائدة الآية ٦٣ وصححه عن الإمام أحمد قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال : وذاك عند ذهاب العلم ، قلنا يارسول الله : كيف يذهب العلم ؟ ونحن قرأنا القرآن ، ونقرئه أبناءنا . وأبناؤنا يقرئون أبناءهم . فقال : ثكلتك أمك ياابن لبيد إن

كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة . أوليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟) .

هنا يلجأ رسول الله ﷺ إلى آيات الآفاق والأنفس ليحسم النزاع والجدال في آيات الكتاب ، وإن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم في ظروف معينة ، والرسول ﷺ هنا يستشهد بحدث تاريخي واقع أمام العالم جميعاً لا يمكن أن ينكره أحد . وهذهٰ القوة لآيات الآفاق والأنفس أشرنا إليها قريباً حين قلنا إن دلالتها عالمية ، وفوق العقائد الموروثة (الإيديولوجيات) ، ولم يحاول هنا رسول الله ﷺ أن يقول أنا رسول الله ، ولا أنطق عن الهوى وعليك أن تسلم بما أقول ولا تجادل فيه . إن هذه الحادثة والحوار العجيب الذي دار في مطلع الحياة الإسلامية لعميق الدلالة ، وسوف لا يكف عن عطاء ما يحتويه من منهج لا يزال يتألق على مرّ العصور في أهمية الوقائع في الآفاق والأنفس . وهذا ماأردنا أن نضعه أمام الشباب المسلم ليتأملوا فيه ، ليس كحادث جزئي وإنما كمنهج ، إلا أن محاولة الاستفادة من هذا المنهج تقتضي معرفة للأحداث وإحصاء لوقائع التاريخ وغربلة ، وتدقيقاً لربط الأسباب بالنتائج ، وليس مجرد رقية إذا تلوناها شفينا من أدوائنا الفكرية والجسدية كما يخيل إليهم .

٩ ـ قال إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام : « إن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها . فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفة تلائم اتجاهها الجديد . ومولد الإسلام ـ كما أرجو أن أتمكن من إثباته لكم بعد قليل إثباتاً تطمئون إليه ـ هو مولد العقل الاستدلالي . وإن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى ختم النبوة نفسها . وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وإن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو .

إن إبطال الإسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام ، وإصراره على النظر في الكون ، والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية . كل ذلك صور مختلفة لفكرة ختم النبوة .

والحق أن القرآن يعدُّ الأنفس والآفاق مصادر للمعرفة ، فالذات الإلهية ترينا آياتها في أنفسنا وفي العالم الخارجي على السواء . ولهذا وجب على الإنسان أن يحكم على كفاية كل ناحية من نواحي التجربة في إفادة العلم . وعلى هذا ففكرة ختم النبوة ينبغي ألا يفهم منها أنها

تفترض أن مصير الحياة في النهايةهو إحلال العقل محل الشعور إحلالاً كاملاً . فمثل هذا ليس ممكناً ولا مرغوباً ، إنما قيمة هذه الفكرة من الناحية العقلية ، هي في اتجاهها إلى خلق نزعة حرة في تمحيص الرياضة الصوفية ، إذ تجعل الإنسان يعتقد أن كل سلطانٍ شخصٍ يزعم أن له أصلاً خارقاً للطبيعة ، قد فات أوانه في تاريخ البشر . ومثل هذا الاعتقاد قوة سيكولوجية تحول دون نمو مثل هذا السلطان . وعمل هذه الفكرة هو أنها تفتح سبلاً جديدة للمعرفة في ميدان الرياضة الروحية عند الإنسان . والقول بأن الآيات الدالة على الذات الإلهية تتجلى في الأنفس ، قد خلق روح النقد التقليدي لعلم الإنسان بالعالم الخارجي ، ووطد أركانها بأن جرَّد قوى الطبيعة من الصبغة الإلهية التي أضفتها عليها الثقافات الأولى »[1] .

و يمكن النظر إلى فكرة ختم النبوة من جانب آخر على أنها فكرة تعلن انتهاء الدورات الحضارية . فالحضارات كانت تسير وفق الدورات ، أي تولد ضعيفة ثم تقوى وتشتد ثم تضعف وتزول ، ولكن الحضارة ليست كالإنسان الفرد ، يتعرض لتحلل حياته العضوية ، ولكن الحضارة تحللها فكري نفسي ، وهذا قابل للعلاج والزيادة

---

(١) تجديد الفكر الديني لإقبال ، صفحة ١٤٤ ـ ١٤٥ ، طبع القاهرة ١٩٥٥ م .

والنمو ، إذا عرف الإنسان سننه . ومثل ذلك الأرض الزراعية كانت تتكون سابقاً تلقائياً ثم تفقد صلاحيتها ، ولكن تدخل جهد الإنسان التسخيري الواعي ، حوّل الأراضي غير الصالحة إلى صالحة ، وجعل الصالحة تستمر في الصلاح ، فهذا فرق بين ما يحدث تلقائياً ، وبين ما يحدث تسخيرياً ، وقال مالك بن نبي في هذا : « والأشياء تسير فعلاً كذلك إن تركت لشأنها أي تلقائياً » . والعالم الإسلامي إنما خرج عن خط سيره لهذا السبب . ولكن بانتهاء النبوة وختمها فقد انتهت الدورات وأمسك الإنسان بسنن الحضارة ، ليجعلها مستمرة ، وهذا الموضوع تناوله توينبي بكثير من التردد ، وقال مالك عن هذا الموضوع ، موضوع الدورة الحضارية : « إن كل قانون يفرض على العقل نوعاً من الحتمية ، تقيد تصرفه في حدود القانون .. » ، ثم يقرر « وبذلك تتغير وجهة النظر في سير التاريخ إذ إن المراحل التي تتقبل أو لا تتقبل التغيير حسب طبيعتها ، تصبح مراحلّ قابلة كلها للتغيير لأن الحتمية المرتبطة بها ، أصبحت اختياراً يتقرر في أعماق النفوس »[1] .

فمعنى ختم النبوة ختم الدورة الحضارية .

---

(١) مقدمة كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم التي كتبها مالك بن نبي .

والميزة الأخرى لمحمد ﷺ أنه للناس كافة ، وهذه فيها فكرة عالمية الحضارة ، وانتهاء زمن تعدد الحضارات ، وإن كنا لانزال نعيش دورة الحضارة وتعددها ، إلا أن إرهاصات زوالها بدأت تبرز لمن تأمل . هذه حقائق تشير إليها آيات الآفاق والأنفس . ولكن لا ننتبه إليها بالقدر الكافي من الاهتمام ، فالعالم يسير بخطىً حثيثة إلى العالمية يوماً بعد يوم ، مدفوعاً غير مختار ، والزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس سيبقى ، وسيفهم الناس في المستقبل هذه الأمور تحت أشعة أضواء معينة وإن كانت تحت غبار الأنقاض . هذه مؤشرات آيات الآفاق والأنفس .

- ٣ -

﴿ وَسَخَّرَ لكُم مَا في السموات وما في الأرضِ جميعاً منه إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ﴾

[الجاثية ١٣/٤٥]

هذه الآية من المقامات المحمودة التي رفع الله الإنسان إليها ، ومن درجات التكريم التي وهبها إياه حين قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [الإسراء ٧٠/١٧] .

١ ـ في هذه الآية مكانة الإنسان الحقيقية أو كما يقول إقبال : « مقام النيابة الإلهية » ، فإذا كان ما في السموت والأرض جميعاً مسخراً لخدمة الإنسان ، فإن نائب الحق ـ الإنسان ـ يأمر هذه الأشياء فتطيعه حين يحقق شروطها . إن الإنسان يأمر آلة يصنعها للسفر إلى الكواكب ، فتذهب وتنفذ الأوامر وتعطي المعلومات ، وتعود ، إن هو أمرها بذلك . إنها عينة من أبجدية التسخير وأفق من آفاق العلم .

٢ ـ إن التسخير هو الوصول بالعلم ـ المعرفة النظرية للقانون والسنة ـ إلى أقصى غاياته ، لخدمة الإنسان في حياته العملية اليومية ،

ويمكن أن نرى ذلك في مثل القراءة والكتابة وتطورهما . فقد عرفهما الإنسان منذ خمسة آلاف عام ، وأخذ تسخيره لهما يزداد مع اختراع الورق منذ حوالي ١٥٠٠ عام ، ثم مع اختراع الطباعة ، فاختراع الحاسب الإلكتروني ووسائل خزن المعلومات الأخرى حديثاً ، ومع ذلك لا زال تسخير القراءة والكتابة قاصراً عن مداه .

ونحن نرى ما سخر لنا من الدواب والأنهار والفلك ، ونرى كيف أن تسخيرها يتنامى مع الزمن ، ومن رأى كيف بدأ الخلق يعلم كيف يتضاعف التسخير ، وتلوح له ملامح النشأة الآخرة ، فيكون الأمر كما قال جلال الدين الرومي ، عن الذي يمشي وراء مسك الغزال : يمشي حيناً على تتبع الأثر ثم يبدأ يتبع رائحة المسك ، ومرحلة من هذا تساوي مراحل من ذلك .

إن السلطان هو العلم ، والنفوذ من أقطار المسخرات لا يتم إلا بالسلطان . وكما اخترقت الطائرات حاجز الصوت ، فبالسلطان سيخترق حاجز الضوء ، الذي أقامه أنيشتاين كعقبة أمام سلطان الإنسان . يقول محمد إقبال : إني استفدت من معراج الرسول ﷺ : أن الإنسان ليس بعيداً عن السماء .

٣ ـ إن التسخير تسخيران : تسخير عالم الآفاق ، وتسخير عالم

الأنفس . إن تسخير عـــالم الإنســـان ـ الأنفس ـ أصعب التسخيرين ، وأبعدهما من الإخضاع ، ولهذا أنكر المنكرون ، ولا سيما الغربيون ، أن تكون الشؤون الإنسانية خاضعة للعلم .

وحتى لا يقتصر معنى التسخير على الآفــاق فقـــط ، لا بـــد من إشارات إلى أن التسخير الحقيقي ، والعلم اليقيني الجدير باسم العلم ، إنما هو العلم المتعلق بـالإنسـان ـ الأنفس ـ وسير المجتمعـات ، وهـذا الاتجـاه واضـح مكرر في القرآن كثيراً . وإن أهـداف الحضـارة اليـوم تنــاقض أهداف القرآن ؛ لأنها لا تليق بالإنسان ولا تحقق إنسانيتـه ، فمثلاً يعلن القرآن بـالوضوح والصراحـة الكاملـة : أن كثرة الأموال والأولاد ليست هي التي تقرب من الله ﴿ وَمَـا أَمْـوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِـالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفَى ﴾ [سبأ ٣٤/٣٧] . ويُسفِّه قول القـائل : ﴿ أَنـا أَكْثَرُ مِنْـكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [الكهف ١٨/٣٤] ؛ والمال والنفر في هذه الآيـة يقـابلان الجانب الاقتصادي والعسكري .

وإلى يومنا هذا نقدر درجة تقدم الحضارة بمقدار الـدخل السنوي للفرد ونصيبه من الحاجات الأساسيـة والكمـاليـة . ولكن الرقي الحقيقي (التقـوى) ، أن يكـون الإنســان قــادراً على نهي النفس عن الهـوى . وينبغي أن ننبـه هنــا إلى أن الـذي ينكره القرآن ليس التسخير والتمتع بالطيبات ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ . قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف ٣٢/٧] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف ٣٣/٧] . ونحن نقول هنا ما قاله إقبال : ليس القصد أن لا يملك الإنسان الدنيا ، ولكن أن لا تملك الدنيا الإنسان ، أي أن لا تتحول الوسائل إلى أهداف ، ويصف إقبال المؤمن بقوله :

وترى الدنيا انطوت في كسبه ليس منها ذرة في قلبه

ومن هنا قول الرسول ﷺ : « ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تفتح لكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكت من قبلكم » فالحضارات كلها انتحرت على هذا المنزلق ، وقليل من الأفراد ينجون في الظروف الراهنة للبشرية .

قف عند هذه النقطة ، وتأمل جيداً حتى لا تكون كالتي نقضت غزلها أنكاثاً . وتوينبي حام حول هذا الموضوع في أماكن متعددة من كتابه (دراسة للتاريخ) ، وبحث طبيعة ارتقاء الحضارات ، تحت عنوان (الدروب الخادعة) . قال : « هل يقاس الارتقاء وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجي ؟ إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة : سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة ، وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تعبر

عن نفسها بتحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادي ، ويورد أمثلة لبيان أن أيّاً من هاتين الظاهرتين ـ سواء التوسع السياسي والحربي أو تحسين الأسلوب الفني ـ لا يعتبره قاعدة مناسبة لقياس ارتقاء الإنسان الحقيقي ؛ فإن التوسع الحربي التكنولوجي عادة ، نتيجة نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة للتدهور ، ولا تبدي التحسينات التكنولوجية سواء كانت زراعية أم صناعية ، سوى ارتباط قليل ، أو لا شيء البتة ، بينها وبين الارتقاء الصحيح » .

ويذكر توينبي أن هذا الموضوع اختلط على (ويلز) فيقول : « إنه فشل لسبب مَدارُه : إخفاقه في تحويل ركازه الروحي ـ كلما اتصل سياق روايته ـ من الناحية الكونية إلى الإنسانية » .

كما يذكر توينبي ، الفراعنة الذين بنوا الأهرامات ، وكيف أن الموت ألقى يده الباردة على حياة حضارتهم النامية ، في اللحظة التي تحول عندها التحدي ، من الميدان الخارجي إلى الداخلي ، حينما استغلوا نجاحهم الاقتصادي الزراعي ، الفني ، في بناء الأهرامات ، كما يستغل اليوم التقدم الاقتصادي والفني ـ بعد أربعين قرناً من ذاك التاريخ ـ في بناء الترسانات النووية وسباق التسلح[١] .

---

(١) راجع الفصل العاشر من كتاب (دراسة للتاريخ) ، توينبي .

كما يذكر توينبي أن مبادئ غانـدي ولينين ، انحـدرت إلى طرائق (فورد) الأمريكي . ومما يدل على هذا الانحـدار ، أن وزير خـارجيـة الصين في زيارته الأولى في نهاية عام ١٩٨٥ لبعض البلاد العربيـة ، كان يغير بـذلتـه الأوروبيـة من يوم لآخر ، بينما كان مـاو وشـوئنـلاي ، يحتفظان ببذلة العمل الصيني ، ذات الياقة الواقفة .

إن موضوع التسخير موضوع مهم ، ومع أهمية هذه الآية الكريمـة التي ترفع الإنسـان إلى المقـام الكريم ، نجـد خطورة الوقوع في المنحـدر العميق . وإذا تذكرنا أن المسؤولية تزداد كلما ازدادت النعمة ، نتـذكر أن المسؤولية التي تقـابل ﴿ سَخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّمَوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [الجاثية ١٣/٤٥] ، مسؤولية تبدو لا نهائية ، بل يراها كثير من النـاس مسؤوليـة مستحيلـة . ويلوح أن توينبي من بين من يرون هذا الرأي ، حيث يذكر كثيراً أنه لا يمكن أخـذ التكنولوجيـا الغربيـة بدون التلوث بمبادئها الأخلاقيـة ، فمن هـذا الجـانب نجـد توينبي يقف موقف عامة مشايخنـا التقليـدي من الحضـارة الغربيـة ، فهو يكاد يميل إلى الجواب الذي أجيب به طائفة البيت العتيق وهو ينشد :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والـدين

فأجابه أحدهم قائلاً : دع ما شئت وخذ أحـدهمـا ، يعني لا يمكن الجمع بينهما .

ولكن ، نحن الذين نمسك بحبل الله والأمل الذي وُضع في هذا الإنسان ، بأن الله يعلم فيه غير ما علمته الملائكة ، وهذا العلم وهذا الأمل ، يجعلنا واثقين من أن الإنسان سيثبت جدارته في تجاوز التهمة ، وقد علمنا الله في كتابه أن التاريخ مصدر صحيح للعلم ، وعلمنا أيضاً أن التاريخ ليس هو الماضي فحسب ، بل هو الآتي أيضاً ، وأن ما أخفق فيه الماضون ليس لزاماً أن يخفق فيه الآتون ؛ لهذا فالقرآن يحول صدق وأدلة أحكامه إلى المستقبل حين لا يكون الماضي كافياً للدلالة : ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [هود ١١/١٢٢] ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

وموضوع العلاقة السليمة بين (آيات الآفاق والأنفس) ، أو بين (الدنيا والآخرة) ، أو بين (الأصالة والمعاصرة) ، أو بين (الأخلاق والسياسة) ، أو بين (التوحيد والشرك) ، أو بين (أن تسيطر على الدنيا أو تسيطر الدنيا عليك) .. هو لب القرآن ومحور اهتمامه .

في سورة الفجر يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي

البِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَاد . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر ٨٩/٦-١٤] .

هذا هو الذي قال عنه توينبي : « لقد جابه الفراعنة المعضلة نفسها .. حين أخضعوا الماء والتربة لإرادة البشر : هل استخدم حاكم هذه السيطرة في رفع شأن رعاياه أم في رفاه حفنته ؟ لقد شيد سيد مصر الأهرامات ، وعقاباً لهم على سوء اختيارهم ألقى الموت يده الباردة على هذه الحضارة النامية ، في اللحظة التي تحول عندها التحدي من الميدان الخارجي إلى الداخلي » ، من التكنولوجيا إلى سيكولوجيا العدل والإحسان .

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [الدُخان ٤٤/٢٥-٢٩] .

- ٤ -

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادوا والنَّصارى والصَّابئين من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً ، فلهم أجرُهم عندَ ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

إن العالم الذي نعيش فيه يتصاغر يوماً فيوماً ، ويضطر أن يعيش فيه الناس ، وقد اشتبكت مصالحهم ، وعمت الأفكار التي تداهمهم فتوحدت المصالح والمخاطر .. وكأن هذا العالم يمر بمرحلة شبيهة بما يمر به الإنسان حين يولد ، وينفصل عن والدته ، إنه يضطر أن يواجه مشكلات خطيرة سريعة وتكيفات جديدة ليس له بها عهد ، فالبكاء الصارخ الذي يستقبل به الوليد هذا العالم ، يعبر عن هذه الأزمة . فهذا المولود الذي عاش في رحم والدته ، في الجو الدافئ الناعم ، لا يتنفس ولا يأكل ولا يشرب .. يواجه فجأة مخاض الولادة ويدفع بقوة وضغط شديد وعنف لم يكن له سابق عهد ليمر بمراحل صعبة ضاغطة إلى هذا الجو البارد ، حيث يقطع الحبل السري الذي كان به يتنفس ويتغذى ، ويضطر أن يستخدم رئته لأول مرة .. إن هذه المواجهة الشديدة هي التي كانت تسبب كثرة وفيات الأطفال .

ويواجه البشر اليوم ، حالة شبيهة بهذه الحالة ، وهم مضطرون بل مدفوعون إلى مواجهة هذه الحالة ، والتكيف معها ، وتعلم المعرفة التي تمكنهم من اجتياز المخاطر وتقليل دفع ضرائب الجهل ، والعجز عن الإسهام في تسهيل التكيف مع الظروف الجديدة يجعل الأثمان باهظة والخسائر مكلفة . إن مااعتدناه من أساليب وعلاقات استقرار لأحقاب طويلة - شبيهة بحياة الرحم - لم تعد كافية ، فلا بد من أمور جديدة للتكيف مع العالم الجديد . وإذا كان العلم هو الذي ساعد الطفل على دخول المرحلة الجديدة وقلل وفيات الأطفال ، فكذلك اليوم لا يكون حل مشكلة انتقال الإنسانية الجديد إلا بالعلم . ولعل البشر واجهوا مثل هذه الأزمة حين تعلموا الزراعة لأول مرة ، لأن هؤلاء الناس الذين عاشوا على صيد الحيوانات وجمع النباتات التي يقتاتون بها ولم يكن لهم بيوت ولا قرى ولا تجمعات ولا تبادل .. إنهم عاشوا في هذه الجنة يأكلون منها ، ولم يكن شيء من أشجارها محرماً عليهم ، فالكل مباح للكل .. ولكن حين اكتشف الإنسان زراعة النبات ، ظهرت براعة الإنسان وعجزه في آن واحد ، وهكذا شأنه مع كل نعمة مسخرة يتلقاها من ربّه ، يظهر قصوراً في التكيف مع النعمة الجديدة ، وإنكاراً للتقدم الجديد ، وحنيناً إلى الماضي الذي كانت مسؤولياته أقل ، حنيناً إلى ما وجدوا عليه آباءهم ، حنيناً إلى الرحم الدافئ

ورفض الجديد ورفض ما فتح الله عليهم وأمدهم بـه . إنـه لم يستطع أن يتكيف مع الشجرة الجديدة التي سيطر عليها واستنبتها بنفسه ، إنها الشجرة التي وضعت ذكاء الإنسان على المحك الصعب ، هـذه الشجرة التي أصبح تقدم الإنسان مرتبطاً بها . لا بد من التكيف مع هـذه الشجرة ، التي لم تعد مثل سائر الأشجار . لم يقـدر أن يفهم المعنى الجديد لهذه الشجرة ، فنظر إليها وتعامل معها كبقية الأشجار .. فبدت سوءته .

إن عجز الإنسان عن التكيف مع الزراعة أظهر عثرته ، فسقط في الهوى . إن تقسيم العمل الذي نتج عن الزراعة ، ضيع عليه معرفة قيمة الجهد ، فأصبح الناس شيعاً ، وسقط الإنسان في الظلم ، وصار يتمتع بعض الناس المترفين على جهود أناس آخرين ، إن الإنسان لم يستطع أن يتكيف إلى الآن مع أزمة الشجرة ، إنه لم يقدر أن يضغط على نفسه ، ولم ينهها عن الهوى ، فحق أن يقال عن هذا الإنسان : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] ، وأما علم الله في هذا الإنسان فلم يحققه الإنسان بعد ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ .. ﴾ يأمرهم بالعدل ﴿ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس ٣٦/٣٠] .

إن الزراعة رمز للمجتمع الـذي لا يمكن أن يعيش إلا بـالقـانـون والشريعة ، والحرام والحلال ، وبعبارة أخرى : إلا بـالعـدل الصـارم الـذي يلجم الأهـواء . « إنمـا أهلـك من كان قبلكم أنـه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

والآن بعد أن دخل الإنسان عصر ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النَّحل ١٦/٨] ، وبعد عهد الحصان ، دخل أزمة جديدة قبل أن يحل الأزمة القديمة ؛ أزمة الزراعة ، أزمة الشجرة . إنه دخل بالزراعة عهـد القرية والمدينة والتجمع الإنساني ، عهد الحضارات ، عهود الفساد وسفك الدماء ، ولكنه بعصر ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يُدفع بمخاض شديد إلى ضرورة وحدة العالم ، ووحدة الحضارة والمصير الواحد الـذي جعل النجاة الفردية محالة في هذه الدنيا .

وآية ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ وأمثالها تيسر التكيف الجديد مع هذا العالم ، الذي يتطلب تكيفات لم يكن للإنسان بها عهد ولا تجارب سابقة ، إنه يدخل عهد احترام شخصية الإنسان ، ليس لأن الاحترام لم يكن يناسبه فيما سبق ، بل لأن الإنسان لم يكن مهدداً بـالفنـاء إن لم يمارسه كما هو اليوم . إن التكيف الجديد الـذي يفوق تكيف خروجه من الرحم والذي يواجهه اليوم بصورة حادة ، وهو خروجه من ذاته

وأنـانيتـه ، خروجـه إلى عهـد الحب والإيثـار ، وإلى عهـد العـدل والإحسان . إنه مدفوع إلى ممـارسـة هـذا النموذج الصعب المر والتكيف معه ، إنه الخروج من عهد الفسـاد وسفـك الـدمـاء والتلمـظ للثـارات وإثارة الأحقاد .

هذه الآية وأمثالها تطلب المفاهيم المعهودة المتعلقة ببني آدم . إننـا لم نتعلم طبيعـة هـذا الكائن العجيب وطريقـة استخراج أفضـل مـا فيـه بالعدل والإحسان والحب والإيثار ، وليس بالقهر والإذلال . إنها لنقلة صعبة تتطلب منا أن نتنفس بطريقة غير معهودة ، فنشعر بالاختنـاق حين نحاول أن نمارس التنفس الجديد والحياة الجديدة ، هذا الذي يقال عنه إنه مثالي غير قابل للتحقيق في هذه الحياة الدنيا ، وهذا هو الـذي جعل معاصري الأنبياء يواجهون هذه الدعوة بقولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَـاهَـةٍ ، وَإِنَّـا لَنَظُنُّـكَ مِنَ الكَـاذِبِينَ ﴾ [الأعراف ٦٦/٧] ، وقـولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم ١٣/١٤] .

والبشرية ـ اليوم ـ تواجـه الأزمـة بـالطرائق العنيفـة العتيقـة ، وتظن أنها تستطيع أن تبقي الظالم بالقوة ، لقد فاتهم أن هذه الطرق لم تعـد تـلائم الْخُلُق الجـديـد النـامي والتي لا تكـون في شيء إلا شـانتـه وأفسدته ، وأنَّى تقدر هذه الحوصلة الكزة الضيقة أن تواجـه الكراهيـة

بالحب والظلم بالعدل والإحسان . إن مواجهة الموت البارد لأهون من الدخول إلى عالم يقتضي مثل هذه القوانين الجديدة .. هل يمكن أن أكون مثل هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، وهل هؤلاء الأدنياء الجاهلون والملونون الأراذل يستحقون الإحسان بله العدل .. ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود ١١/٢٧] ، وبزعمهم إن الذين يسلكون سلوك العدل والمساواة هم الحمقى والمغفلون والعاجزون المتدثرون بالأحلام ، الذين لم يخبروا الحياة ولم يعرفوا طبيعة الناس ، ولم يعرفوا أن السلام العتيد لا يتم إلا بالمواجهة العتيدة ، إنه تاريخ طويل طمس قانون الحياة الإنسانية واغتال معالم الدخول إلى حلِّ الأزمة والمشكلة .

هذه الآية رؤية تفاؤلية ورؤية تسامحية ، ورؤية دين يهدف إلى العالمية . وقد يظن الظان بادئ الرأي أن هذا النظر إبقاء على التشرذم والتشظي .. ولكن طبيعة الإنسان واستخراج أفضل ما فيه ليس بمطاردته بل بالاعتراف بكرامته ، وهذا الموقف منسجم مع ﴿ لاَإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦] ، ومنسجم مع التاريخ الواقعي الذي أظهر الإسلام ديناً ليس له مرتدون . قد يعز على البعض هذه الرؤيا التي تناقض الرؤيا الأعرابية ـ التي تقول : (اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً) ـ في تحجير الواسع .

إن هذا النظر الإيجابي منسجم مع قوله تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة ٢٨٥/٢] ، ومع قوله تعالى : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف ١٦/٤٦] ، ومع قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ فَإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصّلت ٣٤/٤١] ، وينسجم مع القوة الفكرية لا الكزازة الفكرية ، وينسجم مع الغنى والخصوبة الفكرية لا مع الفقر والجدب الفكري . إن التسامح هو حاجة إنسانية عالمية ملحة في هذا العصر ، وظهرت آياته بأنه هو الذي يرث الأرض ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصّلت ٣٥/٤١] . إن الثقافات والعلاقات في العالم لا تزال تخضع للنرجسية والأنانية وفكرة الشعب المختار ، ﴿ أنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [ص ٧٦/٣٨] . قد تكون خيراً منه ولكن خيرتك في أن تحمل التسامح وتقدر الناس والآخرين وتبحث عن الجوانب الإيجابية فيهم لا الجوانب السلبية ، والرسول محمد ﷺ الذي هو خيار من خيار وخاتم النبيين وإمامهم يقول أمام اليهودي الذي عدا عليه المسلم لقوله والذي فضل موسى على العالمين ، يقول عليه الصلاة والسلام للمسلم : « لا تفضلوني على يونس بن متى » مع أن الله قال له : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم ٤٨/٦٨] . فعلى الرغم من أن الله نهى محمداً عن أن يكون مثل هذا

النبي أمر محمد ﷺ أصحابه أن لا يفضلوه على يونس ؛ لأن التبشير والعطاء وإدخال الناس في دين الله أفواجاً ليس بقهرهم وإنما بالكبرياء المتواضع والعلو الداني ، وبمعرفة حقيقية لطبيعة الإنسان الذي إنما يتم أسره بالإحسان إليه ، والإغضاء عن سيئاته وإبراز حسناته . إن هذا قانون وسنّة ونظام علوي للبشر .

إن هذه المزايا السننية المتوافقة مع ما علم الله في الإنسان من تجاوز حالة الفساد وسفك الدماء التي لم تصل البشرية إليها كجماعات وإن وصل إليها بعض الأفراد : إن هذه المنطلقات ستبرز كلما ارتفع شأن المسلمين في العالم ، لأن مثل هذه النظرات لا تليق بالأذلين ، وإن الرفق الذي يزين كل شيء يلمسه لا يناسب الغلظة والفظاظة والإلحاح المقرف ، وإذا كان الإسلام هو الدين الذي ليس له مرتدون فهو كذلك الدين الذي ليس له مبشرون أيضاً . فالمفهوم الإسلامي بقدر ما يحرص على نشر الهداية فإنه يحرص على احترام آراء الآخرين ويأنف من كل سلوك ينم عن تسول اعتقادي فيحسبه الجاهل أنه غير راغب في هداية الآخرين .

إن التسامح والتراحم والإيثار لا تتم إلا عن غنى نفسي فكري واثق ، هذه القوة النفسية هي التي ترفع الإنسان إلى أفلاك التسامح والتراحم والإيثار ... إن هذا التسامح العَفَّ وكتم الفضيلة التي يحملها

صاحبها وإبراز فضائل الآخرين إلى درجة الحياء من إبراز ما يمتاز به عليهم هي الصفات التي يحتاجها العالم . إن العالم ليس في حاجة إلى سوء الظن والاتهام واليأس والخداع والغرام بالقوة المادية أموالاً وجنوداً وأسلحة ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفَى ﴾ [سبأ ٣٤/٣٧] ، إن ما يتسابق إليه الناس يمزق الناس وينغص حياتهم ، ولكن الذي سيشعر القلوب بالارتياح والاطمئنان ، ويزيل القلق والتوتر ، هو الرحمة والإيثار والحب والعدل .. جرب مع قلبك وارجع إلى نفسك وابحث عن ثنايا وطوايا صدرك .. ما الذي يشرحها ويبهجها ؟ أليس هو التواضع والحب والرحمة والإيثار ؟ تعامل مع الحقيقة واكشفها بنفسك وبإحساسك وبجهاز معرفتك . لا تعش دائماً أسير فظاظة الآخرين .. هذا هو معنى سيد الشهداء الذي يقدم نفسه لله في سبيل الخروج عن التقليد . إن الحياة الحقيقية إنما تكون في الخروج من التقليد وعبادة الآباء والتقاليد والتقاليع ، وأن يصير الإنسان يكشف الحق بتعامله مع الحق بميزانه وليس بميزان الآخرين . استعمل ميزانك لحظة في الحياة ، ولا تعش هذه الحياة الثمينة الغالية وأنت لم تثبت قدرة الخالق فيك ولم تستشعر لذة التوحيد وسعادته . يا حسرة على العباد .. إن أعيننا لا تبصر وآذاننا لا تسمع وقلوبنا عليها غلف لا تفقه ، عبيد للمجتمع ، عبيد للتقاليد .. أين ضياء القلم ؟ أين

من يعملون بالقلم ؟ أين من يتعاملون مع الحياة بميزانهم الخاص لا بما صنع لهم الأقدمون حسب نظراتهم القاصرة ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصّافات ٣٧/٦٩-٧٠] .

أرى العالم الذي نعيش فيه قد نُسِفتَ من أساسه نظرياً وواقعياً ، وإن كانت حياتنا تعيش مع أوهام القرون الماضية التي لا تليق إلا بعهد الخيل والبغال والحمير ، ولم تتكيف بعد مع الخلق الآخر .. والمسلمون تبعوا من قبلهم حذو القذة بالقذة وهم يتربعون في جحر الضب ويعجبون به مهما آذاهم ضيقه وأعشاهم ظلامه .

إن هناك تشوفاً وعوالم وطاقات لا نهائية تنتظر من يكشفها ، إن الذي سيرفع الإنسان ليس كشف الطاقة المادية ، إذ الطاقة المادية قد تكون خطراً على الإنسان إن جاء كشفها قبل أن تكشف قوى النفس وسننها . إن كل نعم الله تتحول إلى عكسها حينما لا تكلل بنفحة الكشف عن سنن النفس ، فكما عاش الناس وهم يظنون أن الشمس تدور حولهم ، كذلك فإن فكرتهم عن النفس الإنسانية أنها تدور مع القهر والعنف والإكراه ، على الرغم من أن الآيات تظهر أن النفس الإنسانية تدور مع العدل والإيثار وحب الآخرين كحب النفس .. وأن قوى الحب والإيثار هي التي سترث الأرض وليست القوى المادية التي تقهر الناس . يقول إقبال :

إنمـــا المـؤمنُ بــــالحب قهر   مـؤمن لا حُبَّ فيــه قــد كفر

إن النـاس حين ملكوا قوة القهر المـادي تعقـدت أمـورهم ، ومن العجب أن الـذين نظنهم عقلاء ، لا يزالون يتسـابقون في زيـادة هـذه القوة لإحراز التفوق ، إن التسابق ليس في هـذا الاتجـاه .. أيهـا القـادة العميـان - حسب تعبير الإنجيل في التقريـع - (ويـل لكم أيهـا الكتبـة والفريسيون المراؤون .. تركتم أثقل الناموس ، الحق والرحمة والإيمان ، كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك ، أيها القادة العميان الـذين يُصَفُّون البعوضة ويبلعون الجمل) (متى ، إصحاح ٢٣ ، فقرة ٢٣) .

ويقول آنشتـاين في تصـوير هـذا العصر : « معـدات كاملـة إنمـا أهداف مبهمة ، تلك هي مؤشرات عصرنا »[١] .

إنني أستخـدم هـذه الآيـات كمـؤشرات إلى اتجـاهـات جـديـدة ، ومنطلقات لمبادئ غير عادية ، ومواضيع لبحوث لم تُعطَ ما تستحق من عناية ، لأن مثل هذه المواضيع تحتـاج إلى رؤيـة تـاريخية صيرورية واضحة شاملة للماضي ، للوصول إلى رؤية إبداعية للمستقبل .

وحين ننظر إلى أهل الكتـاب ، وأنهم يؤمنون بخـالـق الكـون ، ويؤمنون بـأنـه أرسـل رسـلاً ، وأنـزل معهم شرائـع للعمـل الصـالـح ،

(١) محمد أركون ، الإسلام بين الأمس والغد ، ص ٩٥

ويؤمنون بالمعاد يوم القيامة .. إن هذه الأصول المشتركة الكبيرة ووظائفها وعواقبها ، ينبغي أن تحول دون أن تتمزق أمة النبوة وأمة الإيمان بالله واليوم الآخر .

هذه القضايا ذات الأصل الموحد الكبير ينبغي أن لا تضيع أهدافها في اتباع الأهواء والنظرات المحدودة ، وعلى أهل الحق أن لا يستفزهم من ضيّعوا الأصول ، وأن يلتزموا كلمة التقوى وكانوا أحق بها ، وأن يعودوا إلى شعار عباد الرحمن الحقيقيين ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ [الفرقان ٢٥/٦٣] ، وينبغي أن نعلم بحق أن الذين يدرؤون بالحسنة السيئة ، هم الذين لهم عقبى الدار في الدنيا والآخرة . وإن الذين يظنون أن هذا الموقف نتيجة الضعف لا يزالون بعيدين عن فهم سنن الحياة ، وإن من يقع في مثل هذه الشبهات فإنها تحول بينه وبين نتائج العفو الذي لا يزداد صاحبه إلا عزّاً .

والخلاصة التي نختم بها الكتاب في اختبار الذكاء الذي قام به الأصمعي حين رأى غلاماً فظن فيه النجابة ، قال له : يا غلام هل يعجبك أن يكون لك مئة ألف دينار وأنت أحمق ؟ فأجابه الغلام : لا والله ، إن حمقي يضيع عليّ المئة ألف دينار وأبقى أحمق . والجاهل أحمق ، والعلم بالقلم . والحمد لله ربّ العالمين .

خاتمة

كل إنسان إذا ما قام بعمل ما ، ثم التفت إلى هذا العمل يتأمل فيه ، يرى فيه جوانب إيجابية تشعره ببعض الرضا ويرى فيه أيضاً جوانب سلبية وقصوراً يشعره بعدم التمام أو تفاهة ما قام به ، وأنا حين ألتفت إلى عملي هذا أشعر أنني تناولت موضوعات هامة ولكن بأسلوب هابط وقصور ، وربما يمكن أن أقول زيفت القضايا ، وقد يعتبره الناقد في مستوى معين أنها خيانة للموضوعات التي نريد الدفاع عنها . مثل موضوع القراءة مع أهميتها البالغة ، فإن التناول كان هزيلاً ومبتوراً ومحيراً ، إذ كيف سيهتدي إلى الصواب في طوفان الخيالات ، وكيف سيتمكن من أن يمسك بالنور ليشق الظلمات وكيف سيمسك بالميزان ليميز الزبد مما ينفع الناس ، أو تحت أي مجهر سيكشف كيف يستبعد الجراثيم المتوطنة والخيالات الخانقة . إن الخلاص من هذا التيه لا يتيسر بالجهود المعهودة ولا بد من جهود حالة الطوارئ ، ومن محولات لرفع الطاقات إلى أضعاف مضاعفة كما يحدث لبدء الحركة في أي محرك لآلةٍ ما ، كما لا بد أن نلتمس مراجع غير التي تعودنا عليها ، لأن تلك لم تعط إلا هذا الواقع الذي لا نرضى عنه .

إن عمر القراءة خمسة آلاف عام تقريباً ، وعمر الورق الذي أعطى الفعالية للقراءة ألف وخمس مئة عام ، أما عمر الطباعة فأربع مئة عام

فقـــط . ولكن كم عمر الكاتب الحقيقي الـــذي سيستغــل كل هــــذه النجاحات التي تتكون ببطء متسارع .

جميع دول العالم وأسر المجتمعات تهتم بإرسال أولادهـا إلى المـدرسـة لتعلم القراءة والكتابة ، ولكن أين هؤلاء الذين سيستغلون هـذا الجهـد ليكتبوا ماذا سيقرأ هؤلاء الذين هُيِّئوا لأن يقرؤوا . إن ميراث وظيفـة النبوة كامن في هذه النقطة ، أين الـذين يقـدرون أن يسلبوا النوم من عيوننا لنسهر على قراءة ما يكتبون . كان هوميروس يقول في أسف لقد وجـد أبطـــال كثيرون ، ولكن واأسفـــاه لم يـــوجـد الشعراء الـــذين سيخلدون مآثرهم وبطولاتهم . وأنا أقول لقد وجدت الأدوات والوسـائل ولكن لم يـوجـد بعـد من يكتب مـا يبعث نهم القراءة أو لم يـوجـد من يكتب بعـد مـا يستحق القراءة ـ في أسلـوب مفهـوم ـ أي لم يـأت بعـد ورثة الأنبياء بجدارة . هذا مـا قـال عنـه إقبـال ، إن النـاي يبتغي من ينفخ فيه فهل في صدرك نفس .

في غـابــة الشرق نــاي يبتغي نفســاً

يا شاعر الشرق هل في صـدرك النـفس

آه لقد شوهتُ الفكرة ولم أقدر أن أبين أهميتهـا لمـاذا ؟ لأني أفقـد البيـان ومـا يعطي البيـان ، والعلم بـالبيـان ، والإنسـان هـو البيـــان ﴿ خَلَقَ الإنْسَانَ . عَلَّمَـهُ البَيَـانَ ﴾ [الرحمن ٥٥/٣ـ٤] ، هكـذا أشعر أنني

عرضت أفكاراً في منتهى الأهميــة بشكل هـزيـل متروكـة في ظلمـات الخفـاء ، ولم تبرز إلى الضيـاء ، ألم تكن الكهربـاء مبثوثـة في الكون في كل مكان ، ولكن لم يتمكن الإنسان من اعتقال الكهرباء وتسخيرهـا في مجالات لا نهائية إلا بعد أن أمسك بها من خلال الظلمـات إلى أن أضـاء العالم بالنور ، وهكذا ﴿ وكأين من آيـة في السموات والأرض يمرون عليهـا وهم عنها معرضون ﴾ . والكاتب والكتاب المبين هو الـذي يخرج الحي من الميت ، وهم الـذين يتفكرون في خلق السمـوات والأرض ، وأنـه مـا خلـق عبثاً ولا باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . إن السمـوات والأرض تحتـوي على أجنـة سلطـان الإنسـان . اعكف على هـذا المنجم واسجد على عتبـة هـذا المعبـد لأن هنـاك نشـأة آخرة ، ولأن هنـاك ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤] .

وتناولت .. والعقل والعلم . ولكن اعتذاري وخجلي اللامتنـاهي منهما كيف أنني تركتهما لا يزالان تحت الأنقاض ويُقضى في غيابهما الأمرُ وهمـا لا يستشـاران : وهمـا حضور . وإلى الآن العلم والعقل مخلـوقـان قاصران لا يسمح لهما بحضور المجتمعات إلا إذا كانا سيقومـان بـدور المتملق الـذي يشهـد بـالـزور وينصرف ، يتبعهما النظرات التي تحـدد تبعيتهما للهوى المتربع على عرش التـاريـخ الـذي لم يفقـد من سلطـانـه شيئـاً ، اعتذاري للعقل والعلم في أني لم أكن نَصيرهما الـذي يرفع من قـدرهمـا .

أين الكاتب الذي يزكو العلم والعقل على يده ، ويتضاءل سلطان الهوى في حضرته ؟

ثم كيف تركت موضوع التوحيد ، وقيمته العلمية والعقلية وما في المسؤولية الفردية يوم القيامة . إنها نباتات لم تظهر بعد ، إنها كبذور كامنة ، وسيكون لها شأن في المستقبل ، فإن لم يكن اهتم بها أحد ليس معناه أن لا قيمة لها .

ثم موضوع تحكم الصور الذهنية في الحقائق الخارجية ، وأن الحقائق الخارجية هي المرجع الوحيد للاهتداء إلى الصواب موضوع مطمور .

ثم كان مروري بالآبائية وعالم الأشخاص مروراً رفيقاً بحيث لا يوقظ نائماً ، ولا يزعج مستيقظاً ، ولقد عرضت أسماء وشخصيات ، وهدفي القضاء على عالم الأشخاص ، ولكن ربما رسخت الآبائية التي أريد إزالتها . والآبائية لها جانبان سلبيان وبينهما الجانب الإيجابي .

إن نبذ الآباء رجوع إلى الكهف ، والوقوف عند ما وصلوا إليه إيقاف للتاريخ ، والجانب الإيجابي هو الاستفادة والتجاوز دائماً ، وهل أكون مخطئاً إن حاولت التخلص من عالم الأشخاص بعالم الأشخاص ؟ أليس في تاريخ الأشخاص ما يعين على التخلص من سلبيات الأشخاص ؟ أظن ذلك ومع هذا أشعر بكل أسف أن ما كتبت إنما فيه

سكون وتغطية للجانب السلبي الذي سعيت لإزالته ، ولم يكن سعيي لصالح الجانب الإيجابي بوضوح مضيء .

أرجو أن أكون قد قمت بذكر هذه الملاحظات بعملية مراجعة ذاتية مقدماً ، ومع ذلك أشعر أن هذه البذور ستؤتي أكلها حين تقوم بدور مراكب النجاة من طوفان الدمار ، لأن التاريخ علمنا أن علاجه ليس رفيقاً بل أنه يأخذ الثمن باهظاً ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود ١١/١٠٢] .

إن هذا الأخذ الأليم الشديد الذي ظل ملازماً للتاريخ يمكن تفاديه . والرحمن الرحيم لم يكن ليجعل الطريق الوحيدة لفتح الباب بكسره فقط . هذه هي ضريبة الإعجاب بلمعان الفولاذ والإعراض عن قتامة سن القلم . ولهذا فضلت الأسلوب الهادئ وغير المزعج ، وذلك لأهيئ الجو الذي يمكن من التفهم بهدوء دون إثارة انفعال ونفور وبغية التمكن من مخاطبة أكثر عدد ممكن من القراء بود وتفاهم ، ولم أحاول أن أقول : إننا بحاجة إلى ابستمولوجيا جديدة لتحملها انتلجنسيا رائدة لنتخلص من الدغمائية الهابطة والميثولوجيات المتغلغلة أو الثيولوجيات الخانقة ، ولطالما قرر علماؤنا أن لا مشاحة في الاصطلاح والمهم أن نفهم المعنى ثم كل واحد يستعمل اللغة التي تساعد على الفهم الميسر والعلم بالبيان وكل ما أوصل إلى فهم الحقائق بأيسر السبل فهو الأولى .

دليل الأفكار

مقدمة

- ينبغي أن يكون العلم موضوع بحث لأن كثيراً من سلطان العلم يرجع إلى الاعتقاد أكثر من الفهم فيجعل وظيفة العلم أسطورية .

- لم يأخذ العلم دوره إلا مع القراءة ومع الكتابة التي حفظت خبرات الإنسان ومعارفه ، فصار العلم بالقلم والقراءة ، وهذا سر اختيار عنوان الكتاب .

- الهدف هو العلم ، والعلم متوقف على القراءة ، والعلم ينتظر التبسيط حتى تعم القراءة .

- الأُمية المركبة (أُمية الأفكار) ، أخطر من الأُمية البسيطة (الجهل بالقراءة والكتابة) ، ومشكلة القراءة مشكلتنا الأساسية .

- وللمؤلف مطمحان :

١ ـ نشر ملكة العلم ونقلها لينعم الناس في ظلال العلم .

٢ ـ السلام الذي ينتج عن إيمان المرء بأن العلم يحول العدو إلى ولي حميم .

ـ الاحترام السطحي للعلم لا يعصم الإنسان من العودة إلى دوافعه (انفعالاته) .

ـ حد العلم عند المسلمين ومن نقرأ لهم من الغربيين :

١ ـ المسلمون يمنحون العلم ثقة ظاهرية ، ولكنهم يؤمنون بأن هناك ما يعرف به الحق غير العلم .

٢ ـ والغربيون ينفون خضوع القيم والدين للعلم . وكلتا النظريتين قاصرة .

المسلمون في عصر ازدهارهم آمنوا بوحدة العلم والدين وارتباط القيم بالعلم ، ومثال ذلك : الجاحظ ، ثم تأثروا بمفهوم الغرب .

مدخل

اقرأ وربُّكَ الأكرم

ـ ارتباط القراءة بكرم الرّب . القارئون هم الأكرمون ، ويؤكد ذلك التاريخ والواقع الحالي .

ـ القراءة أهم من الذكاء .

ـ نصيحة للشباب أن يتجهوا إلى مصادر جديدة لتحصيل العلم

وأمثلة لذلك من تاريخنا العلمي .

ـ القراءة والعلم : إن أمر القرآن بالقراءة إلغاء للأمية وفتح لعهد جديد .. عهد النظر في آيات الآفاق والأنفس .

ـ القراءة توسع الآفاق وتخلق التسامح والحلم و ...

ـ لا يتحقق فتح باب الاجتهاد إلا بكثرة القراءة والاطّلاع لأن الإنسان محصلة ما جمع من خبرات ومعارف .

ـ وظيفة ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة ٢/١٤٣] ، تتطلب جهوداً لتحقيقها ، وإنتاجنا الفكري قاصر عن ذلك .

ـ القراءة تمنح قدرة على التحرر من عالم الأشخاص وفك إسار الذات من قبضة السلف وسلطتهم المرجعية .

عابد الجابري وتعميم مفهوم السلف ويراه عند كل متبع ويرى أن المشكلة ما تزال راسخة لدينا .

ـ الدعوة على بصيرة لا تتم إلا برؤية كل ما يتصل بالمشكلة والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين إلا إذا تعلم من تجارب البشرية ، وهذه وظيفة أهل الفكر ورواد المجتمع الذين يصنعون البوصلة الثقافية .

الفصل الأول

مراتب الوجود

مراتب الوجود أربع :

١ ـ وجود خارجي عيني .

٢ ـ ثم صورة ذهنية .

٣ ـ فوجود لفظي .

٤ ـ فوجود كتابي .

المراتب الثلاث الأولى :

إن الكتابة تبع للفظ تدل عليه ، واللفظ تبع للعلم يدل عليه ، والعلم تبع للمعلوم .

ـ عرَّف المعتزلة العلم بأنه اعتقاد الشيء على ما هو به ، وردَّ عليهم الغزالي مفرقاً بين المعتقد والعالم ، فالمعتقد يجد التشكيك إليه سبيلاً ، ولا يجد التشكيك إلى العالم سبيلاً فالمعتقدات بغير علم قابلة

للزعزعة ، فغاليلو أكره وقلبه مطمئن ، وإن كان عاجزاً عن أن يجعل علمه مقبولاً .

ـ مناقشة الغزالي « من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك » .

فالغزالي يبين أن الوجودين الخارجي والذهني لا يختلفان في الأمم والأعصار ، وهذا صحيح لوأن الإنسان كان آلة تسجيل أو تصوير ، ومثال ذلك في اختلاف موقف الناس من الرعد ، أو صورة الشمس فإن الخطأ راجع إلى تفسير الصورة الذهنية .

إن الوجود الخارجي للمادة أو للمجتمع له حقيقة واقعة يتفاوت. تصور الناس لها حسب خلفياتهم الفكرية ، وعند الاختلاف يتم الرجوع إلى الوجود الخارجي ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر ٥٩/٢١] .

ـ والمرتبة الثالثة من مراتب الوجود مرتبة التسمية أو إطلاق أصوات معينة على موجودات ، وبها يمتاز الإنسان عن الحيوان كما امتاز بها آدم عن الملائكة . وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على نفي تهمة الملائكة له بالإفساد وسفك الدماء ، وهي تهمة ماتزال لاصقة به .

ـ يثبت الإنسان الأشياء بعد دخولها إلى عالم وعيه وذلك بوضع

اسم لها ، وهذه القدرة جعلته أهلاً للخلافة في الأرض حيث صارت الخبرات البشرية تنقل مشافهة .

إن اللغة والبيان من آيات الله ، وهي دليل قدرة الإنسان ﴿ الرَّحْمَنُ . خَلَقَ الإنْسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [الرحمن ٥٥/١-٣] ، وهي من أجل التعبير عن الحقيقة والصدق ، ولذلك ينبغي أن تصان اللغة والاسم عن الكذب والزيف ، وهذا سبب قدسية الكلمة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

- من الأفكار الواضحة تتولد فنون البيان وتتسع آفاق اللغة ، وحين يقل العلم ويذهب أهله ويحل التخلف يحدث الانتكاس في اللغة ، فتصبح القدسية للكلمات وتفسر الحقائق وفقاً لها ، ومثل ذلك تعظيم الرسوم لفقدان الحقائق كما بيّن ابن خلدون في حديثه عن أعمار الدول وعن الجيل الرابع منها . ومثله الغلو في تعظيم الشرائع والقوانين كتعظيم السبت عند اليهود ، أو الغلو في التمسك بحرفية القانون حتى يصبح الإنسان مسخراً له . وقد جاء الرسول ﷺ ليضع عن الناس هذه الآصار والأغلال .

التعليم بالقلم

المرتبة الرابعة

١ ـ الكتابة قدرة حديثة في تاريخ البشر ، وهي مظهر لكرم الله ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فبها تحفظ الخبرات .

ـ وتكون عصمة الإنسان من تكرار الخطأ .

إن الرمز ـ الكتابة ـ جعل العلم خالداً ، فحصنه من التحريف والضياع ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر ٩/١٥] .

تاريخ الإنسان قبل ظهور الكتابة يخيم عليه الظلام ، وبخاتم النّبيين الأُمي ختم عهد الأمية وانتقلت البشرية إلى عهد جديد هو عهد القراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .. ﴾ .

باستخدام الرمز تمّ اختزال العلم الذي مازال يتطور حتى بلغ مرحلة الآلات الحاسبة الدقيقة وبنوك المعلومات وهذه من نعم الله الكبرى ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَاأَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم ٦٨ /١ـ٢] .

٢ ـ ولكن النعمة قد تتحول إلى نقمة ، فتصبح القراءة سبباً

للجمود وإبطاء النمو حين يسوء التعامل معها ، كما ساء التعامل مع سر كهيعص . ويتم ذلك حين يفقد الإنسان صلته بالوجود الخارجي وبعوالم الآفاق والأنفس ، ويسيطر عليه تقديس الأشخاص والآراء ولا يعود لشهادة الحواس وَزْنٌ أمام قدسية الكلمة القديمة أو الأشخاص .

٣ ـ إن الكتب صور ذهنية لمؤلفيها عن العالم الخارجي ، وإن التعامل مع حقائق العالم الخارجي يصحح النظر إلى الكتاب ، ويكسب القارئ موقفاً إيجابياً من الكتاب ، فلا يقوم الكتاب بدور المعطل .

وهذا الموقف الإيجابي من الكتاب لا يكتسبه القارئ إلا بتوسعه في القراءة ، حيث يخرج باطّلاعه الواسع من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار ، أو من الصورة الذهنية إلى الحقائق الخارجية ، وبذلك لا يتوقف الاجتهاد .

٤ ـ إجراء التصحيح ليؤدي الكتاب دوره .

ويتم ذلك بإزالة الصور الخاطئة عن الكتاب بالحذف والاختصار لتسهيل إدراك الموضوع .

إن علم الإنسان بالطب والجراثيم و ... قد تطور كثيراً فكشف

دور الجراثيم و ... بينما بقي علم الإنسان بالسلوك البشري و بجراثيم المجتمع التي تفتك به متخلفاً وهذا يشكل عقبة تحول دون تعميم معنى العلم ، حتى يشمل الأمور التي يعتبرونها خارج نطاق العلم .

إن المنهج العلمي في مواجهة أمور المجتمع لم يحرز تقدماً كبيراً ، وبقي السلوك البشري خارج منطقة العلم لسببين :

١ ـ النظر الديني الخاطئ الذي يسلب الإنسان حرية الاختيار والقدرة على تقرير المصير .

٢ ـ ما ذكر من أن ما طبق في الفلك والطب وسواهما من منهج علمي يجب أن يطبق في السلوك ، لندرك السنن التي يخضع لها ، وبهذا توضع عن الإنسان الآصار والأغلال التي أراد الله وضعها عنه . وإن القرآن ليكاد يقصر معنى العلم على علم السلوك البشري أو علم ﴿ سُنَنُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ .

مرتبة خامسة للوجود

الوجود السنني

١ ـ إن الوجود الخارجي راجع إلى وجود سنني هو القوانين أو كلمة الله وأمره وتقديره . إن قانون تركيب الماء مثلاً ليس له وجود

خارجي بل وجود سنني يوضع له رمز . وكل مظاهر الكون تابعة للسنن . إن قانون الشيء موجود قبل وجود الشيء وهذا واضح في الكيمياء . وهذا الوجود السنني يمكن أن يكون مدخلاً لتصور وجود الروح .

٢ ـ والسنن ثابتة ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر ٤٣/٣٥] ، وهي هنا سنّة المجتمعات والأنفس .

إن المسلم لا يرى للعلم ثباتاً لأنه إما أن يظن الجهل علماً . أو لا يعلم معنى الانتقال من سنّة إلى سنّة ومن قدر إلى قدر .

كما أن المسلم قد تأثر بمفهوم الغرب فصار ينظر إلى أمور المجتمع وكأن العلم لا صلة له بها ، ويعرف ابن تيمية السنّة : « أن يفعل في الثاني ما فعل في الأول » ، وشبيه به تعريف راسل .

٣ ـ السنة والمعجزة :

إن الإسلام نبت في بيئة غير علمية ، وانتقل بالإنسان إلى الحياة العلمية حيث ارتقى بالدليل والبرهان من مستوى المعجزة إلى العلم . والقرآن يؤكد أن النظر العلمي دليل على صدق النبوة . وهذا الأسلوب غير سريع النتائج ، ولكنه على المدى البعيد هو الذي سيجعل الرسول

أكثر الأنبياء تابعاً . إن المسلمين ما زالوا في عقلية ما قبل العلم حين يذكرون المعجزات كإكثار الطعام ونبع الماء و ...

إن الانتقال من المعجزة إلى السنّة هو معنى ختم النُّبوة وإن القرآن حين يتدرج بالبرهان من مستوى المعجزة في قصة الذي مرَّ على قرية أو قصة إبراهيم إلى أفق العلم والسنة في قصة أُبي بن خلف المعاند ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ .. ﴾ [يس ٧٧/٣٦] . ليؤكد أن السنّة حلّت محلَّ المعجزة .

الفصل الثاني

العلم

أ ـ أسس أولية :

١ ـ الأساس الأول : لا علاقة بين السبب والنتيجة عقلاً .

ـ يحصل العلم حين يتم التحقق من ارتباط السبب بالنتيجة ، ولا قدرة للعقل على ربط الأسباب بالنتائج قبل مشاهدة الارتباط في الواقع . وإن العقل في حقيقته هو ربط السبب بالنتيجة فقد يشاهد الإنسان النتائج ولا يرى أو لا يدرك أسبابها ، وحين تعرف الأسباب يصبح الأمر علماً . ورؤية الأسباب في الأمور المادية أسهل منها في أحوال المجتمع والأنفس .

ـ إن قصد الكتاب هو تحديد كنه العلم وتذوقه لفصله عن الظن والهوى ، وذلك بالتأكيد على ملاحظة ارتباط الأسباب بالنتائج في الواقع ، وبذلك يصبح الإيمان بالله واليوم الآخر علماً يقوم على أسباب لها نتائج إيجابية .

والتوحيد هو إيقاظ ملكة العلم والتحرر من التبعية للأصنام والتقليد . إن العلم والإيمان مترادفان عند من يتذوق كنه الأمور ، كما أن الشرك والجهل سواء .

إن الله نهى عن الشرك الإيماني والجهل العلمي وعن عبادة الأشخاص في مظاهره الدينية والسياسية ، إن العلم هو طريق التوحيد ، توحيد الله ، وتوحيد العالم ، لأن الناس سيكفون عن التنازع حين يصبح الدين علماً ، فالعلم يقطع طريق الجدل .

٢ ـ الأساس الثاني : العقل ليس آلة بل وظيفة .

لم ترد كلمة عقل في القرآن إلا بمعنى عمل أو فعل ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فهو عملية وليس آلة . أطلق القرآن على الآلة اسم القلب أو الفؤاد أو اللب .. وهذه الآلات وظيفتها العقل أو ربط السبب بالنتيجة . إن العقل وظيفة لكسب سائر المهارات .

٣ ـ الأساس الثالث : عدم وضع الأشخاص محل السُّنن .

شرح مالك بن نبي في كتابه (مشكلة الأفكار) المراحل الثلاث التي يمر بها الطفل وهو يختزل تاريخ الإنسان . إن دراسة الطفل الذي يتلقى من محيطه ليصير إنساناً هي العلم المتعلق بالسُّنن التي تصنع الإنسان .

- إن الطفل يستعين بعـالم الأشخـاص ليحصل على العلم ، فيحل الآباء محل السُّنن ، وهذا نوع من الوثنيـة الـدينيـة ، يصـاب بـه من لم يتعلم التعامل مع الحقائق الخـارجيـة . حيث يجعل الأشخـاص مصـدر التعرف على هذه الحقائق فيضع المحراث أمام الثور ، وهـذه العمليـة في اعتبـار القرآن شرك . وهـذا الفهم ضروري لاستقـامـة الـدين والحيـاة والخلاص من الخضوع والتزلف والعبودية وزوال الازدواجية :

- إن لعالم الأشخاص جانبيه الإيجابي والسلبي :

يجب إعطـاء عـالم الأشخـاص حقـه دون تفريـط أو مغـالاة ، فـالخبرات البشريـة المتراكمـة تشكل الأسـاس الـذي يبني عليـه اللاحق فيوسع الدائرة ويضيف إليها درجة جديدة تغـدو دائرة لمن يـأتي بعـده لينطلق منها إلى آفاق جديدة ، هذه الخبرات يجب أن تقبل على أساس السنن لا على أساس عالم الأشخاص .

ب - دليل العلم :

التنبؤ والتسخير برهان على العلم .

أمـا التنبؤ فهـو أن يفعـل في الثـاني مـا فعـل في الأول . والقرآن يسمي ذلك بالنسبة للمجتمع سنة ، وسنة الله هـذه في المجتمعـات لا تنفي دور الإنسان فهي مرتبطة بسنة أساسية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد ١٣/ ١١] ، ثم يأتي التسخير بعد التنبؤ .

ـ والعاقبة برهان للعلم المتعلق بسلوك الإنسان . فهي برهان للعلم خاص بالمجتمع والقيم والأخلاق . كعاقبة المتقين والمكذبين ، وأما الأشياء المادية فعاقبتها ترجع إلى الإنسان الذي يسخرها في الخير أو في الشر .

واشتباه هذا الأمر دفع كثيراً من العلماء إلى اعتبار العلم محايداً أخلاقياً وهو خطأ يرجع إلى قصر العلم على الطبيعة دون القيم وإلى عدم اعتبار العاقبة دليلاً على العلم .

إن القرآن يؤكد على أن القيم والأخلاق و ... علم لها سنن ثابتة ، مختبرها السير في الأرض ودراسة سنن من خلوا من قبل والاحتكام إلى التاريخ الإنساني ماضيه وحاضره ومستقبله .

ـ ومن براهين العلم برهان أن العلم ما هو خير وأبقى .. والخير والأبقى نقطة أولية بدهية يتم الانطلاق منها . فكل أمر أعطى نتائج أنفع فهو حق وخير وهو علم بمقدار ما فيه من النفع ، ولكن لا بد من إدخال عنصر الزمن في الأنفع والأبقى . وذلك بملازمة صفة الاستمرار لها . وهذا النظر التاريخي إلى نتائج الأمور على المدى الطويل يكشف دور الأخلاق و يبين أنها ليست فرائض اعتباطية ولا أثقالاً تمنع من انطلاق الشهوات . بل الأخلاق علم لأن نتائجها خير وأبقى .

إن مذهب الذرائعية شر وخطأ حين يهتم بالمصلحة العاجلة التي من بعدها الأحقاد وهو حق حين يهتم بالخير الأبقى والأدوم ، وهذه ذرائعية القرآن والأديان .

إن النظر إلى العاقبة ـ الذي يؤكد أن الأخلاق علم ـ هو أسلوب علمي تاريخي تعرض له راسل . وذكره حسين مروة ذكراً عابراً . إن هذه النظرة العلمية تحسم النزاع بين العقل والنقل ، وبها يدرك الإنسان أسرار العبادة ، فيما تخلقه من نتائج هي خير وأبقى . ومثال ذلك في الحج والصلاة وسواهما من عبادات تخلق الكمال عند الإنسان والصلابة في المجتمع ، وقد أبقت للمسلمين رمق حياة في كيانهم الذي تهدم على الصعيد السياسي ، ولذلك يجب ألا تفصل العبادات عن أهدافها ووظائفها .

إن العاقبة تجربة يضاف إليها الخير والأبقى ، وهذا النظر على أساس العواقب يزيل النزاع حول مسألة العلمانية ، حيث يصحح منهج المعرفة ويخضع كل شيء لسلطان العلم .

جـ ـ الموقف العلمي :

هو الموقف من المجهول الذي لم يصر علماً . وعلى قدر معرفة الإنسان للماضي تكون معرفته للمستقبل أو للمجهول . فما سبق يلقي

الأضواء على ما سيأتي وهذا أمر متصل بالسير في الأرض والنظر إلى بداية الخلق .

ومما يحرم من هذا الموقف أن يظن الناس أن العالم خلق تاماً وغير ناقص في لحظة . إن الموقف العلمي هو الموقف التاريخي السنني الذي يمنح الثقة والتبصر ﴿ أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ ولكن طال على المسلمين الأمد فجمدوا عند اللحظة الحاضرة ورأوها مبتورة عن الماضي والمستقبل فقست قلوبهم وابتعدوا عن الموقف العلمي .

والابتعاد عن الموقف العلمي يدفع إلى سلوك طرق الحقد والانتقام وقطع الرؤوس بدل الإرشاد والهداية ، ويجعل صاحبه يشعر أن الأمور غير قابلة للحل ، ويدفعه إلى اليأس والبعد عن الحلم والفهم .

د ـ العلم والهوى :

الهوى مضاد للعلم ، وقد جاء في القرآن في موضع الاتهام والتحذير منه ، سواء كان هوى النفس أو هوى الآخرين ، لأنه يضل ويصرف عن العدل .

الهوى سبب أكثر ما يحدث من النزاع ، لأن النزاع اختلاف في الرؤية يسببه الهوى ، فهو كثير بين الأطفال والجاهلين .

إن الـذاتيـة تؤثر في ظهور الهوى وسيطرتـه على أحكام الإنسـان وتصرفـاتــه ، وقــد ضرب الله مثـل داود في القرآن . وهــذه مشكلـة اجتماعية وعالمية ومشكلة كل أحد .

كان الهـوى يـؤدي دوراً في حفـظ الـذات ، ولكن تطـور الحيـاة ربط الهوى بالمجتمع ، فلا بد من تصعيده لخلق الإيثار والغيرية .

إن قوانين الـدولـة تحـاول أن تضبـط الهوى وتخضع الـذات لروح المجتمع ، والعالم بحاجة إلى هذا ليحل نزاعاته .

لقد فشلت الأمم المتحدة في تفسير كلمـة الاعتـداء لأن كل واحـد يفسرها من وجهة نظره ومصلحته . ورؤيـة الهوى صعبـة ، لأن الهوى ظلم للنفس ، والمخطئ ظـالم لنفســه ولـو كان مستضعفـاً ، والإنســان لا يشعر أنه يظلم نفسه .

من الضروري معرفة بداية ظهور القـانون أو فكرة الحرام أو متى بدأ الإنسان يشعر بضرورة لجم هواه وتوجيه غرائزه .

في تراثنا اهتمام كبير بتبيان آثار الهوى وأفعاله .

إن الهوى مصنوع حضاري في أصلـه ، والأهواء نفسيـة وهي غير الشهوات الجسدية . وإن لم تثمر جهود الناس لتهذيب أنفسهم فهذا يعني

قلة العلم وغموض المعرفة ، وهو ما يزال الناس يعيشون فيه إذ إن الرداء الحضاري المهلهل يرمى وقت الأزمات ، وتتكشف طبيعة التوحش في الناس وتظهر هشاشة القانون .

وإن القرآن قدم أحكاماً واقعية لذلك حين حكم بـ ﴿ قَلِيلاً مَا تؤمِنُونَ ﴾ و ﴿ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ و ... ولكن هذا الإخبار يفيد الزجر والنهي لأن العلم قادر على خلق الإنسان المتقي الذي ينهى النفس عن الهوى .

لقد ألح القرآن على إبراز أخطار المعاصي وأمراض القلب التي تحطم القيم وتؤدي إلى زعزعة الحضارة ، وذلك ما بيّنه توينبي في حديثه عن الأقلية المبدعة وتحولها إلى أقلية مسيطرة ، أو ما بيّنه فرويد في حديثه عن ضياع القيم الثقافية حين تسيطر الأقلية وتسخر المجموع لصالحها .

إن إلقاء الأضواء العلمية على أسباب الأوبئة الاجتماعية والأخلاقية أمر على غاية من الأهمية ، فبذلك وحده تنقشع الظلمة وينشط الإنسان من عقال الأمراض الفتاكة ويتخلص من المشاكل التي ينتجها اتباع الأهواء .

هـ ـ العلم والتوحيد :

- يظهر التوحيد في ثلاثة جوانب :

١ - توحيد الذات فلا خالق إلا الله .

٢ - وتوحيد التشريع فالطاعة لأمر الله .

٣ - وتوحيد الرغبة والرهبة أو الألوهية .

إن العلم أساس التوحيد في أمر الله التشريعي لمعرفة أوامره ونواهيه ، وأمر الله الكوني لمعرفة آياته وتسخير الكون .

- التوحيد قيمة إنسانية أو مشكلة إنسانية .

إن ظهور الفردية - كما بيّن كتاب الغرب والعالم - عملية تاريخية ، فقد تطورت فكرة الفردية خلال التاريخ . كان التفرد مفقوداً في القبائل والمجتمعات القديمة التي لم تكن تتسامح مع النزعة الفردية كالمجتمعات اليونانية والرومانية . ولذلك نظروا إلى المسيحية على أنها سرطان لأنها اعتبرت الخلاص السرمدي أساساً وكرست الحياة من أجله . وحررت الفرد من الخنوع للجماعة والدولة .

إن فريزر يرى أن إعادة الاعتبار إلى الإنسان أو إعادة التوحيد عقبة أمام الحضارة ، فيما يرى توينبي أن رأي فريزر عودة للوثنية . والحقيقة أن المشكلة كامنة في سلامة الجميع : الفرد والمجتمع ، ووضع كل في موضعه المناسب ، فالعلم ينتج من مبادرات أفراد في أرض المجتمع ،

والمجتمع يكبت المبادرات وهنا تظهر قيمة الجهد والمعاناة والتحرر من الشعور بالعجز .

- إن التوحيد خروج من الآبائية ، وتعبير عن توق الإنسان إلى الحق وجعله مسؤولاً أمام الحق ، إنها ملة إبراهيم .

الآباء في عصور التخلف يحيلون الإنسان إلى شيء أو أداة مسخرة ، والتوحيد دعوة لتحريره . إن فكرة اليونان أو الرومان في جعل الناس أدوات عادت تسيطر في نظم العالم التي تحيل الإنسان إلى منفذ بلا اعتراض ، لهذا اعتبر توينبي الحضارات نكوصاً عن الأديان العليا التي تسمو بالإنسان .

- إن تتبع التاريخ الإنساني ، وملاحظة ما كابدته الإنسانية من انسحاق كرامة الإنسان يؤكد أن التوحيد حاجة إنسانية يرتفع بها الإنسان لتحمل المسؤولية ، مسؤولية كل فرد عن الإنسانية .

السلوك الذي يضمن النجاة الأخروية يضمن خلاص الأفراد والمجتمعات من التخلف والإذلال وسلطان الاستضعاف والاستكبار ، وهنا تبدو وظيفة التوحيد الاجتماعية في خلق السلوك الذي تتحقق به إنسانية الإنسان ووحدة الكرامة البشرية .

الفصل الثالث

الأجنة القرآنية

- ١ -

﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

- في الآية منهج للبحث يشمل الجوانب المادية وغيرها مما يمكن أن يدرسه الإنسان لأن كل أمر له بدء خلق . وإن جهل بداية الخلق يعطي صورة مشوهة للواقع ، ويخلق الاضطراب وعدم التمكن من التعامل الحسن مع الواقع . والنظر التقليدي قد تصور أن خلق الكون تمّ كما هو ابتداء وكاملاً ، وهذا نتيجة رؤية لحظية قاصرة .

- إن الخلق مازال مستمراً في شتى مستوياته ، وإن الإنسانية كانت كالفرد له مراحل نمو ، وهي لم تصل إلى الرشد بعد . ومعرفة ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ ترشد إلى أن الخلق ينمو ويتقدم . كما أنها تقود إلى التفكير في المصير الدنيوي . والآية تنقل البحث عن المعرفة من آيات الكتاب إلى آيات الآفاق والأنفس . إن ما علمه الله في الإنسان وجهله الملائكة هو سر خلقه وهو مرتبط بدوره في الحياة الدنيا ..

سيصل الإنسان إلى مرحلة يأنف فيها من سفك الدماء كما صار يأنف من أكل لحوم البشر وسيبلغ مرحلة (النشأة الآخرة) .

إن مشكلة بدء الخلق من أول ما صدم الفكر الديني ، ومع ذلك لا نجد من المفكرين المسلمين من جعل من آية النظر إلى بداية الخلق منطلقاً لبحث هذه المشكلة .

- ٢ -

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

- تنقل الآية أدلة موضوع الدين والإيمان من آيات الكتاب إلى آيات الآفاق والأنفس ، وهي نقلة ستجعل الدين والعلم متحدين لأن مصدرهما واحد وهو الواقع ، إنها كآية ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ .. ﴾ تبرز دور الإنسان الذي يسير في الأرض ويحمل الأمانة .

- سيصبح الدين علماً ويغدو عالمياً حين تشهد له آيات الآفاق والأنفس التي لها حق معرفة الحق ، وسيكون ذلك سبباً لدخول الناس في دين الله أفواجاً . وجارودي من مؤشرات هذا الاتجاه .

- حين شهدت آيات الآفاق لعلم الفلك زال ما كان يجري فيه من

نزاع ، وسيزول ما في الدين من نزاع وعداوة حين تشهد له آيات الآفاق والأنفس ، وإن فكرة ختم النبوة تأكيد لهذا الدور .

ـ مولد الإسلام مولد العقل الاستدلالي ، ونبي الإسلام صلة بين العالم القديم والحديث ، وفكرة ختم النبوة تعلن انتهاء الدورات الحضارية ، وإمساك الإنسان بسنن التاريخ ليجعل الحضارة مستمرة ويخلصها من الحتمية ، وكذلك فكرة أن محمداً للناس كافة تؤكد هذا .

ـ ٣ ـ

﴿ وسخَّر لكم ما في السَّموات وما الأرضِ ﴾

الآية من مقامات تكريم الإنسان .

١ ـ ففيها مقام النيابة الإلهية الذي يرتقي إليه الإنسان حيث يأمر فيطاع .

٢ ـ التسخير يتنامى مع الزمن ويظهر ذلك من تأمل ﴿ كيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ في حالة القراءة والكتابة مثلاً ومع ارتقاع التسخير تلوح ملامح (النشأة الآخرة) .

٣ ـ التسخير تسخيران ، تسخير عالم الآفاق وتسخير عالم الأنفس . والثاني أصعب وأبعد ، والغربيون أنكروا أن يكون الثاني

علماً ، على عكس القرآن . وهـذا مـا أدى إلى تنـاقض أهـداف الحضـارة الغربية مع أهـداف القرآن . هي تمجـد الجـانب المـادي (كثرة الأموال والأولاد) ... والقرآن يرى التقوى أسـاس الرقي . ولا يريـد للإنسـان أن تملكه الدنيا وألا تتحول الوسائل إلى أهداف . والحضـارات انتحرت على هذا المنزلق .

ـ وتـو ينبي حـام حـول المـوضـوع حين رأى أنـه لا السيطرة على البيئـة في تحسين الأسلوب التكنـولـوجي ولا التـوسـع الخـارجي في إخضـاع النـاس يعبران عن ارتقـاء الإنسـان الحقيقي . ويضرب مثـل الفراعنة وبناء الأهرام . ومثل حضارة اليوم وبناء الترسانات .

ـ الآيـة تضع الإنسـان أمـام مسـؤولية لا نهـائيـة ، يراهـا بعض المفكرين الغربيين مستحيلـة مثـل تـوينبي الـذي يرى عـدم إمكان التكنولوجيا دون التلوث بما نجم عنها من أخلاق .

إن موضـوع سيطرة الإنسـان على الـدنيـا أو سيطرة الـدنيـا على الإنسان ، وعلاقة الدنيا بالآخرة والأخلاق بالسياسة محور اهتمام القرآن الذي يمنح الإنسان الثقة في الارتقاء وإثبات جدارته بهـا لتجـاوز تهمـة الملائكة . وأمثلة القرآن عن عادٍ وإرم ، وعن الفراعنة وسواهم ، مدارها على هذا الاهتمام .

- ٤ -

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادوا والنَّصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

[البقرة ٢/٦٢]

- العالم المعاصر يمر بمرحلة خطيرة من التحول شبيهة بمرحلة الولادة في حياة الإنسان ، ولا يحل مشكلات هذه المرحلة غير العلم .

- وقد تعرض الإنسان لمثل هذا حين انتقل إلى مرحلة الزراعة ولكنه عجز عن التكيف مع ما تقتضيه من العدل واحترام إنسانية الإنسان ، فظهر التسلط والقهر والعبودية .

- والآن دخل الإنسان أزمة جديدة قبل أن يحل أزمات المراحل السابقة .

- إن التحول الجديد دفع إلى ضرورة وحدة العالم ، ووحدة المصير ؛ لأن النجاة الفردية محالة .

- آية البحث ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا .. ﴾ : تيسر التكيف المطلوب

وهو الخروج من الأنانية الذاتية إلى الحب والإيثار ، والخروج من سفك الدماء والثارات .

ـ البشرية تواجه الأزمة بالطرائق القديمة ، بالظلم والقهر والاستكبار في الأرض .

ـ الآية رؤية تفاؤلية لدين يهدف إلى العالمية فيؤكد على التسامح والإحسان و ... لتتجاوز الإنسانية حالة الفساد وسفك الدماء ، وتحقق ما علمه الله فيها .

ـ إن كشوف الطاقة المادية خطر على الإنسان لأنها لم ترافقها كشوف قوى الخير والمحبة والإيثار التي فطرت عليها نفس الإنسان .

ـ عالمنا المعاصر أهدافه مبهمة و يقوده قادة عميان وهو متخم بالمعدات الكاملة .

ـ الأصول المشتركة مع أهل الكتاب يجب أن تحول دون تمزق الإنسانية .

اقرأ وربُّك الأكرم

ينطلق المؤلف من قوله تعالى : ﴿ اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علَّم بالقلم ﴾ ليضع الإنسان على طريق العلم والسلام ، الذي يكسبه الموقف التاريخي السنني ، وهذا الموقف يمنح الثقة والتبصر والكرامة ، ويُبعد عن سلوك طرق الحقد والانتقام والتقليد .. فالذين ينالون كرم الله وكرامته هم أكثر الناس قراءة وأشدهم اتصالاً بالكتاب والعلم ..

ويؤكد المؤلف أن الجانب الذي علينا الاهتمام به : هو إيضاح مبادئ ومناهج إنتاج المعرفة والعلم .. كما يبين أن التوحيد خروج من الآبائية ، ودعوة لتحرير الإنسان ، وحاجة إنسانية يرتفع بها الإنسان لتحمل المسؤولية ، وتحقيق إنسانيته وتقويم سلوكه ..